غرائب التاريخ

أحداث غامضة ـ محاكمات فاصلة

تعريب

أياد ملحم



غرائب التاريخ

أحداث غامضة ـ محاكمات فاصلة

● غرائب التـاريخ

● تأليف :

— The world's Greatest: Mysteries
By: Gerry Brown
— The world's Greatest: Trials
by: Tim Healey

● تعريب : إياد ملحم

● الطبعة العربية الأولى

دار الحسام
للطباعة والنشر والتوزيع
أول اوتوستراد سليم سلام (زقاق البلاط) ـ بناية السراي
ص.ب ١٤/٥٣٩٢
فاكس رقم ٤٤٨٠٥٦ ٠٠١٢١١٢٤
بيروت ـ لبنان

مقدمة الترجمة

شُغل الإنسان منذ القدم، وما زال، بالأمور الغريبة والأحداث الغامضة، كما شغل بالأساطير الغيبية والقوى الروحية والألغاز المحيرة. وبرغم التقدم العلمي والتقني الذي وصلنا إليه، فما زلنا نسمع ونقرأ ونعيش أحداثاً تحيّر العقل، وتتحدى كل منطق، وتثير شتى أنواع التساؤلات. كما أنها تكشف عن محدودية ما توصلنا إليه من علم وتقدم، وتذكّر الإنسان بعظمة هذا الكون وعظمة خالقه.

هناك عوالم في حياتنا ما زالت تستعصي على التفسير والإدراك، مثل عوالم السحر والجن والتنويم المغناطيسي. وهناك محاولات الإنسان المستمرة لكشف الغيب بالحدس والتبصير والتنجيم. كما أن هناك معجزات الشفاء، ونبوغ الأطفال، ومحاولات الإنسان للانطلاق في الكون الواسع والاتصال بسكان الفضاء.

هناك قصص التوائم المتشابهة، والأحافير الحية، وأسرار الخيمياء والوخز بالأبر، وغير ذلك من الغرائب والعجائب التي يصعب تصديقها أحياناً.

هناك المحاكمات التي تتعلق بقضايا مستجدة مثل منع الحمل، والتلقيح الصناعي، والتشهير، ونشر المطبوعات الإباحية. وهناك محاكمات تاريخية توثق أحداثاً ووقائع مهمة مثل تدريس نظرية التطور، وبيع عقار مضر (الثاليدومايد)، وإعدام ملك بريطانيا شارل الأول، أو مثل محاكمة الجاسوس غاري باورز، والبطل السير والتر رالي، ومحاكمات النازيين في نورمبيرغ. كما ويشتمل الكتاب كذلك على محاكمات طريفة مثل محاكمات الحيوانات، ومحاكمة محطم زهرية أثرية، ومحاكمة مربية ساحرة وسواها.

ثم هل القضاء منزّه دائماً عن الخطأ؟ وهل القضاة فوق مستوى البشر والضعف البشري؟ وهل أحكام المحاكم منصفة دائماً وعادلة؟ لقد أثبت تاريخ البشرية أن الله العزيز القدير هو المنزه وحده عن الخطأ، وهو فقط المنصف والعادل دائماً وأبداً.

أما القضاة فقد يخطئون، أو يتحيزون، أو يصدرون في بعض الأحيان أحكاماً جائرة وظالمة مبنية على أقوال شهود خادعة ومضللة أو كاذبة. فكم من بريء أُدين ظلماً وسُجن أو أُعدم؟ وكم من مجرم عتيد غادر قاعة المحكمة حراً طليقاً، أو ادعى الجنون لينقذ عنقه من حبل المشنقة؟ بل، وكم من قاتل ظن أنه قاض ينفذ حكم الموت بضحيته؟

إن من يطالع محتوى هذا الكتاب يجد شواهد من التاريخ تدل على أن قاعات المحاكم قد عرفت أحداثاً وقضايا غريبة. بعض هذه القضايا كان مجرد جرائم عادية حدثت بفعل الكراهية وحب الانتقام، أو بدافع الطمع والخيانة وحب الذات. غير أن معظم الحكايات والقصص الواردة هنا كانت بمثابة محاكمات فاصلة ومصيرية أثرت في تاريخ القضاء ومسيرته، وشكّلت منعطفاً جديداً في حضارة الإنسان وتراثه.

في هذا الكتاب أنماط لكل هذه الشواهد التي تمّت ترجمتها بتصرف عن كتابي:
«The World's Greatest: Mysteries» للمؤلِّف جري براون (Gerry Brown)
«The World's Greatest: Trials» للمؤلِّف تيم هيلي (Tim Healey).

لقد حرصت دار الحسام للطباعة والنشر على إضافة هذا الكتاب إلى المكتبة العربية، لما فيه من فائدة ونفع، ومن ثقافة وتجارب ومخزون حضاري.

كلنا أمل في أن نكون قد وفقنا في نقل هذه القصص الغريبة، وغير العادية إلى القارىء العربي الذي يتطلع اليوم إلى الثقافة الشاملة، ويرغب في الاطلاع على تراث الأمم الأخرى وخبراتها.

والله ولي التوفيق

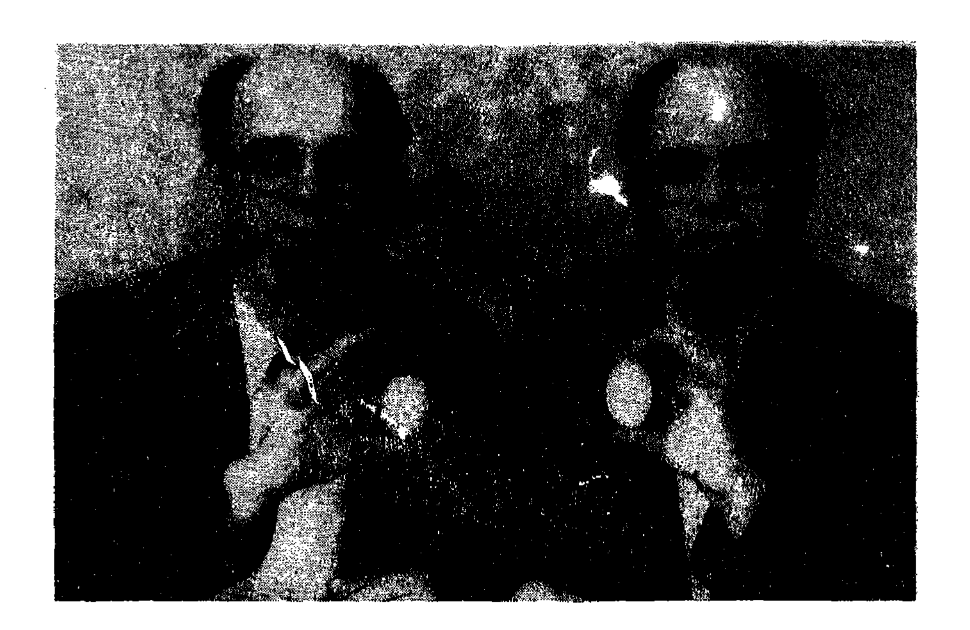
إياد ملحم

تموز (يوليو) ١٩٩٣

الفصل الأول

أحداث غامضـة

التـوائم المتشابهـة



تحرص الأم عادة عندما ترزق بتوأم أن تجعلهـما يبدوان بمـظهر واحـد، فتلبسهما الثيـاب نفسها، وتـطعمهما الـطعام نفســه، وكذلـك الأمر بـالنسبـة لاختيـار الألعـاب والمدرسة مما يجعلهما يمران بالخبرات التربوية نفسهـا. ولكن ماذا عن التـوأم اللذين يتم فصلهما منذ الولادة حيث يعيش كل منهما ويتربى في بيئة مختلفة ؟

هناك نوعان من التوائم: نوع ينتج التوأم فيه من بويضة واحـدة لقحها حيـوان منوي واحد، ولذلك يكـون لهما الصفـات الوراثيـة نفسها ويسمى الـوليدان في هـذه الحالة بـالتوأم المتشـابه. أمـا النوع الثـاني فينتج من تلقيـح بويضتـين اثنتين بحيـوانين منويين في الوقت نفسه ويأتي الوليدان مختلفان اختلاف الأخوة في العائلة الواحدة، أي قد يكون أحدهما ولداً والآخر بنتاً أو قد يكون أحدهما أسمراً والثـاني أبيضاً الـخ . . . ويسمى هذا النوع بالتوأم غير المتشابه. وحديثنا هنا عن النوع الأول الذي يكـون فيه

التوأم متشابهاً تمام التشابه بحيث يصعب التمييز بينهما، ويكون الاثنان بالطبع ذكوراً أو الاثنان من الإناث.

في عام ١٩٨٠ شهدت محكمة يورك محاكمة التوأم فريدا وجريتا بتهمة الاعتداء على جارهما. والتهمة ليست هي المهمة، ولكن المهم في الأمر بل والغريب أن التوأم كانتا تجيبان على الأسئلة ذاتها بالعبارات ذاتها في الوقت نفسه. وتبين أنهما كانتا تتصرفان دوماً التصرف نفسه وتقضيان كل وقتيهما معاً، بل وعندما أعطيتا ذات مرة معطفين أخضرين بأزرار مختلفة قطعتا الأزرار وأعادتا ترتيبها بحيث جعلتا في كل معطف نصف نوع الأزرار. أي جعلتا في كل معطف النوعين من الأزرار بحيث بدا الواحد مشابهاً تماماً للمعطف الآخر. وكان التوأم مهووساً بالنظافة بحيث كانتا تستهلكان أسبوعياً ١٤ قطعة صابون وثلاث زجاجات من الشامبو. قالت فريدا وجريتا في المحكمة: نحن الاثنتان شخص واحد، والواحدة منّا تعرف بماذا تفكر الأخرى.

أما في أوهايو فالحالة كانت مختلفة، حيث ولد في عام ١٩٣٩ توأم لأم غير متزوجة فتم توزيع الوليدين على عائلتين مختلفتين تبنّت كل واحدة منهما أحد الوليدين. وكانت العائلة الأولى (لويس) تعيش على بعد ٨٠ ميلاً من العائلة الثانية (سبرنغر). وكان قد تم إخبار كلٍّ من العائلتين أن شق التوأم الآخر قد توفي أثناء عملية الولادة.

لقد سمّت عائلة لويس طفلها المتبنى جيمس، وصدف أن سمّت عائلة سبرنغر طفلها هي الأخرى باسم جيمس. وبعد أربعين سنة التقى الترأم جيمس لويس وجيمس سبرنغر وتبينا لدهشتهما أن كل واحد منهما عاش حياة مماثلة لحياة الآخر. فلكل منهما أخ آخر بالتبني اسمه لاري. واهتمامات كليهما واحدة، وكذلك ضعفهما في بعض المواد الدراسية. ولكل منهما كلب اسمه «تروي». وقد تزوج كل منهما امرأة تدعى ليندا، طلقها وتزوج امرأة ثانية اسمها بيتي. سَمّى كل منهما ابنه الأول جيمس ألان. وعمل كلٌّ منهما في محطة لبيع الوقود بعد أن كان قد اشتغل في محل لبيع الهمبورغر. كما أن هوايتيهما واحدة: النجارة والرسم الفني.

كان تاريخهما الطبي والفيزيائي كذلك متماثلاً. فطول كل منهما ٦ أقدام ووزنه ١٨٠ رطلاً. عانى كل منهما في الفترة نفسها من صداع نصفي ثم شفي منه عندما بلغ



لافونا ولافيلدا روي توأمان تزوَّجتا توأمين هما آلوين وآرثر ريتشموند

العمر ذاته. علاوة على أنهما كانا قد شكيا من أوجاع معينة ومن مشكلات في القلب في فترات زمنية واحدة.

لقد أُجريت دراسات وأبحاث عديدة حول التوائم المتشابهة. وفيما يلي حكاية أخرى مختلفة إلى حد ما من حكايات هذه التوائم. فعندما تم الانفصال بين زوجين عام ١٩٣٣ في ترينيداد أخذت الأم الألمانية الأصل أحد ولديها التوأم إلى ألمانيا حيث نشأ هناك وتربى على حب النازية، بينما بقي الآخر مع والده اليهودي في ترينيداد. كان اسم الأول أوسكار ستوهي، واسم الثاني جاك يوفي. وبرغم أن كلًّا منهما نشأ بعيداً عن أخيه آلاف الأميال إلا أن كثيراً من الأشياء كانت مشتركة بينهما. كان كل منهما يحب أن يغمس الخبز المدهون بالزبدة في قهوته، ويقرأ المجلة من الصفحة الأخيرة. كما كان لكل منهما الحركات المضحكة نفسها والنكات ذاتها. غير أن جاك يوفي كان يتحدث الإنكليزية، بينما كان أوسكار ستوهي يتحدث الألمانية.

عندما التقى الشقيقان بعد ٤٦ سنة على مولدهما، كان كل منهما يرتدي ثياباً متشابهة، ويضع على عينيه نظارات بإطار معدني متماثل. ونظراً لأن واحدهما لا يفهم لغة الآخر، فقد تعانقا بصمت وعيونهم ملؤها الدمع.

السماء تمطر سمكاً

في ٩ شباط (فبراير) عام ١٨٥٩ هبت عاصفة هوجاء في جبل آش بويلز، أعقبها هطول مطر غزير جعل عامل قطع الأخشاب جون لويس يهرع بحثاً عن ملجأ ريثما تنتهي العاصفة. وبينما هو يركض تحت المطر أحسّ بأجسام صغيرة تسقط من السحب فوق رأسه. وعندما رفع يده إلى إطار قبعته ليدنيها فوق وجهه أمسك بسمكة محتجزة في إطار القبعة. وقف مدهوشاً ونظر حوله فإذا أسماك صغيرة بأعداد كبيرة تقفز في برك الماء التي شكلتها مياه الأمطار المتدفقة من السماء.

بعد أن هدأت العاصفة وتوقف سيل المطر أخذ جون لويس وزملاؤه يجمعون الأسماك من حولهم ويضعونها في سلال وصناديق خشبية كانت بحوزتهم. وبعد عشر دقائق عادت السماء تمطر أسماكاً حية. وفي اليوم التالي طلعت الصحف المحلية وفيها وصف تفصيلي لما شاهده لويس وزملاؤه في الغابة الجبلية.

وكانت حوادث مماثلة قد تم تسجيلها من قبل مؤرخين يونانيين في القرن الثاني بعد الميلاد. حيث ذكر فونياس أن السماء أمطرت سمكاً ذات مرة لمدة ثلاثة أيام. وسجل مؤرخ آخر (فيلارخوس) أن الناس رأت السماء أكثر من مرة تمطر سمكاً.

وفي شباط (فبراير) ١٨٦١، هز جزيرة سنغافورة زلزال عنيف، أعقبه مطر لمدة ستة أيام. وقد وصف العالم الفرنسي فرانسوا دي كاستلينو، الذي كان يقوم في ذلك الوقت بأبحاث هناك، مشاهداته أمام أعضاء أكاديمية العلوم في باريس، فقال: «رأيت من نافذة غرفتي عدداً كبيراً من الصينيين يجمعون الأسماك من برك الماء الضحلة. ولما سألتهم عن مصدر تلك الأسماك، أجابوا بأنها سقطت من السماء. وبعد ثلاثة أيام جفت تلك البرك فظهرت أسماك عديدة ميتة».

كما أن عالم الأحياء البحرية الأميركي ألن باجيكوف شهد في شهر تشرين أول (أكتوبر) عام ١٩٤٧، سقوط أسماك مع ماء المطر بينما كان يتناول طعام الإفطار مع زوجته في أحد مقاهي ماركسفيل بلويزيانا.

أمـا في الهند فقـد تم تسجيل سقـوط أسماك مجففـة مرتـين في ثلاثينيـات القـرن التـاسع عشر. وفي ايسن بـألمـانيـا سقط من السـماء في عـام ١٨٩٦، سمـك الشبـوط النهري مجمداً داخل مكعبات من الجليد.

وأمـا أغرب مـا ذكر في هـذا المجال فسقـوط أسماك من السـماء الصافيـة في أيام مشمسـة. وإذا كنا نفهم كيف أن بـإمكان الـزوابع والأعـاصير حمـل بعض الأجسـام والأشيـاء الخفيفة معهـا من فوق سـطح الأرض، فإننـا لم نعرف حتى اليـوم كيف يتم امتصاص الأسماك من أعـماق البحار والبحـيرات ورفعها إلى الأعـالي ثم إسقاطهـا إلى الأرض طوال عدة أيام، وبعد مرور العاصفة وانقضائها بفترة طويلة!

الأحافير الحية

عندما كان المهندسون وخبراء المتفجرات يحفرون نفقاً للقطار في المنطقة الجبلية الواقعة بين سانت ديزيه ونانس في شمال شرق فرنسا عام ١٨٥٦ ، واجهتهم كتلة صخرية جيرية من العصر الجوراسي فنسفوها بالديناميت وشطروها شطرين. وبعد دقائق قليلة هدأ الغبار وتقدم العمال لحمل فتات الصخور إلى خارج النفق، غير أنهم سرعان ما تراجعوا إلى الخلف مذعورين. لقد شاهدوا طائراً أسود اللون غريباً بحجم الأوزة يترنح أمامهم. كان له منقار مخيف مزود بأسنان حادة، وكانت أطرافه الأربعة مزودة بمخالب بارزة وبين الأصابع أغشية جلدية تلمع فوقها طبقة زيتية كثيفة.

تحرك الطائر ببطء، وحرك منقاره في الهواء المغبر وهو يلهث، ثم تقدم عدة أقدام وهوى إلى الأرض ميتاً. حمل العمال الطائر الميت إلى متحف التاريخ الطبيعي في مدينة غراي القريبة حيث تعرف الخبراء هناك على الزاحف المجنح. لقد كان حيواناً منقرضاً من الزواحف الطائرة التي عاشت قبل التاريخ (Prehistoric Pterodactyl). أما الصخور التي خرج منها ذلك الكائن فيعود تاريخها إلى ما قبل ١٥٠ مليون سنة، حيث كانت تعيش الدينصورات، والزواحف الطائرة التي كان يبلغ طول جناحي بعضها ٥٠ قدماً، والتي كانت تحلق فوق المحيطات والمستنقعات باحثة عن رزقها.

لقد كان هذا الكشف الفرنسي للطائر المنقرض من أعجب الاكتشافات في التاريخ، وأصبح حديث الصحف في تلك الفترة. أما كيف كان ذلك الكائن يتنفس، أو ماذا كان يأكل، وكيف تحمل الضغط الهائل طوال السنوات التي قضاها داخل الطبقات الجيرية المتحجرة؟ لا أحد يعرف.

وهناك قصة مماثلة رواها العالم الثقة الدكتور ي. د. كلارك من كلية كايوس بكامبردج فقال: بأنه كان يبحث عن الأحافير في الطبقة الطباشيرية بإنكلترا، حيث عثر فريقه على عمق ٢٧٠ قدماً على طبقة من قنافذ البحر المتحجرة كان بينها ثلاثة حيوانات من سمندل الماء (برمائيات). ولما كانت أجسام السمندلات تبدو محفوظة بحالة جيدة في الطبقة الطباشيرية الرطبة، فقد أخذها الدكتور كلارك ووضعها فوق

قطعة من الورق لتجف تحت أشعة الشمس. غير أنه سرعان ما اعـترته الـدهشة بعـد دقـائق قليلة عندما بدأت الكـائنات الصغـيرة تتحرك. وبعـد قليل مـات اثنان وبقي الثالث فأخذه إلى بركة ليختبر استجابته للماء. ولما وضعه في ماء البركة أخذ السمنـدل يتلوى ثم سبح واختفى في الماء بحيث تعذر استعادته.

بعـد ذلك أخـذ الدكتـور كلارك يجمـع عينـات مختلفـة من السمنـدل ويقـارنها بالعينتين الميتتين اللتين عثر عليهما في الطبقة الطباشيرية. وبعد دراسة مستفيضة توصل إلى أن السمندل الذي عثر عليه ليس له مثيل معـاصر. كما أن عـالم الأحياء المرجعي رتشارد كوبولد في جامعة كامبردج أفاد بعد أن فحص العينتين بنفسه قـائلاً: «إنهما من نـوع منقرض لم نعرفه من قبل».

بعد تلك الاكتشافات، شُغلت إنكلترا إبان العهد الفكتوري بنشـاطات علميـة وبحوث حول اكتشاف الضفادع الحية في الطبقات الصخرية. ففي عام ١٨٦٢ نشرت جريدة محلية في لنكولنشاير تقريراً حول العثور على ضفدع محتجز في طبقة صخرية على عمق ٧ أقدام تحت سطح الأرض أثناء عملية حفريات. وبعد ذلك بثلاث سنوات تم العثور على ضفدع حي في طبقة صخرية على عمق ٢٥ قدماً، وكان لون جلده مشابهـاً للون الصخر الأبيض المصفر. لكنه سرعان مـا غير لـون جلده إلى اللون المخضر، ثم مات بعد يومين.

لقد دعت هذه الاكتشافات العلماء للقيام بتجارب معكوسة حيث أخـذ بعضهم يدفن الضفادع في الـطين أو في حجرات زجـاجية ثم يكشـف عنهـا بعد سنـة أو أكثر. كـان بعض العلماء يجد ضفـادعه ميتـة. أما البعض الآخـر فكان يستعيـدها حيـة. في عام ١٨٦٢ (٢٣ أيلول ـ سبتمبر) نشرت التايمز خبراً مفاده أن أحـد العلماء الفرنسيـين استعاد بعد ١٢ سنة ٤ ضفادع حيـة من ٢٠ ضفدعـة دفنها حيـة على عمق كبـير تحت سطح الأرض. غير أن تلك الأبحاث توقفت بعد النقد الشديد الـذي وجّه إليهـا من الناحية الأخلاقية.

كل هذه الحكايات تثير سؤالاً معقولاً: هل هناك صخرة هائلة الحجم تحتجز في داخلها أحد الدينصورات الحية التي يمكن الكشف عنها صدفة أثناء عمليات الحفـر في أحد المشروعات الضخمة؟

الناس والنجوم

عندما اجتمع رونالد ريغان وميخائيل غورباتشيف في مؤتمر القمة في الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر يوم ٨ كانون أول (ديسمبر) عام ١٩٨٧ لتوقيع المعاهدة التاريخية لتدمير الصواريخ النووية متوسطة المدى، كان مع كل منهما كبار مستشاريه العسكريين. غير أن وراء كل منهما كان يقف أيضاً المستشارون السريّون ـ المخابرات السرية الروسية، وعالمة التنجيم الكاليفورنية! ـ ذلك أن مواعيد ريغان التي كانت تشرف على تنظيمها زوجته نانسي، كانت محكومة خلال الثمان سنوات التي قضاها ريغان في البيت الأبيض بتنبؤات المنجمين.

لقد أثارت هذه المسألة ضجة كبيرة في أميركا، بل واحتجاجات واسعة، عندما كشف عنها مدير شؤون موظفي البيت الأبيض دونالد ريغان في أيار (مايو) ١٩٨٨. يومها شعر المسؤولون في البيت الأبيض بالإحراج فسارعوا إلى نفي إيمان زوجة الرئيس بالتنجيم، وإلى نفي أي تأثير لآراء المنجمين في قرارات رئيس أكبر قوة عالمية. غير أن الرئيس وزوجته كانا قد اعترفا قبل وصولهما إلى البيت الأبيض بإيمانهما بعلم التنجيم الذي كان له تأثير في تسيير حياتهما اليومية.

لم يكن ريغان وزوجته الوحيدين اللذين يؤمنان بتأثير النجوم والأبراج في حياة الأفراد، بل وفي حياة الشعوب والدول كذلك. إذ يوجد في أميركا وحدها ٥ آلاف منجم محترف، يبلغ دخلهم السنوي جميعاً ٣٥ مليون دولار. كما أن ٩ من كل ١٠ صحف تصدر في الولايات المتحدة وأوروبا ومعظم دول العالم فيها عمود يومي للأبراج وقراءة الحظ، يحرص ملايين القراء على قراءته يومياً.

كثيرون يستشيرون المنجمين قبل الإقدام على عمل مهم أو خطير في حياتهم. من هؤلاء رجال أعمال وصناعة، وملوك، ورؤساء دول، ومهندسين، ورياضيين، علاوة على آلاف بل وملايين النساء والرجال المقدمين على الزواج. أي واحد منا لا يعرف برجه، أو لم يقرأ «الفلكي» في جريدته اليومية؟ وهل صحيح أن لحركة الكواكب في السماء تأثير في حياة البشر على سطح الأرض؟



ريغان - غورباتشوف وثالثهما عالمة التنجيم



المنجّمة الأميركية . . جوان كويغلي

ينبغي أن نميز أولاً بين علم الفلك وعلم التنجيم. ذلك أن علم الفلك علم موضوعي له أدواته التي تدرس الأجرام السماوية وحركتها دراسة علمية. بينما نجد أن علم التنجيم هو مجرد اعتقاد بتأثير حركة الكواكب في حياتنا اليومية. وعلم الفلك مثل علم التنجيم قديم قدم الحياة على سطح كوكبنا الأرضي هذا. ويرجع تاريخ علم التنجيم إلى أيام البابليين القدماء (٦٠٠ سنة قبل الميلاد) الذين أخذوا يرسمون الخرائط التفصيلية لحركة الكواكب ويربطون ذلك بأوقات الفيضان أو بحدوث كوارث طبيعية على سطح الأرض. أما أول كتاب عن علم التنجيم فوصلنا من المنجم اليوناني بطليموس في القرن الثاني بعد الميلاد، حيث صنف النجوم في مجموعات سماها «منازل» وربط مواليد كل مجموعة بحظوظ أرضية مثل الغنى والفقر، والصحة والمرض، وحدوث كوارث معينة.

كان بطليموس أعظم فلكي في عصره، وكان أيضاً جغرافياً نابغة. اعتمد العالم طوال ١٤٠٠ سنة على دراساته في علم الفلك وعلم التنجيم. وفي عام ١٠٦٦ اكتسبت أقوال بطليموس احتراماً وثقة فائقين وأصبحت تنبؤاته مقبولة دون شك أو تساؤل، وذلك عندما تنبأ المنجمون ـ بالاعتماد على كتاب بطليموس ونظرياته ـ بموت ملك سوف يتغير بموته تاريخ العالم. وبالفعل مات بعد أشهر قليلة في ذلك العام ملك إنكلترا السكسونية، هارولد، الذي قتل في معركة هاستنغز، فانتقل بموته حكم بريطانيا إلى أيدي الفاتحين الإسكندينافيين (النورمنديين).

بيد أن نظرية بطليموس كانت، في الحقيقة، مبنية على غلطة هائلة. ذلك أنه كان يرى أن الشمس والكواكب تدور حول الأرض، مركز الكون. ولكن جاء عالم الفلك البولندي نيكولاوس كوبرنيكس وقال، قبل وفاته في عام ١٥٤٣، بأن جميع الكواكب ـ بما فيها الأرض ـ تدور حول الشمس. وكان من المنتظر أن تقضي اكتشافات كوبرنيكس على علم التنجيم نهائياً، غير أن شيئاً من هذا لم يحدث. وبعد موت كوبرنيكس بنحو ١٤٠ سنة جاء عالم الفلك الإنكليزي إدموند هالي وقال بأن هناك مذنباً (سمي باسمه ـ مذنب هالي) يدور حول الشمس ويظهر لنا كل ٧٥ سنة مرة، وهو الذي ظهر في السنة التي قتل فيها الملك هارولد عام ١٠٦٦. وقال هالي بأن ظهور مذنبه يقترن بحدوث كوارث، وكان من المنتظر أن تضع عدم صحة أقواله هذه آخر مسمار في نعش علم التنجيم. غير أن معاصر هالي وصديقه، إسحق نيوتن، طلع على الناس بأبحاث عادت وعززت الإيمان بالتنجيم. كان نيوتن أول من كشف عن

قوانين الجاذبية. وقال إن قوى الجاذبية على الأرض من الشمس والقمر تتسبب في حركة المد والجزر. ولذلك قال المنجمون: إذا كان للشمس والقمر تأثير ملحوظ على الأرض وحركة الماء في المحيطات والبحار، فلماذا لا يكون للأجرام السماوية تأثير على شخصيات وحظوظ الناس على سطح الأرض؟

ومع كل الدلائل العلمية التي لا تؤيد علم التنجيم اليوم، فإن هذا العلم ما زال يستحوذ على اهتمام الناس في كل مكان، ومن كل الطبقات. فونستون تشرشل كان يستخدم منجماً لينصحه بتأثير النجوم على تحركات هتلر الذي كان يؤمن إيماناً قوياً بالتنجيم. وفي القرون الوسطى كان الملوك والبارونات يلجأون إلى المنجمين يستشيرونهم قبل الإقدام على عمل خطير. كما استخدمت الملكة إليزابيث الأولى المنجم جون دي كمستشار شخصي لها. وفي القرن ١٧ تنبأ المنجم وليام ليلي بحريق لندن وبالطاعون العظيم، ومن ثم أصبح مستشاراً مقرباً من كل من شارل الأول وأوليفر كرومويل.

أما في العصور الحديثة فقليلون هم الذين يعترفون من القادة باستشاراتهم للمنجمين، غير أن الرئيس ثيودور روزفلت كان يجاهر بذلك ولا يخفيه. كما أن منجم هوليوود المليونير كارول رايتر الذي توفي عام ١٩٨٨، كان له تأثير كبير على كثير من السياسيين ورجال الأعمال ونجوم السينما كروبرت ميتشوم، على سبيل المثال. كما أن الجيل الجديد من المنجمين أخذ يستعين بأجهزة كمبيوتر باهظة الثمن ليجري من خلالها حساباته في وقت قصير جداً لا يتعدى الثواني.

وهناك اليوم كثير من أرباب العمل يعتمدون في أعمالهم على علم التنجيم. فانيتا هيغنسون المسؤولة عن وكالة للتوظيف في لندن ـ على سبيل المثال ـ تقول: «أتعرف على أبراج الناس لأكتشف بعض الصفات. وأجد الكثيرين من مندوبي المبيعات الناجحين إما من مواليد برج الحمل أو برج القوس لأنهم يحسنون التعامل مع الناس ويتميزون بشخصيات قيادية ووجه محبب». أما مدير شركة التأمين تريفور ثويت فيقول إنه يمنح الوظائف المهمة لمواليد برجي الجوزاء والأسد لما يتمتعون به من ذلاقة اللسان، وحلو الحديث، وقوة الإقناع. كما ويستعين أيضاً بمواليد برج القوس لأنهم مجدين في عملهم ومخلصين. وفي دراسة حول العاملين في سوق الأوراق المالية في وول ستريت، أجريت بناء على طلب من أحد أعضاء مجلس الشيوخ، تبين أن

نصف المدراء الماليين والمستثمرين يستشيرون منجمين قبل الإقدام على عقد صفقات أو اتخاذ قرارات مهمة .

غير أن لجوء السياسيين والدبلوماسيين إلى استشارة المنجمين أثار ضجة كبيرة، واحتجاجات عنيفة في العالم. ففي الخمسينيات والستينيات من هذا القرن لجأت وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) الأميركية إلى عمل كشف برؤساء الدول والسياسيين الذين يستشيرون المنجمين، ثم زرعوا ـ عن طريق الرشوة والابتزاز ـ عملاءهم بحجة أنهم من المنجمين في الدوائر السياسية المحيطة برؤساء تلك الحكومات أمثال محمد شيهو رئيس وزراء ألبانيا، والرئيس الأندونيسي سوكارنو، ورئيس غانا كوامي نكروما. وقد اعترف ضابط مخابرات سابق في (CIA) أن عملاءهم كانوا يخترعون تنبؤات معينة للتأثير في توجيه سياسات رؤساء أمثال تلك الحكومات. ولقد منع أولئك العملاء حرباً أهلية دموية في غانا عندما نصح «أحد المنجمين» الرئيس نكروما بزيارة الصين حيث تم انقلاب أبيض في غيابه.

ومع ذلك كان مسؤولو الـ (CIA) عاجزين عن منع رئيسهم من استشارة النجوم. فرونالد ريغان كان واحداً من أكثر رؤساء الولايات المتحدة إيماناً بالخرافات. حيث كان لا يذهب إلى الاجتماعات المهمة، مثل مباحثات نزع السلاح، إلا وفي جيبه ٥ تعويذات حظ أو أكثر. وقد اعترف في سيرته الذاتية التي كتبها في عام١٩٦٥ قبل أن يصبح حاكماً لولاية كاليفورنيا بأنه كان يعتمد هو وزوجته على تنبؤات المنجمين. وعندما كتب عن منجم هوليوود المشهور كارول رايتر قال: «كنا أنا ونانسي نسأله ماذا سيقول لنا في كل صباح». كما أنه تعرض لانتقادات شديدة عندما رفض أن تتم مراسم توليه منصب الحاكم، إلا في الساعة ١٢ و ١٠ دقائق تماماً بعد منتصف ليلة ٢ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٦٧، بناء على نصيحة أحد المنجمين.

ولما فشل كارول رايتر في التنبؤ بمحاولة اغتيال ريغان عام ١٩٨١، تحولت السيدة ريغان إلى استشارة منجمة سان فرانسيسكو السيدة جوان كويغلي التي راحت تتحكم بمواعيد الرئيس ريغان طوال ما تبقى من فترة رئاسته. وقد شكا دونالد ريغان من أن مواعيد الرئيس كثيراً ما كانت تتغير بناء على استشارات السيدة كويغلي عبر الهاتف، وهي على بعد ٣٠٠٠ ميل من البيت الأبيض.

وعندما علم رجال الـ (CIA) بأن المخابرات الروسية تراقب مكالمات السيدة

ريغان مع السيدة كويغلي، خشوا أن يتم استغلال نقاط ضعف الرئيس ومزاجه أثناء محادثاته مع الزعيم الروسي ميخائيل غورباتشيف حول نزع السلاح. ولذلك توجهوا إلى شقة السيدة كويغلي يوم ٥ أيار (مايو) ١٩٨٨، غير أنهم لم يجدوها، حيث أنها كانت قد غادرت سان فرانسيسكو إلى فرنسا طلباً للأمان بعد أن أخبرتها الأبراج بأن سان فرانسيسكو وأجزاء كبيرة أخرى من كاليفورنيا سوف تتعرض لزلزال مدمر. وعندما عادت السيدة كويغلي إلى شقتها فيما بعد وجدت كاليفورنيا ما زالت متماسكة على حالها، غير أن سمعة الرئيس ريغان كسياسي مفكر كانت قد أصبحت في حالة يرثى لها.

برغم الشكوك التي تحيط بقيمة علم التنجيم، وبرغم أن الدراسات والأبحاث التي أجريت حول هذا الأمر قليلة جداً، فإن السؤال يظل مطروحاً: هل بإمكان النجوم أن تتحكم بشخصياتنا، وتتنبأ بمستقبلنا؟ في السبعينيات من هذا القرن قام عالم النفس الفرنسي ورجل الإحصاء ميشيل غوغلين بإجراء مسح لتواريخ ميلاد مجموعة كبيرة من المشاهير في مهن مختلفة. وبتحليل نتائج دراسته، وجد غوغلين أن هناك روابط بين قدرات الناس المهنية في التجارة والسياسة والرياضة والفنون وبين أوقات ميلادهم، بحيث لا تخضع تلك الروابط في نسبها لعامل الصدفة. ثم توسع في دراسته وأرسل وصفاً تفصيلياً لشخصية كل من أول ١٠٠٠ متقدم لاستشارته. وقد تلقى رسائل من ٨٥ بالمئة من شريك حياة الموصوف تؤكد صحة الصفات الشخصية التي ذكرها غوغلين.

البانشـي نذيـر الشـؤم

يبدأ الصوت خافتاً، حزيناً، معولاً، نائحاً، كنشيج البكاء. ثم يرتفـع تدريجيـاً بشكلٍ وحشي يحبس الدم في العروق. وأخيراً يتلاشى على هيئة عويل ضعيف مخنوق. أحياناً يبدو كصوت طبول مصحوب بصوت مزمار كئيب النغمات. إنه صوت البـانشي الذي ينذر باقتراب الموت. والبانشي عبارة عن روح أو ملاك في الأسـاطير الإيـرلنديـة والإسكتلندية يعلن عن اقتراب الموت، ويبشر بانتهاء حياة أحد الأشخاص. والبانشي في التقـاليد الإيـرلنديـة يأخـذ صورة امـرأة تمشط شعرهـا وتنوح خـارج المنزل الـذي سيشهـد بعـد قليـل مـوت أحـد من فيـه. غـير أن الشخص المعني لا يسمـع صـوت البـانشي، وإنمـا أهله وأقـاربـه هـم الـذين يسمعـون ويـرتعبـون. أمـا في الأسـاطـير الإسكتلندية فيأخذ البانشي شكل امرأة غسالة، أو صياد وحيد أو فارس بدون رأس، أو مجرد صوت طبول تدق لحناً جنائزياً.

من الأمثلة المشهورة في إيرلندا على نذير الموت هذا، صوت العويل الذي سُمع يـوم ٢٢ آب (أغسطس) عـام ١٩٢٢ في قريـة سافتركروس الـواقعة في جنـوب غرب إيرلندا. في تلك الليلة عبر القرية رئيس حكومـة وجيش إيرلنـدا، مايكـل كولنـز، في طريقه لتعقب قوات المتمردين أثنـاء الحرب الأهليـة الدمـوية في إيـرلندا. وبعـد مرور كولنز في القرية متوجهاً إلى مدينة كورك، سمع القرويون صوت عويل البانشي يقـترب ثم يختفي ويتـلاشى، فأوجسـوا شراً. وفي صبـاح اليوم التـالي علمـوا أن كـولنـز قتـل بـرصاصـة في رأسه بعـد معركـة مع المتمـردين عقب سماعهم صـوت البانشي بـدقائق معدودة.

قام الباحث النفسي فرانك سميث بإجراء دراسة حول هذه الأسطورة الشعبية، فوجد أنها قد عبرت المحيط مع المهاجرين إلى العالم الجديد. وقـد قص عليه عـدد من المهاجرين الإيرلنديين في الولايات المتحدة قصصاً مشابهة عن سماعهم للصوت المشؤوم قبـل أن تنقل إليهم الأخبـار في اليوم التـالي أو الذي يليـه خبر وفـاة عزيـز أو قريب. فرجل الأعمال جيمس أوباري الذي يعيش مع عائلته في بوسطن سمع صوت البانشي



البانشي

في عام ١٩٣٠ وفي صباح اليوم التالي وجد والده يبكي، فلما سـأله عن السبب أخـبره أن جده قد تـوفي في نيويـورك، وكان مـوته غـير متوقـع. ويومهـا فقط سمع أوبـاري بأسطورة البانشي عقب تبادله الحديث مع والده.

وفي عـام ١٩٤٦ كان أوبـاري يخدم في القـوات المسلحة الأمـيركيـة العـاملة في الشرق الأقصى فاستيقظ ذات صباح عـلى الصوت المشؤوم، «وكنت أعـرف هذه المـرة ماذا يعني، فاعتراني الاكتئاب وخشيت أن يكـون والدي قـد توفى. وبعـد أيام تلقيت خبر وفاة والدي فعلاً».

وفي ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٣ سمع أوباري صوت نذير الموت بينما كان يقرأ جريدته في حجرة الفندق في تورنتو فخشي أن تكون زوجته أو أحد أولاده قد أصابه مكـروه، غير أنـه علم في وقت متأخـر من ذلك اليـوم باغتيـال صديق العـائلة الرئيس جون كينيدي في دالاس بتكساس.

أما في عام ١٩٨٨ فقد سُمع صوت رسول الموت منبعثاً من بحر الشمال قبل أن تتناقل الإذاعات خبر موت ١٦٠ عاملاً ممن كانوا يعملون في جزيـرة عائمـة لاستخراج البترول. وقد أكـد أحد النـاجين أنـه سمع الصرخـات المشؤومة المـرعبة قبـل انفجار المنصة وموت زملائه بدقائق معدودة. قال ديريك إلينغتون البالـغ من العمر ٤٥ عـاماً يفسر ما سمعه ببساطة: «كان الصوت شبيهاً بعويل البانشي».

اختفـاء سـوزي لامبـلاف

دوّنت سـوزي لامبلاف في مفكـرتهـا يـوم الاثنـين ٢٨ تمـوز (يـوليـو) ١٩٨٦: «الساعة ١٢,٤٥ ـ السيـد كِبر، ٣٧ شـارع شورولـدز». وكانت سـوزي البالغـة من العمر ٢٥ عامـاً تعمل منـذ ١٦ شهراً في مكتب عقـاري في شارع فـولهام، وهي فتـاة طموحة وجادة في عملها. وكان موضوع اللقاء بيع عقار مكون من ثلاثة طوابق بسعـر ١٢٨ ألف جنيه أسترليني. وكـانت سوزي تـأمل من إتمـام هذه الصفقـة الحصول عـلى عمولة مجزية.

قضت سوزي قبل ظهر ذلك اليوم بالرد على المكالمات الهـاتفية التي تستفسر عن أسعار العقارات والشقق وتقارنها مع أسعـار المكاتب العقـارية المنـافسة، كـما اتصلت ببعض الأصدقاء، وبالبنك الذي تتعامل معه لتخبره أنها فقدت قبل أيام دفتر شيكاتهـا مـع بطاقـة البريـد ومفكرة الجيب الصغـيرة. وقبيل مـوعد فـرصة الغـداء توجهت إلى مكتب مـارك غـوردون، مـديـر المكتب، وأخـذت مفـاتيـح البيت الـواقـع في شـارع شورولدز، وخرجت. ركبت سيارتهـا الفورد الصغـيرة من نوع فيستـا التي زودها بهـا صاحب العمل، وتوجهت إلى المكان المقصود الذي لا يبعد عن المكتب بالسيارة سوى ٣ ـ ٤ دقائق.

أخذت سوزي جزدانها الصغير الذي تضع فيه نقودهـا وتركت حقيبـة يدهـا في المكتب، وقد خمن المدير أنها سوف تعود بسرعة ومعها وجبة الغداء الخفيفة لتتنـاولها في المكتب وتظل على اتصال بالعملاء وتلقي المكالمـات كعادتهـا. ولما طـالت غيبتها عـدة ساعات أخذ القلق يساور زملاءها في العمل مما جعل السيد مارك غوردون يتوجه مـع أحد الموظفين إلى البيت المعروض للبيع حيث لم يعثرا على أثر لها أو لسيارتها. وقبل أن يغادرا المكان علما من أحد الجيران (٥٨ سنـة ـ عازب) أن سـوزي حضرت إلى البيت مع أحد الشبان وتأملا البيت من الخارج، وكـان يبدو عـلى الشاب الـثراء والوجـاهة. عاد السيد مارك إلى المكتب وراجع ملفات عملائه فلم يجد بينهم اسم «السيد كِبر».



سوزي لامبلاف والعقار المعروض للبيع

اتصل غوردون بوالدة سوزي التي كانت في الرابعة والخمسين من العمر وتعمل معلمة سباحة، وتدعى ديانا لامبلاف، وكان منزلها على بعد أميال قليلة من المكتب. سأل المدير الوالدة عما إذا كانت سوزي قد عرجت عليها لتناول الغداء معها، فأجابت الأم بأنها لم تر سوزي منذ الأمس. وكانت سوزي تسكن في شقتها القريبة من منزل والديها، والتي كانت قد اشترتها قبل ست سنوات بمبلغ ٧٠ ألف جنيه أسترليني. ثم اتصل بطوارىء المستشفيات، وأخيراً اتصل مساءً بسكوتلاند يارد وأبلغ البوليس باختفاء سوزي. وبعد ست ساعات من اختفاء سوزي اتصل كذلك بالمخبر بيتر جونستون الذي كان مشغولاً يومها بالتحري حول جريمة اغتصاب وقتل. وقد ظن المخبر أن اختفاء سوزي قد يكون مشابهاً للحادثة التي يتحرى عنها.

إن بلاغات الاختفاء في لندن تنقسم إلى مجموعتين: مجموعة يكون المختفي فيها هارباً من عائلته أو من دائنيه بإرادته، ومجموعة يكون الاختفاء رغم إرادة المختفي. وكانت حالة سوزي تبدو من النوع الثاني لأنها كانت سعيدة في حياتها وليس هناك ما يدعوها إلى الهرب أو الاختفاء، خاصة أنها كانت قد تركت حقيبة يدها في المكتب وليس هناك أي دليل يشير إلى تدبير خطة للهرب.

أرسل جونستون بعض رجاله إلى شقة سوزي للتحقق من عدم وجودها هناك. وبالطبع لم يجدوها في الشقة، ووجدوا غرفة النوم مرتبة ولا أثر لدخول أي زائر أو لفقدان أية ثياب أو حقيبة سفر. كما توجه رجلان إلى البيت المعروض للبيع ولم يعثرا هناك أيضاً على أي دليل ينير لهم أسرار قضية الاختفاء. وكان العثور على سيارة سوزي هو الدليل الوحيد الذي نجح البوليس بالعثور عليه. لقد كان والد سوزي في سيارة البوليس التي كانت تبحث في الشوارع عن سوزي عندما سمع من المذياع خبر العثور على السيارة في شارع سكني هادىء على بعد كيلومترين تقريباً من العقار المعروض للبيع. وقرر المفتش جونستون عدم الاقتراب من السيارة حتى اليوم التالي ليتفحصها في ضوء النهار حيث إن العثور عليها تم عند الساعة العاشرة مساءً.

كان واضحاً أن السيارة تم وضعها قرب إحدى زوايا الشارع على عجل، حيث كانت مؤخرتها تسد جزئياً مدخل أحد الكاراجات. وكان باب السائق مفتوحاً، أما الباب المجاور فكان مقفلاً. وقد تبين أن مقعد السائق كان قد تم تحريكه للخلف، ليناسب طول السيد كِبر الذي كان أطول من سوزي كما أفاد الشاهد الوحيد (الجار). وبعد هذا الدليل المهم لم يتم العثور على أي دليل آخر.

لقد وزع البوليس أوصاف سوزي والسيد كبر على دوريات البوليس. وكانت سوزي فتاة واثقة قوية الإرادة، وكان لها أخ أكبر منها وأختين أصغر منها. كان طولها ٥ أقدام و ٦ بوصات وشعرها أشقر اللون، ترتدي معطفاً أسود وتنورة رمادية. أما كِبر فكان أطول منها ببوصتين تقريباً، وكان شاباً حليقاً، وسيماً، وأنيقاً بين ٢٥ ـ ٣٠ من العمر. وبعد ٩ أشهر على اختفاء سوزي مع السيد المجهول كِبر أقامت عائلتها قداساً في الكنيسة القريبة حيث أحضر زملاؤها زهوراً وكأنهم يحتفلون بمناسبة زفافها. وقد اختتم الاحتفال بكلمات قليلة قالها والدها: «بينما نحن غير متأكدين أن سوزي حية، فإننا لا نعتقد أنها ميتة. وهذه هي المفارقة الموحية بالتناقض والحيرة».

كارثـة أوسكـار مايـك

عندما أقلعت الطائرة ذات الأربعـة محركـات في رحلتها العـادية رقم ٧١٢ يـوم الأحـد ٢٤ آذار (مارس) ١٩٦٨ من مـطار كورك في إيـرلندا ميممـة نحو مـطار هيثرو بلندن، كان من المتـوقع أن تكـون الرحلة روتينيـة لا تستغرق سـوى ساعـة وعشرين دقيقة تقريباً.

كان على متن الطائرة الـطاقم المكون من أربعـة أفراد و٥٧ راكبـاً. وكان قـائد الطائرة البالغ من العمر ٣٥ عامـاً قبطانـاً مجربـاً سجل حتى ذلـك اليوم ٦٦٠٠ سـاعة طيران. وكان مساعده الأول البالغ من العمر ٢٢ عاماً قد سجل هو الآخر ٩٠٠ ساعة طيران. كما كانت السماء صافية، والريح هـادئة، وقـد تمنى القبطان للمسـافرين رحلة سعيدة وممتعة. لكن بعد نصف ساعة كانت الطائرة ـ واسمها الرمزي إيكو إنـديا ألفـا أوسكار مايك ـ تغوص في قاع البحر لتصبح من أكثر حـوادث الطائـرات غموضـاً في تاريخ الطيران.

بعـد فحص وتحليل آخـر رسالـة بثها القبـطان، وفحص بقايـا الطائـرة التي تم العثـور عليها أو انتشـالها، لم يتم التـوصل إلى معـرفة سقـوط الطائـرة. لم يكن هنـاك احتمال وجود خلل فني، كما تم استبعاد اصطدام الطائرة بسرب من الطيـور أو بطائـرة حربية مثلاً، علاوة على أن الأحوال الجوية كـانت مؤاتية. وظـل هناك نـظرية مـرعبة تشير إلى احتمال تفجير أوسكار مايك، أو اصطدامها بجسم طـائر لعله صـاروخ جو ـ جـو أو صحناً طائراً، أو بأي جسم مجهول آخر.

لقد صعدت الطائرة خـلال خمس دقائق من إقـلاعها إلى ارتفـاع ٧ آلاف قدم، ثم تابعت ارتفاعها حتى ١٧ ألف قدم. اتصل القبطان بالأرض اتصالاً روتينيـاً، وبعد ٢٥ دقيقة تم إبلاغه بتحويل موجة إذاعته من مطار كورك إلى مطار هيثرو حيث يمكنـه بعد ذلك تلقي التعليمات من هناك. وهكذا قطع برج المراقبة في مطار كـورك اتصالـه بأوسكار مايك، وأصبح الاتصال بـالطائـرة من مسؤولية بـرج المراقبـة في مطار هيـثرو والذي كان منهمكاً في توجيه عشرات الطائـرات المقلعة أو التي عـلى وشك الهبـوط في لندن.

اتصل قبطان أوسكار مايك بمطار لندن اتصالاً روتينياً، ثم بدأ مضيفو الطائرة يستعدون لتقديم وجبة خفيفة. ولكن بعد مرور ٨ ثوان فقط على الاتصال الأول بمطار لندن، تلقى برج المراقبة اتصالاً جديداً كان يسمع في خلفيته أصوات صراخ وعويل. سُمع صوت القبطان وهو يقول: «١٢ ألف قدم، نهبط سريعاً بحركة لولبية». وكانت تلك آخر رسالة تم تلقيها من أوسكار مايك. لقد حاول برج المراقبة عبثاً إعادة الاتصال بالطائرة المستغيثة، كما كلف الطائرات القريبة بتحري الأمر، ونقل إليهم رسالة الاستغاثة التي بثتها الطائرة المنكوبة. كانت الطائرة ما زالت في الجو وقد حوّل قائدها اتجاهها بعيداً عن الجبال نحو شاطىء البحر، علّه يتمكن من الهبوط هناك.

في الساعة ١٢ و ١٠ دقائق ظهراً قال قائد سفينة شحن ألمانية أنه رأى طائراً كبيراً يهبط من الأعالي ويغطس في البحر. كما قال شاهد آخر كان يتمشى على شاطىء البحر بأنه سمع صوت ارتطام قوي بالماء وتصاعد عمود من الماء قرب منارة توسكار. وكان بلاغ هذا الشاهد هو الذي حدد مكان سقوط الطائرة. إذ أن جهود البحث في اليوم الأول باءت بالفشل رغم الاستعانة بالطوافات والقوارب السريعة. وكان الشاهد قد اتصل بالبوليس مساء ذلك اليوم بعد سماعه لنشرة الأخبار وأبلغهم بما سمعه وشاهده. وفي اليوم التالي بدأ البحث قرب صخور مدينة توسكار حيث تم العثور على حطام الطائرة و ١٤ جثة طافية على بعد ٦ أميال من توسكار، ولم يتم العثور على أحياء.

لقد استمر جمع حطام أوسكار مايك وتفحصه أكثر من شهرين. تم انتشال معظم الجسم والجناحين غير أنه لم يتم العثور على ذيل الطائرة. وبعد ٧ شهور تم العثور على قطعة من الذيل بين الطحالب البحرية على شاطىء روسلير على بعد ٧ أميال من مكان تحطم الطائرة. بعد ذلك تقدم شهود جدد للإدلاء بشهاداتهم التي حوّلت الحادثة الغامضة إلى لغز مستعص. بعض الشهود أفادوا أنهم سمعوا صوت تصدع في الهواء فوق منارة توسكار وأصوات انفجارات تشبه الرعد. أربعة شهود آخرون قالوا: إنهم رأوا جناحي الطائرة وذيلها بلون أحمر متوهج. وشاهد آخر قال: إنه شاهد جسماً وسط سحابة سوداء مع الطائرة الهاوية ثم سمع صوت انفجار كصوت الرعد.

هل سقطت أوسكار مايك نتيجة ارتطام جسم طائر بذيلها؟ وهل الجسم هو طائر أم صاروخ أم صحن طائر أو جسم مجهول آخر؟ لا أحد يعرف حتى اليوم.

هتلـر والتنجيـم

عندما خطط هتلر لغزو أوروبا كان يعتقد بأنـه سينشيء أمبراطـورية تـدوم ألف سنة إيماناً منه بقوة دباباته وسرعة طائراته المقاتلة. وحتى بعد أن بدأت ملامـح الهزيمـة تلوح في الأفق وخاصة أمام الجيش الروسي المتقدم نحو بـرلين، ظـل هتلر مقتنعاً بـأنه سـوف ينتصر في النهايـة بسبب معجزة كـان ينتظر حـدوثها. لقـد أشعل هتلر الحـرب العالمية الثانية معتمداً على قوته العسكرية من جهـة، وعلى إيمـانه بفعـل التنجيم الذي سيمنحه النصر.

اهتم هتلر منذ حداثته بدراسة علم التنجيم، وفي عام ١٩٠٩ أصبح أحد أتباع رجـل دين يدعى الـدكتور جـورغ لانزفـون ليبنفلز. وكان الأخـير قد هجـر الديـانـة المسيحية وأنشأ مذهباً خاصاً به وأخذ يعلم السحـر والتنجيم في قلعة عـلى ضفاف نهر الدانوب.

في صيف عام ١٩١٢ ابتاع الدكتور والتر شتاين الخبير في الفن البيزنـطي وفنون القرون الوسطى كتاباً حول التنجيم يعود تاريخـه إلى القرن ١٣ ويتحـدث عن الكأس المقدسة التي شرب منهـا السيد المسيـح الخمر في العشـاء الأخير. وكـان الناس طـوال القرون الوسطى وأثناء الحملات الصليبية يبحثون عن الكأس المقدسة هذه، كما كانوا يبحثـون أيضاً عن الـرمح المقـدس. وقد وجـد الدكتـور شتـاين في حـواشي الكتـاب تعليقـات بقلم الرصـاص كتبها صـاحب الكتاب السـابق وكانت تـدور حـول التميـز العرقي، والتنجيم، والقوة الخارقة لأولئك المنحدرين من الصليبيين والفرسان الألمان. ولما سأل الدكتور شتاين عن صاحب الكتاب السابق دلّه البائـع عليه فـإذا هو الشـاب أدولف هتلر.

لقد أدهش هتلر الدكتور شتاين بسعـة معلوماتـه حول الأسـاطير القـديمة، كـما أدهشه أيضاً بإيمانه بالقوة السحرية للرمح المقـدس الذي شـاهده في متحف هـوفبورغ بفيينا. وتقول الروايات إن هذا الرمح استخدمه أحد الجنـود الرومـان في طعن المسيح

عندما كان مصلوباً. ثم رأى الجندي في المنام أنه كان يطعن الله تعالى نفسه. ومنذ ذلك اليوم اكتسب الرمح قوة سحرية. غير أن هناك رمحين آخرين لهما نفس المواصفات أحدهما في الفاتيكان، والثاني في متحف باريس. بيد أن هتلر كان مفتوناً برمح آل هابسبورغ المحفوظ في فيينا، والذي وجده الصليبيون في أنطاكية. وتقول الأساطير أن الامبراطور شارلمان حمل هذا الرمح خلال ٤٧ حملة عسكرية انتصر فيها كلها، ولما فقد الرمح لقي حتفه على الفور. بعد ذلك امتلكه الملك الساكسوني هنريك الذي طرد البولنديين من شرق ألمانيا. وبعده انتقلت ملكية الرمح في القرن ١٢ إلى فردريك باربروسا الذي انتصر على القوات الإيطالية، وقام بنفي البابا نفسه.

أخبر هتلر الدكتور شتاين كيف أحسّ عندما رأى الرمح أول مرة في متحف فيينا، فقال: «أدركت أن هناك قوة خفية حوله. وأحسست أن هناك مصيراً عظيماً ينتظرني، فأيقنت أن الدماء التي تجري في عروقي سوف تصبح في يوم ما روحاً شعبية ملهمة لشعبي».

ولقد ظل الرمح مكانه في المتحف طوال ٢٥ سنة تلت ذلك اليوم، وأصبح إيمان هتلر بالسحر والأمور الخفية خلال تلك السنوات عميق الجذور. فبعد أكثر من عقد من الزمن أصبح هتلر الزعيم الملهم للحركة النازية، واختار لها شعار الصليب المعقوف الذي يرمز إلى الشمس أو إلى الحظ السعيد حسب الديانة الهندوسية. أما في أساطير الفايكنغ فكان يرمز إلى مطارق ثور إله الرعد والحرب. وفي أواخر القرن ١٩ استخدمه زعيم ديني ألماني هو غيدو فون ليست الذي قاد أتباعه في ثورة إلحاد، وجعلهم يعبدون آلهتهم القديمة. وأخيراً اعتمده هتلر شعاراً ينافس به شعار الشيوعية (المطرقة والمنجل).

وفي أوائل الثلاثينات أذهل هتلر كثيراً من مساعديه بإيمانه الطفولي بالصوفية. ففي تشرين أول (أكتوبر) عام ١٩٣٣، وبينما كان هتلر يضع حجر الأساس لمتحف الفن الألماني في ميونخ تحطمت المطرقة الفضية التي استخدمها الفوهرر ففزع هتلر وأخبر وزير حربيته ألبرت سبير بأن ذلك فأل سيء، وأنه يتوقع حدوث ضربة توجهها قوة شريرة. وظل هتلر يعاني من رعب مهين طوال ثلاثة أشهر حتى توفي المهندس الذي صمم المتحف. يومها قال هتلر: «لقد زالت اللعنة، فالمهندس هو الذي كان مقصوداً ولست أنا».



هتلر لم ينقذه «التنجيم»

كتب أحد أصدقاء الفوهرر المقربين، هيرمان روشننغ، عن هتلر في تلك الفترة فقال: «إنه يستيقظ ليلاً يصرخ ويستغيث. وكان يتملكه الرعب ويرتجف، وينطق بعبارات غير مفهومة، ويبدو وكأنه يكاد يختنق».

غير أن مخاوف هتلر الخفية تلاشت كلها يوم ١٤ آذار (مارس) ١٩٣٨، عندما

أعلن ـ بصفته مستشار ألمانيا ـ أمام حشد كبير في إحدى ساحات فيينا، بأنه سوف يضم النمسا إلى الإمبراطورية النازية. وبعد الانتهاء من إلقاء خطابه دخل جنوده إلى المتحف خلفه ونقلوا كل مخلفات آل هابسبورغ ـ بما في ذلك الرمح المقدس ـ إلى كنيسة سانت كاترين في نورمبيرغ، وهي تعتبر البيت الروحي للحركة النازية. وبعد حصوله على الرمح المقدس أعلن الحرب على أوروبا في العام التالي مباشرة.

خلال السنوات الأربع الأولى للحرب اقتنع الكثيرون أن هتلر يمتلك قوة خارقة، حيث كان ينتقل من نصر إلى نصر. ثم أنشأ الفوهرر «مكتب التنجيم» في برلين لمساعدته في إدارة الحرب، ووظف فيه بعض المنجمين وعلماء النفس المحببين إليه. وهكذا أصبح جنرالات الحرب الألمان ينتظرون استشارات الفوهرر لمكتب التنجيم قبل الإقدام على تنفيذ خططهم أو إلغائها. كما أن مستشار هتلر للتنجيم البحري، المهندس لودفيك سترانياك، كان يوجه تحركات سفن الأسطول في المحيط الأطلسي مدعياً بأنه يعرف مواقع السفن المعادية عن طريق الذبذبات النفسية (Psychic Vibrations) ووضع عصاه فوق الخرائط في المكان الصحيح.

لقد كان رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل يعرف إيمان هتلر بالتنجيم، لذلك استعان بالمنجم والتر شتاين الذي هرب من ألمانيا النازية، وأنشأ دائرة للتنجيم مهمتها محاولة توقع ما يفكر فيه هتلر لكي يمكن مجابهة خططه أو إجهاضها.

وفي تشرين أول (أكتوبر) ١٩٤٤ عندما كانت نورمبيرغ تتعرض لقصف مدافع الحلفاء، أمر هتلر بنقل مقتنيات كنيسة سانت كاترين ـ بما فيها طبعاً الرمح المقدس ـ إلى سرداب أقامه خصيصاً لحفظ تلك المقتنيات. وفي ربيع عام ١٩٤٥، عندما بدا سقوط الرايخ الثالث حتمياً، ظل هتلر يتنبأ بحدوث معجزة خارقة تقلب مجرى الأحداث.

وعندما سقطت ألمانيا بيد الحلفاء في شهر نيسان (إبريل) عام ١٩٤٥، قال أحد الضباط الأسرى الجرحى أنه ضحى بآلاف من رجاله، بناء على طلب الفوهرر، ليضمن عدم استيلاء الحلفاء على الرمح المقدس الذي تمكن الأميركيون من الوصول إليه في السرداب المحصن بأبواب الحديد المجدول. وفي ذلك اليوم قتل هتلر نفسه بإطلاق الرصاص على رأسه. أما الرمح المقدس فهو اليوم من مقتنيات حكومة الولايات المتحدة الأميركية.

إيميليا إيرهارت

كانت رائدة الطيران الجسورة إيميليا إيرهارت أول امرأة تقطع المحيط الأطلسي بطائرتها، وأول قبطان بين النساء والرجال يقطع المسافة بمفرده بين هاواي وكاليفورنيا. وفي مطلع شهر حزيران (يونيو) عام ١٩٣٧ كانت تطمح إلى إضافة إنجاز جديد إلى سجلها عندما جازفت بالقيام بأول رحلة طيران حول العالم عبر أطول طريق - فوق خط الاستواء (٢٧ ألف ميل) - كانت واثقة من مهارتها ومن طائرتها اللوكهيد ذات المحركين.

ولكي تنجح في مشروعها كان عليها أن تطلب المساعدة من خبراء شركة لوكهيد ومن البحرية الأميركية. وقد حصلت على المساعدة من كلا الطرفين برغم أن الشركة كانت منهمكة بإنتاج الطائرات الحربية لمجاراة توسع اليابانيين في تعزيز أسطولهم الجوي.

كان اليابانيون قد احتلوا أثناء الحرب العالمية الأولى جزر مارشال وكارولين وماريانا في المحيط الأطلسي، ونجحوا بعد الحرب في وضع هذه الجزر تحت حماية عصبة الأمم. وفي عام ١٩٣٤ عاد اليابانيون يتحركون حول تلك الجزر حركات مريبة أثارت شكوك الأميركيين وريبتهم. وكان للأميركيين بعض الجزر في المحيط الأطلسي كذلك، كانوا يستخدمونها للتجسس على تحركات اليابانيين ونشاطاتهم العسكرية. وقد ثبت فعلاً فيما بعد أن اليابانيين استخدموا تلك الجزر أثناء هجومهم المفاجىء على بيرل هاربر عام ١٩٤١.

فكرت إيميليا في عبور الأطلسي من الشرق إلى الغرب وفي أن تتزود بالوقود في الجو، غير أن وزارة الحربية الأميركية وجدت في ذلك مخاطرة غير مأمونة العواقب ونصحت إيميليا بالهبوط والتزود بالوقود في منتصف المحيط، في جزيرة هاولاند البعيدة، إلى الشمال من خط الاستواء، وعلى بعد ٦٠٠ ميلاً من جزيرة مارشال الخاضعة لسيطرة اليابانيين.

في ١٧ آذار (مارس) بدأت إيميليا رحلتها فقطعت في المرحلة الأولى من الرحلة ٢٤١٠ أميال وهي المسافة بين سان فرانسيسكو وهنولولو. وفي هنولولو تبين أن الرحلة فاشلة فعادت إيميليا لتبدأ رحلتها من الغرب إلى الشرق. وفي هذه الأثناء أتيح للأميركيين وضع بعض المعدات السرية في جزيرة هاولاند. وعندما كان اليابانيون يحتجون على ذلك كان الأميركيون يردون بأنها معدات لمساعدة الطيارة الجسورة ليس إلا، كما وتم تزويد الطائرة ببعض المعدات الاختبارية.

أدركت إيميليا منذ اللحظة الأولى للبدء في رحلتها أن الرحلة أصبح لها طابع سياسي وحربي. وبعد شهر من بداية الرحلة وصلت إيميليا ومرافقها الطيار فردريك نونان إلى نيو غينيا، حيث كان عليهما أن يقلعا بعد ذلك من هناك إلى جزيرة هاولاند. وكانت هذه أخطر مرحلة في الرحلة. بعد ذلك كان عليهما أن يتوقفا في هنولولو، ثم في أوكلاند بخليج سان فرانسيسكو، وأخيراً في بلدتها لافاييت بولاية إنديانا.

أقلعت إيميليا ونونان من نيو غينيا باتجاه جزيرة هاولاند، وكانت السفن الأميركية تتابع مسار طائرتهما، وتختبر قدرة أجهزتها على التتبع والتوجيه. وبعد خمس ساعات من إقلاع الطائرة تلقت إحدى السفن أول اتصال من الطائرة في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر. وكانت الرسالة تشير إلى أن كل شيء يسير على ما يرام. وبعد مرور ساعتين على الاتصال الأول تلقت السفينة اتصالاً آخر يشير إلى أن الظروف الجوية أجبرت الطائرة على تغيير ارتفاعها وسرعتها، غير أنه لا يوجد أي داع للقلق.

في الساعة العاشرة مساءً اضطرت سفينة المراقبة «أونتاريو» العودة إلى قاعدتها للتزود بالوقود بعد أن عهدت بمهمتها إلى السفينة «إيتاسكا» التي تبعد ١٠٠٠ ميل عن هاولاند. في هذه الأثناء تلقت محطة مراقبة أرضية في جزيرة ناورو تقريراً موجزاً من الطائرة مفاده: «نشاهد أمامنا سفينة». وفي ساعات الصباح الباكر تلقت السفينة إيتاسكا عند الساعة الثالثة إلا ربعاً صباحاً رسالة تقول: «طقس غائم... غائم». وبعد ساعة عاودت إيميليا الاتصال وأعلنت تغيير موجة إذاعتها، غير أن المحطات الأرضية لم تتمكن من تحديد موقعها. وفي الساعة الثامنة و٤٣ دقيقة سمعت آخر رسالة من إيميليا، وكانت تتسم بالهياج واليأس. بعد ذلك فقد الاتصال بالطائرة، وبدأت عمليات البحث.



إيميليا ايرهارت والاختفاء الغامض

تدخل الرئيس فرانكلين روزفلت شخصياً وأمر السفينة الحربية كولورادو بمغادرة هاواي والتوجه إلى منطقة البحث. وفي اليوم التالي أمر حاملة الطائرات لكسنغتون وثلاث مدمرات بالانضمام إلى فريق البحث. وبدأت الصحف تنشر بعض الشائعات. قال مراسل إحدى الصحف يوم ٥ تموز (يوليو): إن إيميليا بثّت رسالة التقطتها إحدى القواعد الأرضية التابعة لشركة طيران بأن أميركان في جزيرة ميدواي. تقول الرسالة أن الطائرة أُرغمت على الانحراف عدة أميال جنوب شرق هاولاند، قرب جزر فونكس. غير أن المسؤولين العسكريين سارعوا إلى نفي الخبر حتى لا يتنبه

اليابانيون إلى قوة المحطات الأرضية الموجودة في جزيرة ميدواي.

بعد أسبوعين من البحث ثارت تكهنات مفادها أن إيميليا هبطت بسلام في جزيرة هاولاند، ولكن افتعال حادثة اختفائها كانت لإعطاء البحرية الأميركية مبرراً لإرسال سفنها للتجسس على الأسطول الياباني. وقيل إن الطيارين الأميركيين الذين قاموا بالبحث عن الطائرة المفقودة عادوا إلى قواعدهم يحملون عشرات الصور عن السفن والقواعد اليابانية. استمرت الشائعات لمدة سنة، وقد أخذت إحدى الصحف الصادرة في كاليفورنيا تنشر سلسلة من المقالات حول اختفاء طائرة إيرهارت. غير أن السلطات الأميركية تدخلت، ومنعت نشر أي شيء حول الموضوع.

وهكذا اختفت إيميليا إيرهارت وزميلها الطيار نونان، ولم يعد أحد يسمع عنهما شيئاً إلى حين بدء انتصار الأميركيين على اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية. ففي عام ١٩٤٤، استولت القوات الأميركية، من اليابانيين، على جزر مارشال. وخلال التحقيقات الروتينية أخبر أحد اليابانيين نائب الأميرال إدغار كروز بأن اليابانيين أحضروا إلى الجزيرة في عام ١٩٣٧ طيارين أميركيين أحدهما رجل والثاني امرأة، وأن الطيارين تم نقلهما إلى سجن غارابون في جزر ماريانا حيث أصيبت المرأة بعد أشهر بالدوسنطاريا، وماتت. أما رفيقها فتم إعدامه بعد الانتهاء من استجوابه.

بعد عشرين سنة، أعلن بحاران أميركيان سابقان في عام ١٩٦٤، أنهما استعادا بقايا جثتي إيميليا إيرهارت وفردريك نونان من قبريهما في إحدى جزر ماريانا ودفنوهما في الولايات المتحدة. غير أن السلطات الرسمية رفضت تأكيد أو نفي القصة.

وهكذا ظلت الحقيقة لغزاً غامضاً. هل كانت إيميليا إيرهارت مجرد هاوية طيران جريئة؟ أم أنها كانت بطلة قومية ضحت بحياتها من أجل وطنها؟ وهل حقاً دفنت على أرض بلدها؟ أم أن جثتها ذهبت طعماً للأسماك؟ لعل الحقيقة تكمن في تقرير نشرته إحدى الصحف الأسترالية غير المشهورة. يقول التقرير إن الولايات المتحدة أخبرت حليفتها الباسفيكية ـ أستراليا ـ بأنها تراقب رحلة إيميليا وتتابعها كغطاء لاستعدادها للحرب. وبأن آخر استغاثة من إيميليا جاءت من موقع فوق جزر فونيكس، غير أن السفن الحربية الأميركية أخذت تبحث إلى الشمال من ذلك الموقع في محاولة منها للتجسس على إمكانيات العدو. وختم التقرير الصحفي بالقول: «إن العواطف تأتي في المرتبة الثانية بعد الخدمات العسكرية السرية».

كشف المجرمين بالحدس والتبصير

يرفض رجال الشرطة عادةً اللجوء إلى المنجمين أو الذين يدّعون امتلاكهم لقوة خارقة من أجل مساعدتهم في الكشف عن مرتكبي الجرائم الخطيرة المستعصية أو المعقدة. لكنهم في بعض الأحيان يضطرون على مضض، إلى الاستعانة ببعض هؤلاء عندما يفقدون آخر أمل بكشف الجناة.

هكذا حدث في عام ١٨٨٨ مع حالة جاك السفاح الذي كان يقتل ضحاياه في الطرف الشرقي من لندن. في ذلك الوقت كان يعيش في لندن رجل روحاني مشهور كانت تستشيره الملكة فكتوريا، وكان يدعى روبرت جيمس ليز. وعندما طال بحث الشرطة عن السفاح دون جدوى، ضغط الناس ومعهم الملكة فكتوريا نفسها على الشرطة طالبين استشارة ليز.

قال ليز في بادىء الأمر أنه رأى جاك في أحد مناماته، ووصفه، ووصف ملابسه قبل أن يذهب في إجازة إلى فرنسا ليريح أعصابه ـ كما قال ـ من الإرهاق الذي أصابها بسبب ما شاهده في المنام. وبعد عودته من فرنسا، صعد ذات يوم إلى مركبة صغيرة تجرها الخيول فإذا هو أمام القاتل الذي رآه في المنام، وكان مع زوجته فحدّث الناس بأمره على مسمع منه فلم يصدقه أحد. لذلك نزل من المركبة واتجه إلى قسم الشرطة، ولكن المشبوه كان في هذه الأثناء قد غادر المركبة مع زوجته واختفى.

بعد فترة توجه ليز إلى قسم الشرطة وقصّ على رجال سكوتلانديارد رؤيا جديدة رآها حيث شاهد الجاني وهو يقتل إحدى ضحاياه ثم يقطع أذنها. وفي هذه المرة أخذ رجال الشرطة كلامه على محمل الجد، ذلك أنهم كانوا قد تلقوا رسالة من جاك يخبرهم فيها أنه سيقطع أذن ضحيته التالية، وكان مضمون الرسالة سراً غير مذاع. وعندما تم اكتشاف جثة الضحية الرابعة، المومس كاترين إدوز، بعد وقت قصير، كان القاتل قد مثل بالجثة تماماً كما وصف ليز.

ثم ازدادت دهشة الشرطة وحيرتهم عندما أخبرهم ليز بتفاصيل ومكان قتل

الضحية الخامسة والأخيرة ماري كيلي. عندها قرر رجال الشرطة الاستعانة بليز واختبار قدراته الروحية. اصطحبوه إلى مكان الجريمة علّه يجد شيئاً أو أثراً يدله على القاتل، فقادهم عبر الشوارع الجانبية المظلمة إلى المنزل رقم ٧٤ في شارع بروك بمايفير.

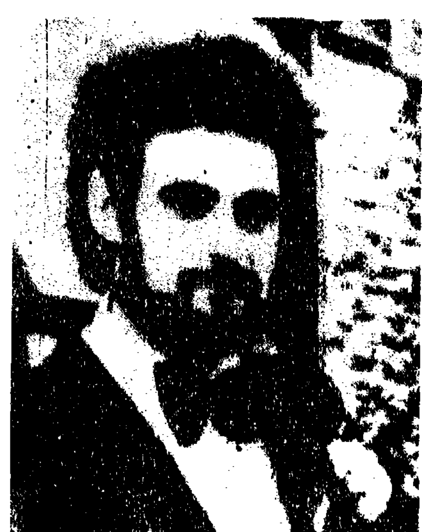
كان المنزل على بعد أميال قليلة من مسرح الجريمة، لكنه على بعد ملايين الأميال من المنطق والعقل. ذلك أن المنزل كان للسير وليام غال، الطبيب الشخصي للملكة فكتوريا وابنها أمير ويلز. وكانت الملكة قد منحته قبل ١٦ سنة لقب بارون تقديراً له على إنقاذه حياة ابنها من مرض التيفوئيد المميت. كما أن الطبيب كان في السبعين من عمره، وشبه مشلول.

أصر ليز على رأيه وهو يشير إلى باب المنزل قائلاً: «هنا يقبع القاتل ـ رجلكم الذي تبحثون عنه». وأمام إصراره اضطر رجال الشرطة إلى إجراء تحقيق مهذب مع السير وليام حيث أفادت زوجته أنه كان يحضر متأخراً إلى البيت في بعض الليالي وعلى ملابسه بقع من الدم. وقد فسر الطبيب ذلك عندما قال إنه كان يعاني من نزف في أنفه. ثم توقف التحقيق مع الطبيب المحترم. كما أن جرائم القتل توقفت أيضاً فجأة كما بدأت.

لقد توفي السير وليام بعد ١٤ شهراً عقب إصابته بالشلل التام. أما جيمس ليز فتوفي في عام ١٩٣١ آخذاً معه كل أسراره. غير أن المؤرخ الطبي الدكتور وليام ستويل الذي تفحص الأوراق الخاصة للدكتور وليام غال في عام ١٩٧٠، أفاد بأن غال طالما قضى ليال يجول وحيداً في أزقة الطرف الشرقي للندن حيث كانت تقع جرائم جاك السفاح. كما أنه كتب مقالة شكك فيها باحتمال أن يكون طبيب الملكة جزءاً من مؤامرة كان بطلها الأمير ألبرت فكتور ابن أخت الملكة فكتوريا، ولربما كان هذا الأمير أحد مرضى الطبيب غال الذي كان بدوره يغطي على أفعال الأمير وجرائمه.

أين هي الحقيقة؟ لا أحد يعرف حتى اليوم.

في الفترة بين عام ١٩٧٥ وعام ١٩٨٠ تكررت الحكاية ذاتها مع تغييرات طفيفة، حيث ظهر في هذه الفترة في شمال إنكلترا سفاح يوركشاير الرهيب الذي شغل




دوريس ستوكس وسفاح يوركشاير الحقيقي، بيتر سوتكليف

الرأي العام فترة ليست قصيرة، قتل خلالها ١٣ امرأة معظمهن من بائعات الهوى، غير أن بعضهن كن ربات بيوت محترمات علاوة على تلميذة شابة. ونظراً لعدم تمكن الشرطة من القبض على السفاح طوال تلك السنوات فقد تقدم كثير من المنجمين ومدعي القوى الروحانية الخارقة بإفادات متناقضة أحياناً حول هوية القاتل.

لقد أرسل السفاح عدة رسائل إلى الشرطة، وشريطاً مسجلاً يسخر فيهما جميعاً من رجال سكوتلانديارد ويتحداهم. وقد تم فحص الشريط الصوتي من قبل علماء في الصوتيات، كما تم عرضه في مؤتمر عام علَّ أحداً يتعرف على الصوت المسجل. كما أن الشرطة استجوبت خلال تلك السنوات مئات المشبوهين، ولكن بدون أن تتوصل إلى القاتل.

وفي تموز (يوليو) ١٩٧٩، عندما كان نشاط السفاح في أوجه، فوجئت الشرطة بمقالة في إحدى الصحف تضمنت صورة للقاتل تم رسمها حسب وصف البَصّارة المشهورة دوريس ستوكس. وكانت ستوكس قد استمعت إلى الشريط المسجل وتنبأت أن طول السفاح كان ٥ أقدام و٨ بوصات، ويدعى جوني أو روني، وفي وجهه ندبة أسفل عينه اليسرى. وقالت: إنه كان حليق الوجه ويعيش في شارع اسمه بيرويك

أو بيويك، واسم عائلته يبدأ بحرف الميم، وكـان قد دخـل مصحة عقلية حيث تلقى علاجاً نفسياً قبل خـروجه لارتكـاب جرائمـه. وادعت السيدة ستـوكس إنها حصلت على هذه المعلومات عندما «اتصلت» بوالدة السفاح المتـوفاة، واسمهـا مولي أو بـولي. وقـد وافق مفتش المباحث الهـولندي النفسـاني جيرارد كـروسيت على مـا قالتـه السيدة ستـوكس، وأضاف أن السفـاح كـان يعـرج قليـلاً، ويسكن في غـرفـة فوق كاراج في ساندرلاند.

أما المبصّر باتريك بارنارد فقد عارض سابقَيه، وقدّم في أواخر عام ١٩٨٠، بعد مقتل الطالبة جاكلين هيـل، وصفاً للحـادثة وللقـاتل حيث قـال: «كان الحـرفان ر ن ظـاهـرين بـوضـوح بلون أبيض فـوق كتف معـطفــه الأسـود. وكنت أرى نفسي في إسكتلنده، وشعرت أنه كان يعمل في غواصة نووية. هل يفسر ذلك كل شيء؟ بحـار في غـواصة يغيب شهـوراً في البحر ويـترك الشرطة تبحث عنـه في البر!». كـما كشف بارنارد بأنه شاهد في رؤياه كذلك عربة قطار مهجورة حيث كان السفاح يغير مـلابسه قبل عودته إلى بيته المطل على نفق لسكة الحديد.

ظل أمثال ستوكس وبارنارد وكروسيت يصـولون ويجـولون في تنبؤاتهم إلى أن تم القبض عل سفاح يوركشاير في ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٨١. لم تكن تـوجد نـدبة في وجهه، وكان ملتح. لم يكن اسمه جـوني أو روني، ولم يكن يسكن في شارع بـيرويك أو بيويك، ولم يتلق علاجاً في مصحة. لم يكن يعمل في غـواصة، ولا كـان يعرج. لم يكن يقـطن في بيت مطل عـلى نفق لسكة الحـديد، ولم يكن يـتردد عـلى عـربـة قـطار مهجورة. كان اسمه بيتر ساتكليف، وكان يعمل سائق شـاحنة، ويعيش في بيت مـع زوجته بضاحية برادفورد الهادئة.

لقـد تم الكشف عن بيتر أثنـاء إجراء روتيني للشرطـة. كان يجلس مـع مومس معروفة داخل سيارة في موقف للسيارات عندما قام أحد مفتشي الشرطـة بالتحقق عن طريق الكمبيوتر من أرقام لوحة السيارة التي كانا يجلسان داخلهـا. لقد تبـين أن أرقام اللوحة لا تتماشى مع أوصاف السيارة، فاقتيد بيتر إلى المخفر للتحقيق معه حيث لم يبد أية إشارة تدل على أنه القاتل المطلوب. غير أن المفتش تذكـر أثناء التحقيق أن المشتبـه به طلب منه بعد خروجه من السيارة أن يسمـح له بـالتبول خلف محـطة وقود قـريبة، فحدثته نفسه بالعودة إلى هناك وتفحص المكان حيث عثر على فأس ملطخة بالدماء. لم يكن لدى هذا المفتش أية قوة خارقة أو قدرة روحانية على الاستبصـار. لقد استجـاب

فقط لحدسه ولحاسته السادسة فاكتشف صدفة أخطر سفاح عرفته بريطانيا في القرن العشرين.

لقد اعترف السفاح بجميع جرائمه، وقدم تقريراً مفصلاً عن كل منها. وخلال المحاكمة التي استغرقت ثلاثة أسابيع تبين أن سوتكليف كان من مواليد عام ١٩٤٦، وأنه تزوج في عام ١٩٧٤ (آب/أغسطس) مدرّسة تدعى سونيا زورما كانت على شجار دائم معه. وعندما كان صوتها يعلو أثناء الشجار كان بيتر يطلب منها خفض صوتها كي لا تزعج الجيران.

وفي تشرين أول (أكتوبر) ١٩٧٥ بدأ سوتكليف سلسلة جرائمه بقتل بائعة الهوى ويلما ماكّان البالغة من العمر ٢٨ سنة. وعندما تم القبض عليه في مطلع عام ١٩٨١ كانون الثاني (يناير) كان عدد ضحاياه قد بلغ ١٣ امرأة. وقد عُثر في قمرة قيادة الشاحنة التي كان يقودها على ورقة مكتوب فيها بخط اليد:

«في هذه الشاحنة رجل لو أُطلق العنان لعبقريته لهز الأمة، وأخضع بطاقته الديناميكية جميع من حوله. من الأفضل تركه نائماً».

كانت هيئة المحلفين تتكون من ٦ رجال و ٦ نساء. وكان قانون عام ١٩٥٧ للعقوبات يسمح بتخفيف عقوبة المجرم إذا ثبت جنونه. وقد ادعى السفاح أنه كان يشكو من اضطرابات عقلية، وقال إنه كان يسمع أصواتاً تدعوه إلى قتل بائعات الهوى. لقد كان يقوم «بمهمة مقدسة». وعندما فحصته لجنة طبية في السجن، أعلنت في تقريرها أن سوتكليف كان مصاباً بالفصام (ازدواج الشخصية).

بيد أنه لم تبد عليه أية علامات للجنون أثناء محاكمته. كما أن بعض ضحاياه لم يكنّ من بائعات الهوى. وهكذا تمّت إدانته، وصدر الحكم عليه بالسجن مدى الحياة. وبثلاثين سنة كحد أدنى. وفي السجن ظل يقول بأنه ما زال يسمع أصواتاً، ولذلك تم نقله في شهر أذار (مارس) ١٩٨٤ إلى مستشفى الأمراض العقلية حيث ساءت صحته العقلية وأخذ يشكل خطراً على حياة العاملين والمقيمين هناك.

لقد دلت جرائمه على أنه شخص غير سوي. ولكن هل كان حقاً مجنوناً؟ أم أنه ادعى الجنون وتظاهر به؟ لقد ظلت حقيقة قواه العقلية لغزاً غامضاً لم يكشف النقاب عنه.

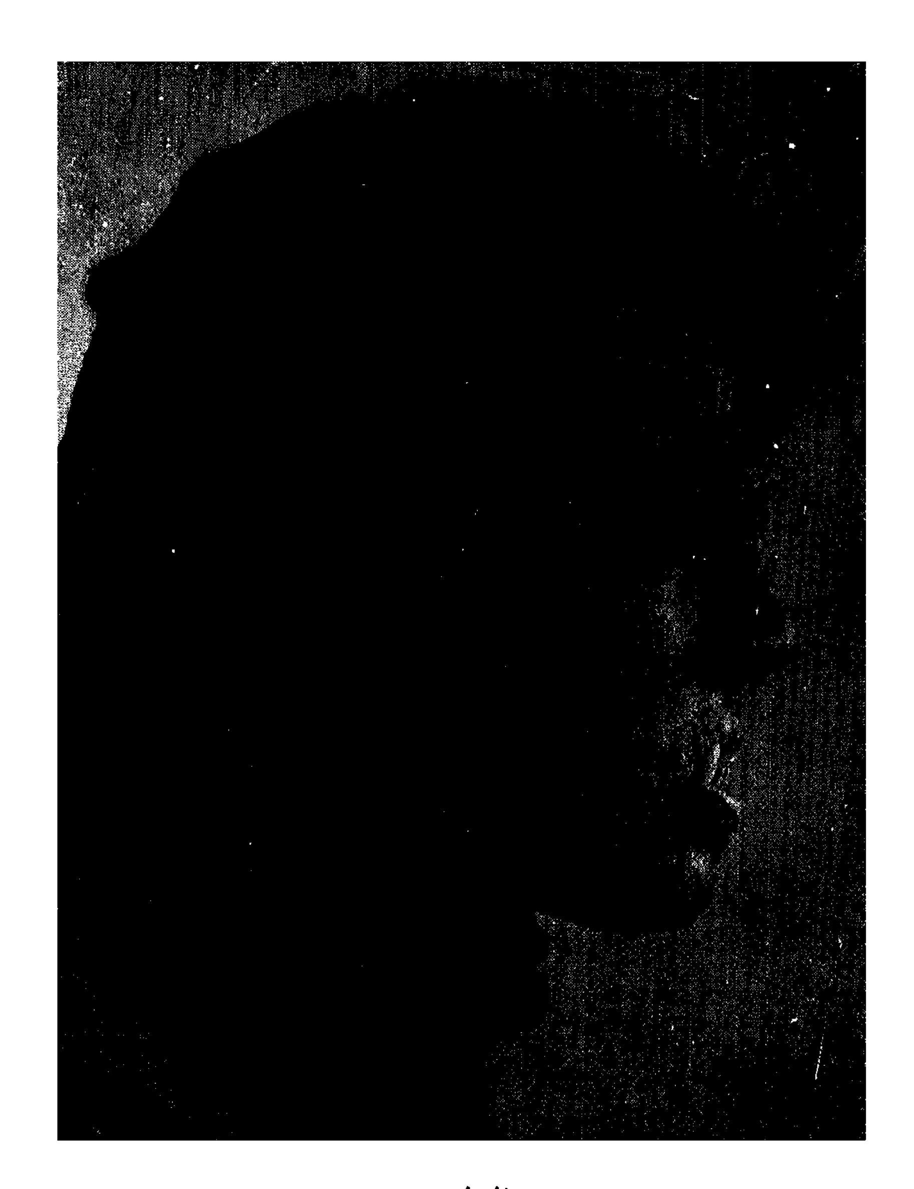
المستذئبون

الرجل الذئب الذي يلعب دوراً مرعباً في الأساطير الخيالية، أو الذي تصوره الأفلام السينمائية متعطشاً للدماء بشعره الخشن ومخالبه الحادة وأنيابه البارزة، هل يوجد في الحقيقة والواقع؟ أم أنه من نتاج الخيال وأوهام الفلاحين البسطاء؟ وهل يمكن أن ينقلب الإنسان ـ رجلاً كان أو امرأة ـ إلى وحش يهاجم بأنيابه ومخالبه ويمزق لحم البشر؟.

من المدهش أن الحقائق العلمية والطبية والتاريخية تؤكد حدوث مثل تلك الأمور. فحكايات الإنسان الذئب ذكرها المؤرخ اليوناني هيرودتس في القرن الخامس قبل الميلاد عندما كتب عن المكتشفين العائدين من المستوطنات حول البحر الأسود وحكاياتهم عن الرجال الذين يمكنهم أن يتحولوا هناك بفعل السحر إلى ذئاب. وبعد قرنين ذكرت الأساطير الرومانية تحول الإنسان إلى ذئب كعقاب له من الآلهة، فإذا هام في الغابات مع الذئاب لمدة ٩ سنوات ولم يهاجم إنساناً عاد إلى طبيعته البشرية.

وتستمر الأساطير مع السنين وتكبر دون توقف. فالذي يولد ليلة عيد الميلاد من المحتمل أن يصبح مستذئباً. وهناك رجال يُمسخون هم وذرياتهم ذئاباً بسبب خطيئة كبيرة، وآخرون يستعينون بالسحر الشيطاني ليتحولوا إلى ذئاب ويرتكبوا أعمالهم الشنيعة أو جرائمهم البشعة. كما أن هناك المساكين الذين ليس لهم يد في استذئابهم والذين يكافحون للتستر على حالتهم وإخفائها. وقد شهدت القرون الوسطى حكايات مخيفة كثيرة عن الرجال الذين مُسخوا ذئاباً وهاموا في الغابات كقطعان متوحشة تهاجم الحيوانات الأخرى، وقطعان الماشية، والإنسان نفسه.

في القرن ١٦ عندما أخذ الأوروبيون يقيمون المستوطنات في أميركا الشمالية، وعندما كان هنري الثامن ملكاً على بريطانيا، وغاليليو ينشر دراساته الفلكية ويخترع تلسكوبه، في هذه الفترة كانت فرنسا تعيش وسط وهم ديني عوقب بموجبه آلاف الأبرياء شنقاً أو حرقاً بتهمة الهرطقة أو السحر أو الاستذئاب. وقد تم في الفترة بين



المستذئبون

١٥٢٠ و ١٦٣٠ محاكمة ٣٠ ألف شخص بتهمة الاستذئاب، وإعدام بعضهم من مواطنيهم الفلاحين.

وفي أواخر القرن ١٦ شنت بريطانيا حملة لصيد الـذئاب وقتلهـا نتج عنهـا بعد ٢٠٠ سنة استئصال الذئاب كلية من الجزر البريطانيـة. غير أن قـطعان الـذئاب ظلت تسرح في سائر أنحاء أوروبا الأخرى بحرية، وظلت حكايات الذئاب المخيفة موضوعاً خصباً في الأدب الشعبي مثل حكاية ليلى والذئب.

وهناك حادثة شهدتها فرنسا عام ١٥٩٨، عندما وجد الفلاحون جثة صبي ممزقة فظنوا أن الذئاب قد نهشتها. وعندما أخـذوا يطاردون الـذئاب في المنـطقة عـثروا على جـاك رولي المتوحش الـذي كان يعـاني من مرض عقـلي، وقد تلطخت مخـالب يـديـه بالدم، وكان شبه عار، يغطي جسمه شعر طويل. ولم يكن الطفل أول ضحية له، إذ اعترف جاك أثناء محاكمته أنه قتل عدة أطفال وأكل لحمهم لأنه كان يظن نفسه ذئبـاً. وقد حكم عليه بالإعدام غير أن السلطات في باريس خففت الحكم إلى السجن مـدى الحياة، وتم حبسه في مصحة عقلية.

بعد ذلك بسنوات قليلة شهدت قـاعة محكمـة بوردو مثـول اليافـع جان غـرنييه البالغ من العمر ١٣ سنة، واعترافه بـأنه مستـذئب. كان جان متخلفاً عقلياً، وذا فك كبير مشوه تبرز منه أنياب مدببة حادة. فاجأ ذات مرة مجموعة من الراعيـات وأخبرهن بأنه عقـد اتفاقـاً مع الشيـطان لتحويله إلى ذئب. وبعـد أيام هـاجم إحدى الـراعيات فتعقبه الأهالي وألقوا القبض عليه. وأثناء محاكمته كرر القول بأنه باع روحـه للشيطان مقابل معجون سحري بإمكانه تحويله إلى ذئب عنـدما يـريد. وفي ٦ أيلول (سبتمـبر) حُكم عليه بالحبس مدى الحياة في أحد الأديرة بعـد أن وُجد مـذنباً بقتـل عدة أطفـال وأكل لحومهم. وكثيراً ما ضبط في الدير وهو يمشي على أربعة أو وهو يمزق اللحم النيء في المـطبخ. وظـل يرفض الاستحـمام حتى وفاتـه بعد سبـع سنـوات من احتجـازه في الدير.

بيـد أن حكايـات الرجـل الذئب لم تنتـه باستئصـال الذئـاب في أوروبا، حيث أخذت السينما تعيد إحياء تلك الأساطير مضيفة إليها حكايات الخفاش مصاص الدماء (فـامبير). وفي عـام ١٩٧٥ تهيأ لنجـار إنكليزي في السـابعـة عشر من عمـره أن روح الشيطان قد تقمصته. هاتف صديقاً له ذات مرة يخبره أن لون جلده ويديه أخـذ يتغير وأنه أخذ يعوي أحياناً مثل الـذئاب. وبعـد أيام وجـدت جثة النجـار الشاب خـارج البلدة وقد غرس في قلبه سكيناً قاتلة.

أما قصة عامل البناء بيل رامزي فكانت مختلفة. لقد أحس في عام ١٩٨٧ بالاستذئاب وقصد مخفر الشرطة في ساوث إند باسكس وهاجم ثمانية رجال شرطة داخل المخفر فجرح بعضهم بمخالبه قبل أن يحضر أحد الأطباء ويعطيه حقنتين لتهدئته. غير أنه خرق برأسه الباب الخشبي لغرفة الحجز، وتطلب الأمر حضور المطافىء لكسر الباب وإخراج رأسه المحشو في خشب الباب. بعد ذلك تم إدخال رامزي إلى المستشفى لإجراء الفحوص الطبية، وهناك اعترف بأن مثل هذه الحالة عاودته ثلاث مرات خلال ست سنوات حيث كان في كل مرة يشعر بقوة غريبة تتملكه فتبرز أنيابه ومخالبه ويأخذ يعوي ويمشي على أطرافه الأربعة ويقوم بأعمال لا تصدق. «لماذا، وكيف؟» لا أعرف. والناس هم الذين يخبرونني بما أفعله بعد ذلك.

هناك بعض التفسيرات العلمية لمثل هذه الحالات، حيث إن عضة ذئب مسعور تنقل فيروس السعار إلى الضحية الذي يأخذه السعار فيرغي ويزبد ويعض قبل أن ينهار بتأثير المرض ويموت. غير أنه ليست كل هذه الحالات سببها فيروس السعار، حيث إن البعض يصابون بحالات كهذه نتيجة تأثير بعض النباتات والحيوانات مثل بعض أنواع فطر عيش الغراب السام، أو بعض أنواع الضفادع التي يفرز جلدها مواد مهيجة أو سامة. كما أن مرض البورفيريا (Porphyria) النادر الحدوث يسبب أيضاً حالات كهذه. حيث إن المرض يسبب خللاً عقلياً قد يصل إلى حافة الجنون، كما يتسبب في نمو الشعر، وتقلص عضلات الوجه وبروز الأنياب، وفي الحاجة إلى الاحتجاب من ضوء الشمس الذي يؤذيهم، والحاجة إلى أخذ دم من الآخرين.

إن البورفيريا مرض عضوي قابل للتوارث، وقد عرف باسم «الداء الملكي»، لأنه كان من بين ضحاياه ماري ملكة اسكتلندا، والملك جيمس الأول، والملك جورج الثالث الذي حكم لمدة ٦٠ سنة، والذي ظهرت عليه أعراض المرض بوضوح في آخر عشر سنوات من حكمه مما جعل ابنه أمير ريجنت يحكم باسمه من عام ١٨١١ وحتى وفاته عام ١٨٢٠. لقد اتسم سلوك الملك جورج الثالث في أواخر حياته بسمات حيوانية، وكان يتوهم أنه يمتلك قوى خارقة. ويقال إن سلوكه هذا كان من أسباب سعي المستعمرات البريطانية في أميركا الشمالية لطلب الاستقلال عن بريطانيا.

فهل كانت أميركا ستظل حقاً مستعمرة بريطانية حتى اليوم لو لم يوجد في بريطانيا ذات يوم ملك مستذئب نصف مجنون؟!

معجزات الشفاء

في عصر التكنولوجيا المتقدمة، ينفق عالمنا في كل سنة بلايين الجنيهات من أجل الإبقاء على جسم الإنسان بصحة جيدة، وفي أبحاث للقضاء على ما تبقى من أمراض قليلة ليس لها علاج حتى الآن. وفي كل سنة يتم اكتشاف مزيد من الأدوية والعقاقير. غير أن الناس ما زالت تؤمن حتى يومنا هذا بالأطباء الروحانيين ومعجزاتهم في شفاء الأمراض المستعصية. وهذا الأمر ليس غريباً على المسيحيين الذين يؤمنون بمعجزات السيد المسيح في شفاء الأبرص والأعمى والكسيح.

هناك أشخاص أحياناً يمتلكون مثل تلك القوى الروحية في شفاء المرضى، غير أن هناك أمكنة أيضاً ومزارات لها القوة نفسها مثل بعض الأنهار والينابيع والعيون.

ومن أشهر حكايات الينابيع هذه، حكاية فتاة فلاحة في ١٤ من عمرها، من جنوب غرب فرنسا تدعى برناديت سوبيروس. ففي عام ١٨٥٨ قالت برناديت: أنها رأت العذراء في منامها طوال ستة أشهر وهي تدلها على نبع سرّي غير ظاهر بالقرب من مدينة لوردز الصغيرة. وقد أفتى البابا في عام ١٨٦٢ بصدق الرؤيا فأصبح نبع لوردز محجة للمرضى من كل لون وشكل. واليوم يقدر عدد الذين يحجون إلى هذا النبع بنحو ٣ ملايين شخص سنوياً، يقول بعضهم إنه شفي من مرضه أو شلله. وفي السبعينيات من هذا القرن نقلت الأم ديردر ابنتها فرانسيس بيرنز (٣ سنوات) من أحد مستشفيات جلاسكو باسكتلندا إلى ذلك النبع وجعلتها تستحم في مائه فشفيت من السرطان الذي كانت تعاني منه. وقد علق طبيب المستشفى الذي كان يعالج الطفلة ويتابع حالتها فقال: إن هناك بعض الأمراض يمكن شفاؤها نتيجة الإيمان الديني بالشفاء، «ونحن لا نملك تفسيراً علمياً لذلك. ونسمي الحالة في الاصطلاح الطبي معجزة».

أما فينياس باركهرست كويمبي من مين بالولايات المتحدة الأميركية فكان يشفي مرضاه بوضع يديه عليهم مع شيء من التأمل الروحي. كان كويمبي يؤمن بأن

الأمراض الجسدية تنتج عن اضطرابات عقلية، وأن المريض يمكن أن يشفي نفسه بقوة التفكير الإيجابي وبالثقة بالقدرة على الشفاء. ولا شك في أنه استطاع شفاء الكثيرين من مرضاه بهذه الطريقة. وقد أضافت تلميذته ماري بيكر إلى التأمل العقلي والإرادة القوية تأثير الإيمان الديني العميق والصلاة.

وفي ثمانينات القرن التاسع عشر كان المعالج الفرنسي إميل كو يعالج مرضاه بالماء الملون والتنويم المغناطيسي. وكان يقول: إن كل ما كان يفعله هو إثارة خيال المريض وجعله يؤمن بأنه يأخذ دواء له قدرة على شفائه، ودعا طريقته بطريقة «الإيحاء الذاتي». لقد كرس كو حياته لتعليم المرضى كيف يشفون أنفسهم بمجرد التخيل أن أمراضهم قد اختفت وزالت. وكان شعاره الذي يردده ويجعل مرضاه يرددونه: «في كل يوم، وبكل طريقة، أحس بالتحسن وأصبح أفضل».

ولقد قام في ثلاثينيات هذا القرن العشرين الذي نعيشه طبيبان إنكليزيان شابان في مستشفى لندن باختبار طريقة كو في «الإيحاء الذاتي»، فقسموا مجموعة من مرضاهم الذين يعانون من المرض نفسه إلى مجموعتين، وأعطوا المجموعة الأولى دواءً كيميائياً مناسباً لمرضهم ومعروفاً، وأعطوا المجموعة الثانية بيكربونات مع صودا. ولدهشة الطبيبين تعافت المجموعة الثانية مثل الأولى بل وأفضل مما يدل على أن الشفاء تم دون دواء. وهذا الأمر يثبت صحة إجراء كو ولجوئه إلى إعطاء مرضاه ماءً ملوناً كان يؤدي إلى شفائهم.

وهناك حالات أكثر غرابة من كل ما تقدم. ففي نيسان (إبريل) ١٩٧٣ توفي الرسام المشهور بابلو بيكاسو. وكان هناك مراهق غير معني بالرسم يدعى ماثيوماننغ، أخذ بعد وفاة بيكاسو بعدة شهور يرسم اللوحات الفنية بأسلوب بيكاسو مدعياً أن روح بيكاسو توجه ريشته من وراء القبر. وفي العام التالي نشر كتابه الأول وفيه رسومات منفذة بأسلوب عدد من الرسامين المشهورين الموتى مثل ليوناردو دافنشي وأوبري بيردزلي وبول كلي. وكان ماننغ يؤكد أن الرسومات في الكتاب ليست رسوماته وإنما هي من رسم الفنانين الموتى. وفي عام ١٩٧٧ اكتشف ماننغ أن لديه موهبة في شفاء بعض حالات السرطان، حيث كان يعجل في موت الخلايا السرطانية بمجرد اللمس وتركيز ذهنه. وبعد فترة شرع ماننغ بجولات علاجية عبر العالم فزار عام ١٩٨١ ألمانيا الغربية وطلب من الأطباء هناك فحص مرضاه قبل علاجه لهم وبعده. وقد أفاد تقرير كتبه الأطباء أن تحسناً بنسبة ٩٥ بالمئة طرأ على حالة المرضى الذين عالجهم ماننغ. وقال الجراح توماس هانسن في بريمن: أن ماننغ استطاع تخليص

امرأة من آلام روماتزمية في كتفها خلال ١٠ دقائق. أما في فريبورغ فقد شفى زوجة الطبيب المستشار أوتو ربرخ من شلل في يدها اليمنى خلال ٥ دقائق من العلاج أمام زوجها المندهش.

وتبقى قصة المعالج الروحي المعجزة خوسي أريغو الذي لا يعرف شيئاً عن الطب، والذي أدهشت عملياته الجراحية البرازيليين في خمسينات وستينات هذا القرن. لقد اكتشف خوسي قدراته الخارقة عندما كان يجلس مع أقاربه وأصدقائه حول سرير زوجة أحد أصدقائه وهي تحتضر. بيد أن خوسي قام فجأة وتناول سكين المطبخ وغرسها في جسد المرأة وأخرج ورماً خبيثاً بحجم حبة العنب وطرحه مع السكين في مغسلة المطبخ. وقد ارتعب هو نفسه مما فعل، غير أنه عند استدعاء الطبيب أكد الأخير أن الكتلة الدموية في حوض المغسلة كانت ورماً رحمياً خبيثاً. ولدهشة الجميع قالت المريضة أنها لم تشعر بأي ألم، كما أنه لم يحدث نزف دموي من الجرح. بعد ذلك شفيت المرأة تماماً وعاشت. أما خوسيه فيقول إنه لا يذكر شيئاً مما فعل. وقد أخبر عائلة المرأة فيما بعد أنه أحس وكأن روح الطبيب المشهور أدولفوس فريتز المتوفي عام ١٩١٨، قد تقمصته.

بعد ذلك انتشرت أخبار معجزات خوسي أريغو فراح المرضى يؤمّون منزله في المدينة الصغيرة كونغوناس دو كامبو بالمئات. كان بعضهم يستسلم بسعادة لخوسي وهو يقطع في لحمهم بسكين غير معقمة ثم يمسحها بقميصه. وكان يتأمل البعض الآخر لحظات ثم يكتب له العلاج المناسب، وكثيراً ما كان يصف أدوية تبدو متعارضة، غير أن المرضى كانوا يتبعون تعليمات خوسي ويشفون.

ذاعت شهرة أريغو غير أن السلطات سجنته في عام ١٩٥٦ بتهمة تعاطي مهنة الطب دون ترخيص. بيد أن السلطات عادت فأفرجت عنه بعد شهور قليلة عقب تلقي رئيس جمهورية البرازيل عرائض الاسترحام من المرضى الذين شفاهم. وفي عام ١٩٦٤ عادت السلطات البرازيلية فقبضت عليه وسجنته بالتهمة السابقة نفسها، لكنه خرج من السجن بكفالة ريثما تتم محاكمته. وقبل موعد المحاكمة توجه القاضي فيليب إيمسي إلى منزل أريغو وشاهده وهو يجري إحدى عملياته الجراحية. وعندما وصل القاضي إلى منزله، عرفه أريغو، وطلب منه أن يتقدم ليساعده في إجراء عملية لامرأة عمياء كانت تعاني من إعتام عدستي عينيها الاثنتين. قال القاضي الذي أمسك

برأس المريضة: «رأيته يلتقط أداة تشبه مقص الأظافر الصغير، ويمسحه على قميصه دون أن يعقمه. ثم رأيته يشق قرنية عين المريضة التي كانت واعية، غير أن عضلة واحدة في جسمها لم تتحرك. لقد دهشت مما رأيت. بعد ذلك تلا أريغو نوعاً من الصلاة ثم أمسك قطعة من القطن بيده فظهر عليها فجأة بضع قطرات من سائل قبل أن يمسح بها عين المرأة التي شفيت تماماً وأصبحت مبصرة».

وهكذا تم إسقاط التهم الموجهة إلى أريغو الذي راح يتابع علاج مرضاه مرة بالعمليات الجراحية الغريبة، وأخرى بجرعات كبيرة من الأدوية والتي يؤدي بعضها في الحالات العادية إلى الموت. وعندما توفي خوسي أريغو في حادث سيارة عام ١٩٧١ أخذ معه أسراره وعلاقته الغامضة بالطبيب فرتز. ذلك أنه كان يقول دائماً: إنه لا يملك أية مهارة طبية، بل ولقد شحب وجهه ذات مرة وأغمي عليه عندما شاهد نفسه في أحد الأفلام وهو يجري عملية جراحية بسكين صدئة.

الأمـوات الأحيـاء

في عام ١٩١٨ تقدم إلى شركة السكر الأميركية ـ الهاييتية تسعة فلاحين للعمل في جني محصـول قصب السكر. كـان الفلاحـون بحـالـة يـرثى لهـا تـدعـو إلى الأسى والحسرة. وكانوا يقفون صامتين بثيابهم الممزقة والبؤس باد عليهم. تقدم رئيس العمال تي جوزيف وزوجته كونستانس من مسؤول الشركة وطلبا منه أن يقبل هؤلاء الفلاحين الخجولين القـادمين من قـرية جبليـة بعيدة. ولمـا استفسر عن صمتهم أخبره جـوزيف بأنهم لا يعرفون الحديث إلا بلهجتهم المحلية الغريبة.

قبل مسؤول الشركة أن يجربهم ذلك اليـوم، واتفق مع جـوزيف على أجـر كان الأخـير سيحتفظ بجزء منـه لنفسه كعمـولة. وفي مسـاء ذلك اليـوم أثبتت المجمـوعـة جدارتها بالعمل، حيث إنها عملت طوال النهار بجـد ولم تتناول طعـامها إلا في المسـاء بعد انتهاء العمل، وبعد أن جمعت من قصب السكر كمية لا تضـاهيها كميـة أخرى. وظلت المجمـوعة تعمـل كذلـك طوال أسبـوع كامـل في ظروف جـوية صعبـة مفعمة بالحرارة والرطوبة دون كلل أو ملل.

وفي عطلة نهاية الأسبوع توجه جوزيف إلى عاصمة هاييتي، بورتو برنس، لينفق الأموال التي جناها من عرق العمال، ورأت زوجته أن تصطحب المجموعة الغريبة من العمال إلى ساحة الكنيسة في البلدة. وهناك ابتاعت لهم بعض الحلوى، وحالما وضعـوا قطع البسكويت في أفواههم راحوا يبكون وينتحبون، ثم هرعوا باتجاه الجبـال ميممين صوب قريتهم.

وفي القرية استقبلهم أقرباؤهم وأصدقاؤهم بشـوق وترحـاب، ذلك أنهم كـانوا مجموعة من أهالي القرية الذين تم دفنهم قبل بضعة شهور. لقد كـانوا في الحقيقـة من أتباع الديـانة الـودّونية (Voodooism) التي قـد يعود بعض أمـواتها إلى الحيـاة عندمـا تدخل قوة فوق طبيعية أجساد الموتى فتحييها. وقـد نشر هذه القصـة فيها بعـد الكاتب والمستكشف الأميركي وليام سيبروك الذي عاش في هاييتي في عشرينيات هذا القرن.

لقد ظلت حدود هاييتي حتى عام ١٨٤٤ تشتمل على المستعمرة الإسبانية هسبانيولا التي نزل فيها كريستوفر كولومبوس أثناء رحلته لاكتشاف العالم الجديد. وكان سكان جزيرة هاييتي من هنود الكاريبي، لكن الأوروبيين استأصلوا، طوال الخمسين سنة التي تلت وصول كولومبوس إلى الجزيرة، جميع السكان الأصليين، وأحلوا محلهم العبيد الذين كانوا يستقدمونهم من أفريقيا. وقد استقدموا مع هؤلاء العبيد كذلك إيمانهم بالسحر والشعوذة الذي تطور في هاييتي إلى نوع من الديانة عرفت بالديانة الودّونية.

تعاقب على جزيرة هاييتي عدة مستعمرين. فبعد الأسبان جاء الفرنسيون الذين أخذوا يستغلون جهد العبيد في استثمار خيرات الجزيرة من سكر، وبن، وقطن. ومع مجيء الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ كان يعيش في هاييتي ٤٠ ألف فرنسي يستغلون نحو نصف مليون عبد يعملون في الجزيرة. وكما تحرر الفرنسيون في وطنهم الأم نتيجة لمبادىء الثورة الفرنسية، فإن سكان هاييتي أخذوا يتطلعون بدورهم إلى التحرر والاستقلال.

ثار عبيد هاييتي بزعامة كاهن غامض وطبيب ساحر يدعى بوكمان. أخذ بوكمان يعزز عقيدة الودّونية في نفوس عبيد الجزيرة ويرسلهم لمحاربة الفرنسيين دون خوف من الموت لأنهم سيحيون بعد موتهم حسب عقيدتهم. وبقدر ما أبدى الفرنسيون من وحشية في قمع الثورة، فإن عبيد هاييتي ردوا الصاع صاعين للفرنسيين. وفي نهاية الأمر حصلوا على استقلالهم.

غير أن الجزيرة شهدت حرباً أهلية بعد الاستقلال نتيجة التدخلات الفرنسية والبريطانية في شؤون هاييتي. وأخيراً خضعت الجزيرة من عام ١٩١٥ وحتى عام ١٩٣٤ لحكم الولايات المتحدة الأميركية،.ولكن عدم الاستقرار استمر في الجزيرة طوال فترة الأربعينيات والخمسينيات. وفي عام ١٩٥٧ نجح الطبيب الدكتور فرانسوا دوفاليه بتسلم زمام السلطة في هاييتي، وكان معروفاً هناك باسم «بابا دوك».

لقد استغل دوفاليه الديانة الودّونية لتوحيد شعب الجزيرة، وتحول في عام ١٩٦٤ إلى دكتاتور متسلط، وأعلن نفسه رئيساً مدى الحياة، وترك شعبه يغرق في الجهل والخرافات. كما أعلن نفسه رئيساً لكهنة الديانة الودّونية، واستعان بالشرطة السرية التي كان أفرادها يعملون كذلك باعتبارهم أطباء سحرة. لقد عزز بابا دوك

الديانة الودّونية وشجع شعبه على الإيمان بعقيدتها، وأعلن أنه يمتلك قوى خارقة هو ورجاله بغرض إرهاب معارضيه.

وهكذا انشغل سكان الجزيرة أثناء فترة حكمه بخشية خروج أحبابهم من قبورهم، فأخذوا يكدسون الحجارة الثقيلة والصخور فوق كل قبر، ويحرسون القبر عدة أسابيع حتى لا تدخله الأرواح وتحيي الميت. وفي حالات أخرى أخذ أقرباء الميت يحقنونه بالسم أو يطلقون عليه النار بعد موته حتى لا يخرج من القبر ويعيش ثانية مسلوب الإرادة ومعطل التفكير.

بيد أن هذه التصرفات أخذت تقابل بالاستياء والاستنكار في الغرب وخاصة في أميركا التي هدد رئيسها آنذاك (كينيدي) في عام ١٩٦٢ بقطع المعونة عن هاييتي إن لم يقلع دوفاليه عن سياسته.ويعطي شعبه حريته وحقوقه الإنسانية. لكن اغتيال كينيدي بعد ذلك عزز مكانة دوفاليه وسيطرته على هاييتي وشعبها، بحيث ازدادت الأمور سوءاً هناك.

وفي عام ١٩٧١ توفي فرانسوا دوفاليه فخلفه ابنه جان ـ كلود البالغ من العمر ١٩ عاماً، وأعلن نفسه رئيساً لهاييتي ولقب نفسه بلقب «بيبي دوك». وكان الغرب يأمل أن تتحسن الأحوال بعد موت دوفاليه الأب، غير أن الأمور ازدادت سوءاً مع الابن، واستمر الحكم يعتمد على السحر وإرهاب الشعب بالقوى الخارقة. ولما هدد الرئيس الأميركي جيمي كارتر بقطع المعونة مجدداً عن هاييتي واستنكر تصرفات عائلة دوفاليه، ردت العائلة في عام ١٩٧٨ بدفن عجل حي مع صورة الرئيس كارتر في حفرة بوسط العاصمة بورتو برنس كتعويذة ضد كارتر. وكان وراء هذا العمل أرملة بابا دوك، السيدة «ماما دوك» دوفاليه.

وبعد عامين من ترك كارتر للبيت الأبيض بعد أن فشل في تجديد فترة رئاسته، قام عالم في جامعة هارفارد يدعى ي. واد دافيس بدراسة حول الأموات الأحياء في هاييتي حيث تبين له صحة الأمر. «هناك أشخاص عادوا إلى الحياة فعلاً بعد دفنهم».

قابل دافيس أحد العائدين من غياهب القبر وكان يدعى كلارفيوس نارسيس. ففي عام ١٩٦٢ أعلن مستشفى البرت شويزر في العاصمة بورتو برنس وفاة نارسيس، غير أن الأخير عاد إلى الظهور حياً في قريته بعد سنتين.

لقد أشار نارسيس إلى ندبة في خده قال إنها من أثر أحد المسامير التي تم تثبيتها في النعش. كما أنه أخذ أهل قريته ودلهم على قبره الذي خرج منه وجعلهم يشاهـدون النعش الخـالي. يقول نـارسيس: إن إخوتـه قتلوه بعد خـلاف على بيـع الأرض، وأن طبيباً ساحراً ساعده في الخروج من قبره بعد فترة على دفنه لا يستطيع تقديرها.

كما قابل دافيس امرأة قتلها ذووها بالسم لأنها رفضت أن تتزوج العـريس الذي اختاروه لها بعد أن وجدوها حاملاً من رجل آخر.

يقول دافيس في تفسير مثل هذه الحالات بأن الوفاة لم تكن حقيقية، وإنما كانت نوعاً من التخدير أو التعـطيل المؤقت لـوظيفة القلب والجهـاز العصبي. ثم قارن بـين حالات وجدها في هاييتي وحالات مماثلة حدثت في اليابان بعد تناول وجبة من الأسماك السامة (السمكـة المنتفخة ـ Puffer fish)، حيث قـرأ عن حالتـين صحا الميت في كـل منهما قبل دفنه.

بعـد كشف الـدكتـور دافيس عن سر قيـام بعض المـوتى وعـودتهم إلى الحيـاة تقلصت سلطة بيبي دوك دوفاليه، وفقد السيطرة على شعبه. ثم هـرب في عام ١٩٨٦ من قصره في بورتو برنس ولجأ إلى فرنسا. وبرغم التفسير العلمي الـذي قدمـه دافيس لعودة بعض الموتى إلى الحياة، فإن الأطباء السحرة في هـاييتي اجتمعوا بعـد هرب بيبي دوك، وأنـذروه بعـدم العـودة إلى هـاييتي ثـانيـة وإلا حـوّلـوه إلى ميت حي (زومبي ـ Zombie).

الخيمياء

الخيمياء، أو الكيمياء القديمة كانت تهدف إلى غايتين: تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، واكتشاف إكسير الحياة الذي يقضي على المرض ويطيل الحياة إلى ما لا نهاية. وهذا يعني أن المشتغل بالخيمياء كان يبحث عن الغنى والخلود. وقد ظل الإنسان يحلم بتحقيق معجزات الخيمياء منذ فجر التاريخ أيام الفراعنة وحتى منتصف هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه.

فمنذ أيام الفراعنة قبل ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد حاول الكهنة والكيميائيون تحويل خامات المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة مثل الذهب والفضة. ولقد نجحوا في علم التعدين، فعرفوا كيف يأخذون الصخور ويطحنونها ثم يضعونها مع أنواع معينة من التربة أيضاً في أفران ويصهرونها للحصول على معادن نقية براقة مثل النحاس والقصدير.

أما الذهب فكان ثميناً بسبب ندرته، وكان مقياساً للغنى والثروة، ويبدو كهبة من الآلهة تمنحها للمحظوظين من الملوك والأمراء والأثرياء. فالذهب، بعكس سائر المعادن، لا يفقد بريقه مع الأيام، ولا يصدأ. وكان الملوك يطبعون صورتهم على النقود الذهبية لتخليد اسمهم والتدليل على قوتهم ونفوذهم.

ومنذ عرف الفراعنة كيف يحولون الرمل المخلوط برماد الخشب إلى زجاج براق، يصنعون منه الحلي والألماس، وهم يبحثون عن سر تحويل المعادن إلى ذهب نفيس. كما أن تاريخ الخيمياء عرف علماء أذكياء نابغين، كما عرف الدجالين والمشعوذين. وقد اهتم بعلم الخيمياء ملوك سذج مثل الملكة إليزابيث الأولى، كما اهتم به طغاة متسلطون مثل أدولف هتلر.

وفي القرن السابع الميلادي شهد العالم انطلاق المسلمين من شبه الجزيرة العربية ووصولهم إلى مكتبة الإسكندرية العظيمة التي عثروا فيها على ثروة من العلوم والمخطوطات لا تقدر بثمن. وكان بين تلك المخطوطات كتابات أرسطو التي كتبها قبل



الخيمياء: الذهب والحياة

نحو ١٠٠٠ عام وذكر فيها أن كل المواد والأشياء مكوّنة من أربعة عناصر ـ التراب والهواء والماء والنار ـ وأن أي تغيير في نسبة مزج هذه العناصر يغير في طبيعة المواد ومسمياتها. وقد ترجم العرب أعمال أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ونقلوها معهم إلى إسبانيا عندما فتحوها، حيث انتقلت من هناك إلى جميع أنحاء أوروبا.

في عام ١١٤٤ قام العالم الإنكليزي روبرت أوف تشستر بنقل نظريات أرسطو المضللة حول تحويل المعادن، وشغل العلماء في علم زائف لا طائل منه. وعلاوة على تحويل المعادن الوضيعة إلى ذهب، كان أرسطو قد بشر كذلك بإمكانية العثور على «إكسير الحياة» أو «حجر الفلاسفة» كما سماه العرب، لعلاج الأمراض وإطالة العمر. وقد قضى العلماء مئات السنين يبحثون، دون جدوى، عن أسرار الخيمياء لتحقيق أحلامهم بالغنى والخلود. ومن الذين آمنوا بعلم الخيمياء في القرن ١٣ العالم الإنكليزي النابغة فرانسيس باكون، غير أنه مات دون أن يشهد أي نجاح لما كان يرجوه من علم الخيمياء.

لقد خصصت الملكة إليزابيث الأولى عالماً خاصاً بها وكلفته بالاشتغال في تحويل المعادن إلى ذهب، وظلت تحلم بالثروة والغنى حتى يوم وفاتها عن ٧٠ عاماً. كما أن

فيردناند الثالث امبراطور النمسا في القرن ١٧ كان واثقاً من أنه يستطيع الحصول على الذهب لتمويل حربه الطويلة ضد الألمان والهولنديين والسويديين بعد أن نجح علماؤه في الحصول على كتلة من الذهب البراق مستخرجة من صهر الرصاص والكبريت في فرن متوهج. بيد أن فيردناند اضطر إلى مصالحة خصومه بعد إفلاس إمبراطوريته. ذلك أن ما صنعه كيميائيو فيردناند لم يكن ذهباً، وإنما شيئاً يبدو كالذهب.

وكان قد حاول الطبيب السويسري والكيميائي البارع براسيلسوس الذي توفي عام ١٥٤١، أن يضع حداً للجهود الضائعة بحثاً عن معجزات الخيمياء، فنادى بضرورة التخلي عن محاولات تحويل المعادن إلى ذهب، والتركيز على البحوث الطبية وتحسينها لخدمة الناس ومحاربة الأمراض. وقام ـ للتعبير عن رأيه ـ بحرق الكتب التي تتحدث عن الخيمياء ومعجزاتها في ساحة المدينة.

أما العلماء المحدثون فقد عادوا وأحيوا بأبحاثهم علم الخيمياء بدلاً من الإجهاز عليه نهائياً، وذلك عندما استطاع عالم الفيزياء البريطاني أرنست رذفورد أن يحوّل في عام ١٩١٩ مادة إلى مادة أخرى. لقد حوّل النيتروجين إلى أكسجين وهيدروجين بعد أن قذف النيتروجين بالإشعاع. غير أن عمل ردرفورد احتاج إلى كميات هائلة من الطاقة للحصول على ذرات قليلة فقط من الأكسجين. بيد أن رذرفورد نجح أخيراً في إرساء مبدأ تحويل مادة إلى مادة أخرى دون الحاجة إلى السحر أو العمليات السرية الغامضة.

وبعد عمل رذرفورد بخمس سنوات نجح كيميائي في السادسة والثلاثين من العمر في ميونخ اسمه فرانز تاوسند من تحويل الكوارتز وأكسيد الحديد إلى ذهب. وعندما سمع النازيون بهذا الإنجاز استدعوا تاوسند ـ وكان هتلر يومها في السجن بتهمة التآمر ضد الحكومة، عام ١٩٢٤ ـ وطلبوا منه إجراء تجربة أمامهم. وقد تمت التجربة بنجاح في أحد الفنادق، ونتج عنها كمية من الذهب قدرت بنحو ربع أونصة (٧ غرامات تقريباً). وقد شكل النازيون مع تاوسند يومها شركة مساهمة غذوها بنحو ٥٠٠ ألف مارك لإنتاج الذهب، غير أن الشركة أفلست بعد سنتين. وقد حاول تاوسند أن يعيد الثقة إلى الشركة فأنتج في ليلة واحدة (في ١٦ حزيران (يونيو) ١٩٢٨) نحو ٢٦ أونصة (نحو ٧٣٠ غراماً). غير أن تلك كانت آخر كمية ينتجها، نظراً لأنه تم بعد ذلك القبض عليه بتهمة الاحتيال وسجن لمدة ٤ سنوات. وعندما جاءت الحرب العالمية الأولى دمرت كل أوراق تاوسند وأغلق ملف الخيمياء من جديد.

صـور الجنيـات

لا أحد يستطيع أن يشكك بذكاء ومنطق، كاتب القصص البوليسية الذي ابتكر شخصية شرلوك هولمز الشهيرة، السيد آرثر كونان دويل. كما أنه من العسير أن يتمكن أحد من خداع هذا الكاتب. ومع ذلك فقد صدّق السير آرثر فتاتين صغيرتين قالتا بأنهما التقطتا صوراً مع الجن والأقزام الخرافيين. فهل كانت الصور حقيقية؟ أم أن الأمر التبس على الكاتب الكبير كما التبس على غيره ممن شاهد الصور؟!

كانت الفتاة فرانسيس جريفيت البالغة من العمر ١١ عاماً تعيش في بيت قريبتها إلسي رايت البالغة من العمر ١٥ عاماً، نظراً لأن والد فرانسيس كان يحارب في فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى. وفي شهر تموز (يوليو) ١٩١٧ استعارت إلسي رايت كاميرا والدها والتقطت لفرانسيس صورة في حديقة المنزل. وبعد الظهر شرع الوالد بتظهير الصورة في الغرفة المظلمة وفوجىء بوجود أشكال غريبة أمام صورة فرانسيس، فظنها في بداية الأمر أوراق السندويتشات. غير أن إلسي أصرت على أن هذه الأشكال كانت لجنيات. .وقد قالت ذلك دون مبالاة وخرجت لتلعب مع صديقتها وقريبتها فرانسيس.

بعد أسابيع قليلة استعارت الفتاتان الكاميرا ثانية والتقطتا بعض الصور في الحديقة. وفوجىء الأب ثانية بعد تظهير الفيلم بصورة لابنته هذه المرة (إلسي) وأمامها قزم خرافي يقدم لها وردة. ولقد اتهم الأب الفتاتين بأنهما تحتالان عليه وتعبثان بالكاميرا، ولذلك قرر عدم إعطائها لهما مرة أخرى. كما أنه عاد وتفحص مسودة الصور بحثاً عن خيط أو ما شابه ذلك يتدلى أمام عدسة الكاميرا. ثم فتش مع زوجته بولي غرفة نوم الفتاتين بحثاً عن أشكال شبيهة بالأشكال التي ظهرت في الصور، لكنهما لم يجدا شيئاً. بعد ذلك قام الأب بعمل عدة نسخ من الصور وعرض بعضها على جيرانه بدافع التفكهة. ثم تم نسيان الموضوع.

بعد عام تقريباً رجع والد فرانسيس من فرنسا، وكتبت فرانسيس رسالة إلى

صديقة لها في جنوب إفريقيا، حيث ولدت وترعرعت في سنواتها الأولى، وأرفقت مع الرسالة صورتين.

وقد جاء في الرسالة: «أنا أتعلم هذه الأيام في المدرسة اللغة الفرنسية والهندسة والجبر والطبخ. عاد والدي الأسبوع الماضي من فرنسا بعد غيبة عشرة شهور، وجميعنا نعتقد أن الحرب ستنتهي خلال أيام قليلة. أبعث إليك مع الرسالة صورتين لي، واحدة وأنا في ثوب السباحة وقد التقطها العم جاك، والثانية لي مع بعض الجنيات، وقد التقطتها إلسي. كيف تيدي ودولّي؟». أما الصورة الثانية فقد كُتب على ظهرها ما يلي: «أنا وإلسي أصحاب جداً مع الجنيات. ومن الغريب أنني لم أشاهدهن في إفريقيا. ربما لأنهن لا يطقن الحر الشديد».

وفي عام ١٩١٩ عادت صور الجنيات فأثيرت، ولكن هذه المرة على نطاق واسع. ففي ذلك العام ذهبت السيدة بولي رايت إلى أحد اجتماعات جمعية روحية في برادفورد تهتم بالسعي إلى معرفة الله عن طريق التأمل الفلسفي والكشف الصوفي. وهناك تحدثت السيدة بولي عن صور الجنيات التي التقطتها ابنتها وصديقتها، فطلب أحد أعضاء الجمعية، السيد إدوارد جاردنر، الاطلاع على الصور.

دهش السيد جاردنر عندما شاهد الصور، وعرضها على خبيرين في التصوير وطلب منهما توضيح الصور، ففعلا، وحصل على نسخ شديدة الوضوح. وكان من الممكن أن يقف الأمر عند هذا الحد. غير أن إحدى صحف لندن طلبت في ذلك الوقت من السيد آرثر كونان دويل أن يكتب مقالة عن الجن، فاستعار الصور من جاردنر وعرضها على عالم النفس السيد أوليفر لودج الذي أفاد بأنها مجرد هراء. ولما عاد فعرضها على خبير في التصوير قال الأخير بأن الصور قد تكون حقيقية لأن الصور تدل على أن الجنيات كن يتحركن ببطء أمام عدسة الكاميرا. بعد ذلك طلب السيد آرثر من جاردنر أن يجري مقابلة مع عائلة السيد رايت ويتحقق من صدق الرواية، فعاد جاردنر وأخبر السيد آرثر أن الجماعة موثوقين وكانوا يتحدثون بصدق وأمانة. عند ذلك تبنى السيد آرثر الصور ووضع بعضها في مقالته فأثار بذلك موجة عارمة من الاهتمام بالموضوع. بعض الصحف سخرت من الأمر. وبعضها أجرى مقابلات مع الفتاتين وقال بأن الأمر يكتنفه الغموض.

عاد السيد آرثر إلى جاردنر وأعطاه كاميرا فيها فيلم عليه بعض العلامات



فرانسيس جريفت مع الجنيات

السرية، وطلب منه أن يتوجه إلى منزل السيد رايت ويطلب من الفتاتين التقاط بعض الصور الجديدة لهما مع الجنيات. ولسوء حظ السيد جاردنر كان الجو ممطراً في تلك الفترة، وقد استمر المطر عدة أيام فاضطر إلى ترك الكاميرا مع الفتاتين بعد أن أرشدهما إلى طريقة استخدامها. وبعد شهر وصلته رسالة من السيدة بولي وفيها ثلاث صور تظهر فيها الجنيات مع الفتاتين. وقد فرح عندما تحقق من وجود العلامات السرية على الصور، فتأكد بذلك من أن الفتاتين قد استخدمتا الفيلم الذي أعطاهما إياه، وحسب تعليماته.

تعزز إيمان السيد جاردنر بصحة الصور وصدقها، وأبرق بالأخبار السعيدة إلى السيد آرثر الذي كان في ذلك الوقت في أستراليا. رد السيد آرثر برسالة عبر فيها عن سعادته فقال: «لقد فرحت كثيراً عندما استلمت رسالتك ومعها الصور الثلاث الرائعة التي تؤكد النتائج التي توصلنا إليها من قبل. وعندما يتم التسليم بوجود الجن، فإن ظواهر نفسية أخرى سوف يتم تقبلها».

غير أن المتشككين ظلوا على شكهم. بل إن والد إلسي، السيد آرثر رايت، عجب كيف أن كاتباً كبيراً مثل السيد آرثر صدق ابنته التي هي «الأخيرة في صفها».



السي رايت مع قزم عام ١٩١٧

وعندما توفي السيد آرثر كان لا يزال على اعتقاده بصدق صور الجنيات، وعلى إيمانه بحقيقة الصور التي نشرها في مقالته.

واليوم هناك أدلة علمية تشير إلى احتمال وجود الأقزام العمالقة على الأقل. ففي عام ١٩٥٩ تمكن عالم الآثار ماكلين ماي من العثور على اكتشاف مدهش أثناء تنقيبه عن الآثار في إيرلندا. حيث وجد بقايا حضارات يعود تاريخها إلى ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، بينها أدواتٍ وأفراناً وأنفاقاً لا يمكن استخدامها إلا من قبل شعب من الأقزام.

ومهما كانت الحقيقة، فإن أساطير الجن، وعوالم الأقزام الخرافيين ما زالت تجد صداها لدى شعوب إيرلندا وسائر الجزر البريطانية حتى اليوم. ومن يشك بوجود الجن فليسأل السيد آرثر كونان دويل!

الأطفـال ـ العباقـرة

كان الفيلسوف اليوناني أفلاطون أول من أشار في القرن الـرابع قبـل الميلاد إلى الأطفال العباقـرة وسمّاهم «أطفـال من ذهب». وقد حـاول أن يردهم إلى آبـاء أذكياء وموهوبين، وقال بأننا لو تعهدناهم بدراسة الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة لاستطاعـوا تغيير العالم.

أمثـال هؤلاء الأطفال يتميـزون عـادة بـإتقانهـم المبكـر والمـدهش للغـة والأدب والمـوسيقى والريـاضيات في الـوقت الذي يكـون فيه أقـرانهم يكافحـون لنـطق بعض الكلمات. ولكن، هل الأطفال النوابغ نتـاج الوراثـة حقاً؟ لقـد حاول الأمـيركيون في عـام ١٩٨٠ الإجابـة عن هذا السؤال بـإنشاء بنـك للحيوانـات المنويـة في إسكنديـدو بكاليفورنيا، يموله المليونير روبرت جراهام.

كان هـدف البنـك ـ ولا يزال ـ إنتاج أطفال موهوبين بأعـداد متزايـدة في الأجيال القادمة. وكان البنك يأخذ الحيوانات المنوية من رجال موهـوبين ومتميـزين في ذكائهم وأعـمالهم، ويطلب أمهـات يتميـزن بـالـذكـاء ويتـبرعن لحمـل الأطفـال العبـاقـرة في أرحامهن. وكانت أول أم من هذا النوع عالمة نفس غير متزوجة من لوس أنجلوس في الحادية والأربعين من عمرها تدعى أفتـون بليك. وقـد اختارت أفتـون حيوانـاً منويـاً لـرجل يتمتـع بصحة جيـدة ودرجة عـالية من الـذكاء ويحمـل الرقم ٢٨ في سجـلات البنك، وكان الرجل عالم كمبيوتـر لامع يعمـل في إحدى الجـامعات الأوروبيـة ويهوى المـوسيقى والريـاضة. وفي عـام ١٩٨٢ أنجبت بليك طفلهـا النابـغ وأسمته دورون. وعندما أتم دورون شهره الرابع تم فحصه في مركز نمو الطفل بجامعة كاليفورنيا حيث تبين أن معامل ذكائه كان ٢٠٠ بينما معامل ذكاء الطفل العادي كان ١٠٠. كـما لوحظ أن نموه العام كان أسرع من نمو أقرانه.

غـير أن تاريـخ العباقـرة لا يربط بـالضرورة بين الـطفل النـابغة وبـين والـدين نابغين. فوالد إينشتاين كان رجل أعمال مفلسـاً في ألمانيـا الغربيـة، وكذلـك والدتـه لم

تكن ذات مواهب متميزة برغم حبها للموسيقى والأدب. ومع ذلك علّم إينشتاين نفسه بنفسه الهندسة والرياضيات، والتحق بجامعة زيورخ وهو في ١٤ من عمره. وبعد نحو ١٠ سنوات كان قد نشر الجزء الأول من نظرية النسبية وشرع يكشف أسرار الكون. ثم شرح عمل الذرة وتوصل إلى تطوير القوة النووية والقنبلة الذرية.

وأما ولفجانج موزار فقد ولد عام ١٧٥٦ لأب موسيقي، لكنه تفوق على أبيه منذ بدأ يمشي. ففي سن الثالثة أخذ يعزف الموسيقى، وفي الخامسة بدأ يؤلف القطع الموسيقية. وبعد عام واحد عزف أمام إمبراطور النمسا في فيينا. وفي سن السابعة بدأ ينشر أعماله، ثم قدمها في باريس وبروكسل. وفي العام التالي عزف للملك جورج الثالث في لندن، وكتب سمفونيتين. كما أنه كتب أول أوبرا له وهو في الثانية عشرة من العمر. وعندما بلغ الرابعة عشر منحه البابا رتبة فارس. وأخيراً مات موزار فقيراً ولما يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين. لقد كان موزار أعجوبة موسيقية منذ صغره.

كما أن الشاعر والروائي الألماني جوته تمكن - مثل الفيلسوف والاقتصادي البريطاني جون ستيوارت ميل - من قراءة اليونانية وهو في الثالثة من عمره. ولقد أفزع الشاعر والمؤرخ توماس بانبجتون ماكولاي والديه عندما أطل من النافذة وهو في عامه الأول وسألهما بعمق: «هل الدخان المتصاعد من المدخنة آتٍ من الجحيم؟».

وعلى العكس من ذلك، كان الشاعر المسرحي العظيم وليام شكسبير في طفولته طفلاً عادياً لا يبشر بأي نبوغ. وكان والد شكسبير رجل أعمال ميسور، غير أنه كان مبذراً ولذلك أخرج ابنه من المدرسة وجعله يبحث عن عمل. وهناك أدلة تشير إلى أن شكسبير كان في مراهقته لصاً، وقد اضطر مرة إلى الهرب بعد أن شاهده السيد توماس لوسي وهو يحاول سرقة غزال من مزرعته. ولم تظهر مواهب شكسبير الأدبية إلاّ في أواخر عشرينيات عمره.

ولقد شهد القرن العشرين عدداً من عجائب الأطفال وخاصة في ميدان التربية والتعليم. ففي عام ١٩٨١ تمكن الطفل الصيني ليو زياوبن من اجتياز امتحان الدخول والتحق بالجامعة، وهو في سن الخامسة. وكان في الثانية من عمره قادراً على قراءة ٣٦٠٠ كلمة، وهو ابن لمعلم ومعلمة.

أما الطفل العبقري أندراكون ديميلّو المولود عام ١٩٧٧ فكان أصغر طالب يتخرج من جامعة أميركية، وهو في سن ١١ سنة، حيث تخرج في الرياضيات من



روث لورنس والتخرج بعمر ١٣ سنة فقط . .

جامعة كاليفورنيا في سانتا كروز. وكان أندراكون قد أدهش والديه عندما قال لهما «هالو» وهو في أسبوعه السابع فقط. وعندما بلغ عامين ونصف أخذ يلعب الشطرنج

ويحل المسائل الهندسية. وفي الثامنة كان يكتب برامج الكمبيوتر المعقدة. يقول والده: «لا أعرف من أين حصل على مواهبه، وبالتأكيد ليس مني. فأنا لا أملك مواهب معينة، وأحياناً أشعر بالخوف لكوني أباً لهذا الطفل المعجزة».

وفي بريطانيا كانت روث لورانس أصغر طالبة تلتحق بالجامعة، وقد تخرجت وهي في الثالثة عشر من عمرها من جامعة أكسفورد، وشرعت فوراً تعد للدكتوراه. وكان والدها قد ترك عمله كمستشار للكمبيوتر وتفرغ لرعاية ابنته والأخذ بيدها. وقد شهدت سوراي موهبة عجيبة بطلها الطفل أنطوني ماكون الذي كان يتكلم اللاتينية ويحفظ أشعار شكسبير وهو في الثانية من عمره. يقول والده: «ليس عندي مواهب أورثها لأنطوني، وأنا لم أعلمه شيئاً، بل على العكس، هو يصحح لي القواعد عندما أتحدث معه، مما اضطرني إلى اقتناء إحدى الموسوعات للتحقق من صحة ما يقوله أنطوني لي. كما أن أنطوني يحفظ شعار ٢٠٠ نوع مختلف من السيارات. وفي مقابلة صحافية أجريت معه عام ١٩٨٤ عزا الطفل ذي العامين معلوماته إلى صديق غامض غير منظور اسمه آدم، وأصر على أن صديقه آدم هو الذي ينقل إليه المعلومات التي يعرفها. وقد وصف آدم بأنه رجل ناضج ذي شعر أسود وعينين بنيتين يرتدي ثوباً فضفاضاً، وصندلاً، «وله لحية أيضاً».

وفي عام ١٩٨٨ قام الطفل طوم جريجوري، البالغ من العمر ١١ عاماً بقطع المانش سباحة. كما قام الغطاس البريطاني بفرلي وليامس البالغ من العمر ١٠ سنوات بمنافسة رياضيي الولايات المتحدة في عام ١٩٦٧. ويعتبر ولفرد بنتز أصغر حامل للقلب بطولة الملاكمة في الوزن الخفيف، وقد فاز بهذا اللقب في عام ١٩٦٧، وهو في السابعة عشر من عمره.

إن تفوق الأطفال الموهوبين يجلب عادة السعادة والبهجة لآبائهم، غير أنه يجلب أحياناً التعاسة والعذاب. فالطفل الأوكراني سيريوجا كرشين البالغ من العمر ١٢ سنة تعرض مع والدته تامارا إلى اضطهاد مسؤولي التربية السوفييت طوال ٥ سنوات، علاوة على تعريض سيريوجا لاضطهاد أقرانه وزملائه في المدرسة.

لقد تكلم سيريوجا وهو في شهره الرابع، ومشى في الشهر الثامن، ولما بلغ عامه الأول كان بإمكانه القراءة والعزف على البيانو. وقد بدأت مشاكل سيريوجا عندما بلغ السابعة وأرادت والدته أن تلحقه بمدرسة البلدة. طلبت والدته أن يجلس مع تلامذة

أكبر منه في العمر، غير أن مدير المدرسة أصر على وضعه مع التلامذة الذين هم في مثل عمره - سبع سنوات - حيث راح زملاؤه يسخرون من تعليقاته التي كانت فوق مستوى إدراكهم وأخذوا يلقبونه بالأبله! كما أن معلميه لم يلتفتوا إلى مواهبه. ولما أخذ أقرانه يضايقونه إلى حد الضرب، أخرجته والدته من المدرسة وتركت عملها كمدرسة موسيقى لتتفرغ له. وعندما رفع الأمر للسلطات المحلية، تم التحقيق مع الأم، ومن ثم وضعت في مصحة عقلية بحجة أنها «أم غير طبيعية، تركت عملها، ومنعت ابنها من الذهاب إلى المدرسة».

ولكن، بعد أسابيع قليلة، تدخل أصدقاء المرأة وأقرباؤها - وكانت منفصلة عن زوجها - وأخرجوها من المصحة العقلية. وبعد خروجها أخذت ابنها إلى موسكو وكييف وعرضته على أخصائي في الطب. وفي عام ١٩٨٧ تم الاعتراف بنبوغ الولد وسُمح له بالتقدم لامتحان دخول جامعة موسكو، حيث نجح وقبل في كلية العلوم الفيزيائية وجلس مع طلبة أكبر منه بعشر سنوات.

وهكذا يظل السؤال مطروحاً: هل باستطاعة الآباء الطموحين تنمية قدرات أبنائهم واستثمار مواهبهم إلى حد خلق عباقرة منهم؟ أم أن الأولاد النابهين قد يولدون لآباء عاديين يفتقرون إلى أية مواهب، وبصرف النظر عن مدى ذكائهم!.

لقد عبّر برنارد شو عن هذه المعضلة خير تعبير عندما اقترحت - على سبيل المزاح - إحدى الممثلات الجميلات عليه أن يتزوجها لتنجب منه طفلاً له جمالها وذكاؤه، فأجابها: «ولكنني أخشى أن يرث الطفل شكلي وعقلك!».

التنويـم المغناطيسـي

أثارت القوة المخيفة للتنويم المغناطسي بغموضها المحير الجدل عبر القرون بين الأطباء وعلماء النفس ورجال السلطة في كثير من البلدان. فمؤيدو التنويم المغناطيسي يقولون إنها طريقة سليمة وآمنة لاستثمار القوى الكامنة في دماغ الإنسان، بينما يتول معارضوه أنه من أخطر فنون السحر والشعوذة.

هل هو حقاً قوة يمكن استخدامها لأغراض الخير أو الشر؟ أم هو مجرد متعة غير مؤذية يُمارس على خشبة المسرح للتسلية؟ أدان الخبراء العلميين في الجمعية الطبية البريطانية التنويم المغناطيسي باعتباره أمراً محفوفاً بالمخاطر. بينما أعلنت سلطات طبية أخرى أن التنويم المغناطيسي أداة نفسانية قوية يمكن استخدامها في شفاء المرضى.

بدأ الأطباء وعلماء النفس في أوروبا بدراسة موضوع التنويم المغناطيسي بعمق في القرن الثامن عشر. ففي هذا القرن برز عالم التنجيم الدكتور النمساوي فرانز ميسمر وقال بأن النجوم البعيدة تؤثر بقوتها المغناطيسية الضعيفة في سلوك الإنسان. وإذا كان الأمر حقاً كذلك، فإن تعريض المرضى لقوى مغناطيسية توضع مباشرة فوق رؤوسهم يمكن أن تأتي بنتائج أكثر عمقاً ووضوحاً.

أخذ الدكتور ميسمر يعالج في عيادته بفيينا حالات الهستيريا، والجنون، والاضطرابات العصبية، ويعلن عن شفاء أمثال هؤلاء المرضى بعد تعريضهم لحالات شبيهة بحالة الحلم حيث يكون المنوَّم في نصف ـ وعيه. ثم أدرك ميسمر أنه بالإمكان الاستغناء عن استخدام القضبان المغناطيسية، عندما أخذ يحصل على النتائج نفسها باستخدام أنامله، وصوته الهامس، في الضوء الخافت. وهنا قال ميسمر أن هذه ليست قوة مغناطيسية وإنما هي قوة غامضة تسري بينه وبين مرضاه، وأسماها «المغناطيسية الحيوانية».

وبعد أن أخذ مئات المرضى يراجعون الدكتور ميسمر طلباً للشفاء، أخذ الناس يتحدثون عن ظاهرة «الميسمرية» . غير أن السلطات الأمنية في فيينا رأت أن ما يجري



فرانز ميسمر ومبدأ «المغناطيسية الحيوانية»

في عيادة ميسمر هو جلسات استحضار روحية ليس لها علاقة بالطب، ومنعته من ممارسة عمله.

انتقل ميسمر إلى باريس في عام ١٧٧٠، حيث أثار أسلوبه الثوري في العلاج عاصفة مجلجلة في العاصمة الفرنسية. وبحلول عام ١٧٨٤ بدأ العديد من أتباعه باستخدام الميسمرية في علاج مرضاهم مما حدا بعلماء وأطباء الأكاديمية الفرنسية إلى إجراء التحقيقات في الموضوع بناء على طلب من الملك لويس السادس عشر الذي خشي أن تؤثر الميسمرية في الدراسة التقليدية للعلوم الطبية.

في هذا الوقت كان الرئيس السابق للجمعية الطبية في ليون، البروفسور تشاستنت دي بويسيغور، قد لاحظ أنه يستطيع السيطرة على أعمال مرضاه بعد تنويمهم بمجرد اقتراح ما يجب عمله. وهكذا، بعد الاطلاع على نتائج تحقيقات الأكاديمية الفرنسية، وعلى الظاهرة التي أشار إليها البروفسور دي بويسيغور، قرر الملك لويس حظر الميسمرية لخطرها على المواطنين الفرنسيين.

وهكذا، انتقل ميسمر في عام ١٧٨٩ إلى سويسرا حيث قضى ما تبقى له من عمر، وتوفي هناك كشخص مغمور بعد ٣٦ سنة. بيد أنه ظل يؤمن حتى آخر أيامه بأنه استطاع أن يكشف عن القوى الكامنة في العقل البشري ويستثمرها لخير الناس وعلاج المرضى. كما أنه قضى سنواته الأخيرة وهو يشعر بالمرارة لرفض طريقته ليس من قبل السلطات الحكومية فحسب، وإنما من قبل السلطات الطبية كذلك.

ومع ذلك، عاشت الميسمرية بعد ميسمر، ولم تمت بموته. وبرغم أنها ظلت فترة مستبعدة من ميدان الطب، فإنها ظلت تمارس في مجال التسلية والعروض المسرحية.

وفي عام ١٨٤٢ جاء عالم النفس الإسكتلندي العنيد جيمس برايد الذي توصل إلى تنويم مرضاه بجعلهم يركزون أبصارهم على ضوء يوضع أمام أعينهم. لقد شبه برايد حالة مرضاه كمن يمشي وهو نائم وأطلق على عمله ـ لأول مرة ـ عبارة «التنويم المغناطيسي ـ **hypnotism**».

أيقظ عمل برايد التجارب والأبحاث الطبية من جديد. وأخذ بعض الأطباء يعلن أنه يجري عملياته الجراحية تحت تأثير التنويم المغناطيسي بدون تخدير وبدون ألم. غير أن الهيئة الطبية في بريطانيا ظلت تنظر إلى الأمر باعتباره نوعاً من الخزعبلات والخرافة. وعاد التنويم المغناطيسي من جديد يقتصر على مجال العروض المسرحية وتسلية الجمهور.

ومع ذلك، ظل هناك أطباء يؤمنون بقوة التنويم المغناطيسي وتأثيره. فكان

هنـاك، ـ عـلى سبيـل المثـال ـ طبيب مشهـور في القـرن التـاسـع عشر يـدعى رودلف هايدنهين، كـان يختم محاضراتـه بتنويم بعض زمـلائه المـرموقـين ويجعلهم يمشون عـلى أربع، وينبحون كالكلاب، أو يموءون كالقطط ويلعقون الحليب من صحاف وهمية.

كما أن انتشار التنـويم المغناطيسي في العهـد الفيكتوري أسـاء إليه، حيث كـان المنومون يحقّرون المتطوعين ويجعلونهم مدعاة للسخرية ومثاراً للضحك عندما يجعلونهم يخلعون ثيابهم أو يعزفون المـوسيقى على آلات وهميـة غير مـوجودة أمـامهم. وحتى في القرن العشرين، حدث ذات مرة أن تم تحقير منـدوبي الـ BBC عندمـا ذهبوا لإجـراء مقابلة مع أحـد المنومـين المغناطيسيـين. ففي عام ١٩٤٦، وكـان التلفزيـون في أيامـه الأولى، أخذ فريق من الـ BBC يجري مقابلة مع منوم مغنـاطيسي فقام الأخـير بتنويم الفريق باستثناء المخرج. وعنـدما طلب المخـرج من الفريق متـابعة العمـل لم يتلق أية استجابة لأن الجميع كانوا منومين. ومنذ ذلك اليوم أخذت الـ BBC عهداً على نفسها بعدم نقل عروض مباشرة عن التنويم المغناطيسي.

بعـد ذلك بست سنوات، تلقت عـروض التنـويم المغنـاطيسي في عـام ١٩٥٢ ضربة قويـة، عندمـا نوّم رالف سـلاتر المتـطوعة جـريس رينز بـاث وأعادهـا إلى أيام طفـولتها، وجعلهـا تسلك أمام الجمهـور في مسرح لندن سلوك الأطفـال، ممـا جعـل السيدة جريس ترفع دعـوى قضائيـة ضد المنـوم المغناطيسي تتهمـه فيها بـأنه تسبب في إصابتها بالكآبة والقلق حيث أمضت عدة شهـور بعد الحـادثة وهي تبكي كـالأطفال. وقد ربحت السيدة جريس القضية ونالت تعويضاً عن الأذى الذي لحق بها. وفي ذلك العام أقر البرلمان قانوناً يمنع عـروض التنويم المغنـاطيسي على خشبـات المسارح. وقـد استمر ذلك المنع ساري المفعول حتى عام ١٩٨٨.

بيـد أن ممارسـات التنويم المغنـاطيسي استمـرت في ميـادين أخـرى في كثـير من البلدان. ففي الولايات المتحدة، كانت دائرة الشرطة في مدينة بوسطن تستعين بوحدة من خبراء التنويم المغناطيسي. وقد أفاد خبراء هذه الوحدة أنهم كانوا في ٧٥ بالمئـة من الحـالات يحصلون على الشهـود أو الضحايـا على أدلـة جديـدة أثناء عمليـات التنويم المغناطيسي. ويفسر المفتش باتريك بـرادي تلك النتائـج، فيقول: «إن شهـود حالات العنف وضحـاياهـا يميلون بطريقـة آليـة إلى نسيـان مـا شـاهـدوه أو خـبروه من عنف ويحاولون محوه من أذهانهم، وذلـك في محاولـة طبيعية لحـماية ذواتهم من الاضـطرابات النفسية والفزع العاطفي. ونحن في عمليات التنويم المغناطيسي نزيل العـوائق العقلية

غير الواعية ونجعل الشاهد يتذكر ما يحاول نسيانه. وقد حصلنا فعلاً من ضحايا العنف أثناء تنويمهم على أوصاف الجناة أو على رقم سيارة كان قد نُسي. ويضيف رجل الشرطة النيويوركي السيرجنت تشارلز ديجيت الذي استخدم التنويم المغناطيسي في أكثر من ٤٠٠ حالة أثناء خدمته، فيقول: «يجب تسجيل أقوال الشاهد المنوَّم على أشرطة فيديو لعرضها في المحكمة، لإثبات أن الشاهد تكلم وحده دون أي تدخل أو إيحاء من المنوِّم، وإلاّ فإن الأدلة أو الشهادة تكون غير مقبولة وتُرفض. وأنا أعتقد أن المنوِّم لا يستطيع أن يجعل المنوَّم يقول أشياء غير حقيقية رغماً عنه. وكل ما في الأمر أن التنويم المغناطيسي يقدح زناد الذاكرة ويجعلها تطلق مخزونها. ولربما يذكر المنوَّم بعض الأكاذيب التي يتوهمها، غير أن المزيد من التحقيقات يكشف الحقيقة».

بيد أن السلطات الأمنية البريطانية، بصرف النظر عن الخبرات الأميركية، ظلت تتلقى النصح بعدم اللجوء إلى التنويم المغناطيسي للحصول على أدلة في الجرائم الغامضة أو المعقدة. ففي عام ١٩٨٨ حذر وزير الداخلية دوجلاس هيرد المحاكم بعدم الأخذ بالشهادات التي تتم أثناء التنويم المغناطيسي.

ومن طريف ما يروى في هذا المجال أن مدرب السياقة دوغ بياتي كان ينوّم تلامذته قبيل تقدمهم لإجراء الفحص ليحافظوا على هدوء أعصابهم، حسب قوله. ويبدو أن طريقته هذه كانت فعالة بحيث أن ٨ من كل ١٠ من تلامذته كانوا ينجحون في الاختبار بعد تنويمهم مغناطيسياً. كما أن الممثلة الكوميدية والكاتبة ليلي توملين قالت: إنها نوّمت نفسها مغناطيسياً لكي تُنهي كتابة سيناريو أحد أفلامها بعد طول تعثر. والشيء نفسه فعله الممثل سيلفستر ستالون لكي يتغلب على خجله - كما يقول - وليكتب سيناريو أفلام رامبو البالغة النجاح.

كما تم تشجيع طلبة المدارس العصبيين والمتوترين على اللجوء إلى التنويم المغناطيسي قبيل دخولهم إلى قاعات الامتحان. وكان بطل الملاكمة المعروف، محمد علي (كلاي)، يلجأ إلى نوع من التنويم المغناطيسي الذاتي كإجراء «نفساني» قبل مبارياته.

وبرغم أن السلطات البريطانية رفعت في عام ١٩٨٨ الحظر الذي كانت قد فرضته قبل ٣٦ عاماً على التنويم المغناطيسي، فإن ملاحقة الشرطة للمنومين المغناطيسيين لم تتوقف لا في بريطانيا ولا في سواها من البلدان. ففي روما تعقب

رجال الشرطة المنوِّم المغناطيسي جيوكاس كاسيلا وقبضوا عليه في أحد المستشفيات حيث كان يعالج من جرح أحدثه في عنقه بعد أحد العروض التلفزيونية التي بثتها شبكة التلفزيون الإيطالي الوطني. وكان قد غرس في عنقه سيخاً معدنياً ليثبت للمشاهدين أنه لا يحس بالألم عندما يكون منوّماً. أما لماذا تعقبه رجال الشرطة، فلأن السلطات الطبية في باليرمو اشتكت من أن طفلاً في الثامنة من عمره راح في غيبوبة بعد مشاهدة العرض التلفزيوني وشبك أصابع يديه معاً في حالة من اللاوعي بحيث تعذر فكاكها برغم أن الأطباء لجأوا إلى حقنه بعقاقير مهدئة قوية. ولم يتمكن الطفل من إرخاء عضلات أصابعه وفكها إلّا بعد العثور على المنوّم المغناطيسي الذي خاطبه عبر الهاتف بقوله: «واحد، اثنان، ثلاثة، يداك الآن حرتان!».

وفي اسكتلندا قال العالم النفساني الدكتور بريم ميسرا بأنه عالج ١٦ مريضاً كانوا يعانون من الاضطراب بعد مشاهدتهم أحد عروض التنويم المغناطيسي على خشبة المسرح. أحد هؤلاء المرضى كان يسارع إلى خلع جميع ملابسه كلما سمع صفقة ـ يد. كما أن امرأة مسنة كانت قد أُعيدت إلى طفولتها فراحت تتذكر الأهوال التي مرت بها في أحد المعتقلات النازية بعد أن كانت نسيتها. وحالة ثالثة من هؤلاء تمثلت في زوجة أُصيبت بالفصام (الشيزوفرينيا) بعد أن أوهمها المنوِّم المغناطيسي، على سبيل الهزل، بأن زوجها يخونها.

يقول الدكتور ميسرا مفسراً تلك الحالات وأمثالها: «هناك قوى عقلية قوية تُستثار أثناء عمليات التنويم المغناطيسي، ويمكن أن تصبح خطيرة جداً، جداً».

فقـد الذاكـرة

الذاكرة مخزن الخبرات والذكريات في الدماغ البشري، وسجلّ حيّ لأحداث الماضي بما فيه من سعادة وفرح، ومن حزن وألم. أحياناً نسترجع بعض الأحداث بوضوح وكأنها أمامنا الآن، وفي أحيان أخرى ننسى بعض الأحداث أو نراها باهتة وكأنها وهم أو حلم هارب. وإلى الذاكرة يرجع الفضل في اكتسابنا للعلوم والمعارف، وفي امتلاكنا للحكمة، وللقدرة على معرفة الناس والأماكن والأشياء.

ما الذي يحدث داخل بنوك الذاكرة في الدماغ عندما يصاب الإنسان بفقد الذاكرة؟ ففي الحالات الطبيعية تقع خلايا الذاكرة في مؤخرة الدماغ فوق المنطقة التي تتحكم بالبصر، وتكون سليمة ومحمية داخل عظام الجمجمة. وهي تتصل بمراكز التفكير، والإحساس، والحركة، والإدراك. وبرغم أن العلماء استطاعوا تحديد موقع الذاكرة في الدماغ، فهم ما زالوا عاجزين عن تفسير عملها المحفوف بالغموض.

إن قوة الذاكرة تختلف من شخص إلى آخر. وهناك من العلماء من يرى أن الذاكرة تقوى بالتمرين مثل أي عضلة في الجسم. كما أن العلم عرف حالات نادرة تكون فيها الذاكرة مثل الكاميرا الفوتوغرافية تسجل كل شيء وتستعيده بدقة متناهية. مثل هذه الذاكرة كانت لدى موظفة بنك تم الاعتداء عليها في شقتها. لقد هاجمها الجاني في الظلام، وقبيل مغادرته الشقة أضاء النور للحظات قليلة ليتمكن من سرقة النقود التي كانت في محفظتها. لقد قدمت الضحية لرجال الشرطة وصفاً تفصيلياً دقيقاً لملامح الجاني مكّن أحد الرسامين من رسم صورة دقيقة له ساعدت في القبض عليه، وذلك في عام ١٩٨٦، حيث تم الحكم عليه حينذاك بالسجن لمدة سبع سنوات.

أما أشهر من عُرف بذاكرته الفوتوغرافية فراهب بوذي من بورما يستطيع قراءة ١٦ ألف صفحة من الصلوات البوذية غيباً. وهناك أيضاً المهندس دومنيك أوبريان من جلفورد بسوراي، الذي يستطيع التعرف غيباً على ٣١٢ ورقة من أوراق اللعب بعد عرضها عليه بشكل عشوائي مرة واحدة. لقد عرضوا عليه ست عبوات من أوراق

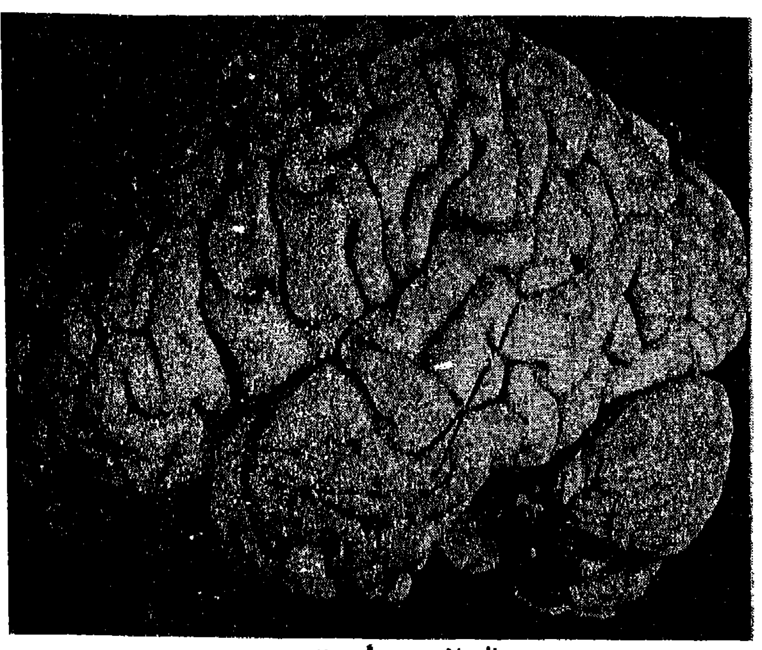
اللعب خلال ساعة ونصف، فاستعادها بنفس الترتيب من الذاكرة خلال نصف ساعة فقط.

وعلى العكس من هؤلاء، هناك أناس يفقدون ذاكرتهم وينسون الأحداث الهامة في حياتهم كما ينسون الأشخاص الذين يعرفونهم، والمعلومات التي تعلموها. وينتج فقد الذاكرة عادة من تلف يصيب خلايا الذاكرة بفعل جرح أو صدمة قوية تصيب الجمجمة وخاصة عقب حوادث السيارات. كما أن بعض الأفراد قد يتعرضون لفقد الذاكرة عقب صدمة عاطفية قوية أو حادثة رهيبة مفزعة.

واحد من الذين أصيبوا بفقد الذاكرة بعد حادث سيارة نسي زوجته وأبناءه. وواحدة من مواليد هنغاريا فقدت ذاكرتها في إنكلترا حيث كانت تعمل، عقب تلقيها نبأ وفاة والدتها. ومن حالات فقد الذاكرة المشهورة التي شهدتها بريطانيا في عام ١٩٨٤ حالة المؤرخ الموسيقي وأحد المنتجين العاملين في محطة إذاعة الـBBC، كليف ويرنج الذي أصيب بالتهاب فيروسي في دماغه أفقده الذاكرة، وجعله يعيش فقط في الحاضر. كان كليف - على سبيل المثال - كلما رأى زوجته يهرع إليها والدموع في عينيه ويسلم عليها لاعتقاده أنه يراها بعد غيبة طويلة، برغم أنه كان معها قبل دقائق.

لم يفقد ويرنج قدرته على القراءة والكتابة، وكان يكتب مذكراته اليومية، لكنه كان ينسى ما يكتبه ولا يستطيع التعرف على خطه. وكانت أكبر مشكلاته وجبات الطعام، حيث كان يأكل كلما شاهد طعاماً دون أن يذكر أنه تناول وجبته قبل نصف ساعة أو حتى قبل بضعة دقائق. ولذلك أصيب بالسمنة نتيجة الوجبات العديدة التي كان يتناولها.

تشهد بريطانيا ٥٠ حالة مثل حالة كليف ويرنج سنوياً. كما أن هناك نحو نصف مليون ضحية لمرض الزيمر الذي يصحبه فقدان للذاكرة. غير أن هناك بعض الأمل أخذ يلوح في الأفق. ففي عام ١٩٨٨ تطوع البروفسور مارتن الحائز على جائزة نوبل لتجربة عقار الذاكرة THA بعد أن أصيب بمرض زيمر وأخذ يفقد ذاكرته شيئاً فشيئاً. لقد كان مارتن ينسى رقم القطار الذي يأخذه إلى منزله فيركب القطار الخطأ، ويتوه بين محطات القطار قبل أن يستدل فجأة، وربما بالصدفة، على رقم القطار الصحيح.



الدماغ . . . خزّان الذاكرة

هـذا، ويأمـل العلماء في التوصـل، خلال عقـد التسعينيات، إلى تـركيب عقار هرموني ينشط الذاكرة ويشفى حالات فقدانها، بل ويؤثر على قدرات الإنسـان العقلية والعاطفية. ويتنبأ البحاثة الهولندي البروفسور ديفيد دي ويد أن اكتشاف عقـار جـديـد لعـلاج قصور وضعف الـذاكرة سـوف لا يشفي حالات فقـد الذاكـرة فحسب، وإنما سيستعمل كذلك لتقوية ذاكرة الناس العاديين الأصحاء. وقـد تم في هولنـدا بالفعـل اكتشاف هرمون ACTH 4-9 الذي أثبت فعاليته في تحسـين الحالـة النفسية للمصـابين بالإحباط والكآبة. كما أثبت هذا الهرمون أنه يزيد من فعاليـة التركيـز والدافعيـة لدى الأفراد.

وفي كنـدا تم استخـدام هـرمـون الأكسيتـوسـين بـاعتبـاره «عقـاراً للنسيـان». والأكسيتوسين هرمون يُفرز في المرأة بشكـل طبيعي لتخفيف آلام الولادة. وهـو يُجرب اليـوم في حالات تتـطلب نسيان الخـبرات المؤلمة والأحـداث المفزعـة. يقول الـدكتـور دي ويد وكأنه على يقين مما يتنبأ به: «سـوف نتمكن في المستقبل من التـأثير عـلى جميع العمليـات في الدمـاغ. وإذا كان نقص الهـرمونـات هـو المسؤول عن ضعف الـدمـاغ وشيخوخته، فبإمكاننا تعويض تلك الهرمونات وتجديد شباب الدماغ».

الاتصـال بسكـان الفضـاء

منذ مشى الإنسان الأول منتصب القامة على سطح هذه الأرض وهو يتطلع نحو السماء ويتساءل: هـل توجـد حياة هنـاك؟ ومنذ آلاف السنـين والإنسان يتخـوف من وجـود حضارات أكـثر تقدماً ورقياً من حضـارتنا خـارج الأرض. ولقد صـوّر كتّـاب الخيال العلمي كائنات مخيفة وحيدة العين خالها ملايين القراء وكأنها حقيقيـة سيكشف عنها المستقبل.

في مجـرتنا وحـدها أكـثر من ١٠٠ ألف مليـون نجم، خمسهـا عـلى الأقـل مثـل شمسنا. ووفقاً لما يقوله عالم الفلك البروفسور أرشيبالد روي، فإن نصف هذا الخمس (١٠ آلاف مليون نجم) لكل منه كواكب تدور حولـه، ويحتمل أن تـوجد فيهـا حياة. وفي خمسينيـات هذا القـرن وصف عالم الفلك الفيـزيـائي الأمـيركي، الصيني الأصـل والمولد سو شو هوانغ الـذي يعمل في إحـدى جامعـات إلينويـز نمط الحياة التي يحتمـل وجودها في كواكب مجرات أخرى غير مجرتنا فقال: بأنها ينبغي أن لا تكون حارة جـداً حتى لا يتبخر الماء فيها، وينبغي ألاّ تكون بـاردة جداً حتى لا يتجمـد الماء فيهـا. فإذا ما توفر جو كهذا فإن وجود حياة هناك أمر محتمل، حيث لا يوجـد سبب منطقي يمنـع ذلك.

ولطالما حلم الإنسان بالاتصـال بسكان العـوالم الأخرى في الفضـاء. ولعل أول محاولة كانت عندما أخذ الإنسان بعد اكتشاف النار يشعـل الحرائق فـوق التلال، غـير أن إشعال النار لا يكون أكثر من دليل على الإنذار بوجود خطر. ولذلك فإن المحاولـة الأولى كانت بعد اختراع صموئيل مورس للتلغراف الكهربـائي عام ١٨٣٦: ولـما كان من المتعذر إرسال إشارات مورس (التي تحتاج إلى أسلاك كهربائية) إلى الفضاء، فقـد اتجه التفكير إلى إرسال تلك الإشارات باستخدام الأشعة الضوئية من مصدر ضـوئي، أو باستخدام أشعة ضوء الشمس التي تعكسها مرآة ضخمـة. وكان المختـرع الفرنسي شارل كروس أول من فكر باستخدام مرآة ضخمـة لعكس أشعة الشمس من الأرض

إلى المريخ على أمل الاتصال بسكان المريخ بعد تحريك المرآة إلى الأمام والخلف. بيد أن كبر حجم المرآة كان يحول دون تحريكها. ثم من يضمن أن سكان المريخ ـ إن وُجدوا ـ سوف يفهمون الرسالة ويجيبون عليها؟ ولذلك عندما مات كروس في باريس عام ١٨٨٨، ماتت الفكرة معه.

اقترح، فيما بعد، المهندسون العاملون مع المخترع الأميركي طوماس إديسون فكرة أفضل، فنادوا بعمل طوف عملاق طول ذراعه عشرة أميال، وتعويمه فوق سطح بحيرة ميتشغان بعد تزويده بالمصابيح الكهربائية التي توصل إديسون إلى اختراعها حديثاً. واقترحوا إضاءة المصابيح لمدة عشر دقائق وإطفائها لمدة عشر دقائق، وتكرار هذه العملية كإشارة إلى سكان الفضاء بأن على سطح الأرض حضارة متقدمة تحاول مخاطبتهم. بيد أن إديسون رفض بعناد تجربة الفكرة محتجاً بأن منازل نيويورك وشوارعها أحوج إلى عشرات آلاف المصابيح التي تحتاجها التجربة. وهكذا ماتت هذه الفكرة أيضاً في مهدها.

ظلت الفكرة تراود عقول الناس ومخيلاتهم في القرن التاسع عشر. كان بعضهم يتشوق إلى تنفيذ الفكرة، بينما كان البعض الآخر يصاب بالهلع عندما يفكر بإمكانية نجاحها. وفي عام ١٨٩٨ كتب كاتب روايات الخيال العلمي هـ. ج. ويلز قصته المفزعة «حرب العوالم» التي تحدث فيها عن غزو الأرض من قبل سكان المريخ بأسلحة مميتة. وظل الأمر محصوراً في مجال الخيال والروايات الخيالية. وكان البعض يتخوف من تحقيق الفكرة ونجاحها، نظراً لأن نجاحها كان، حسب رأيهم، سيلفت الانتباه إلى كوكبنا ويعرضه لاحتمالات الغزو بالفعل.

ومع ذلك، أعلن ناشر إحدى الصحف في باريس عن جائزة مقدارها ١٠٠ ألف فرنك لمن يستطيع الاتصال مع أية كائنات حية غريبة تعيش في مجرتنا، باستثناء المريخ. غير أن أحداً لم يفز بالجائزة. بل وتلقى الناشر رسائل عديدة من مواطنين عاديين يطلبون منه عدم تشجيع فكرة الاتصال بالغرباء في الفضاء الخارجي، وبإلغاء الجائزة.

ولكن، شئنا أم أبينا، فنحن بدأنا الاتصال بالفضاء الخارجي منذ اختراع موجات الاتصال اللاسلكي في مطلع هذا القرن. كما أن موجات الإرسال الإذاعي والتلفزيوني تتسرب إلى الفضاء الخارجي. وصحيح أن مثل هذه الموجات كلما ابتعدت

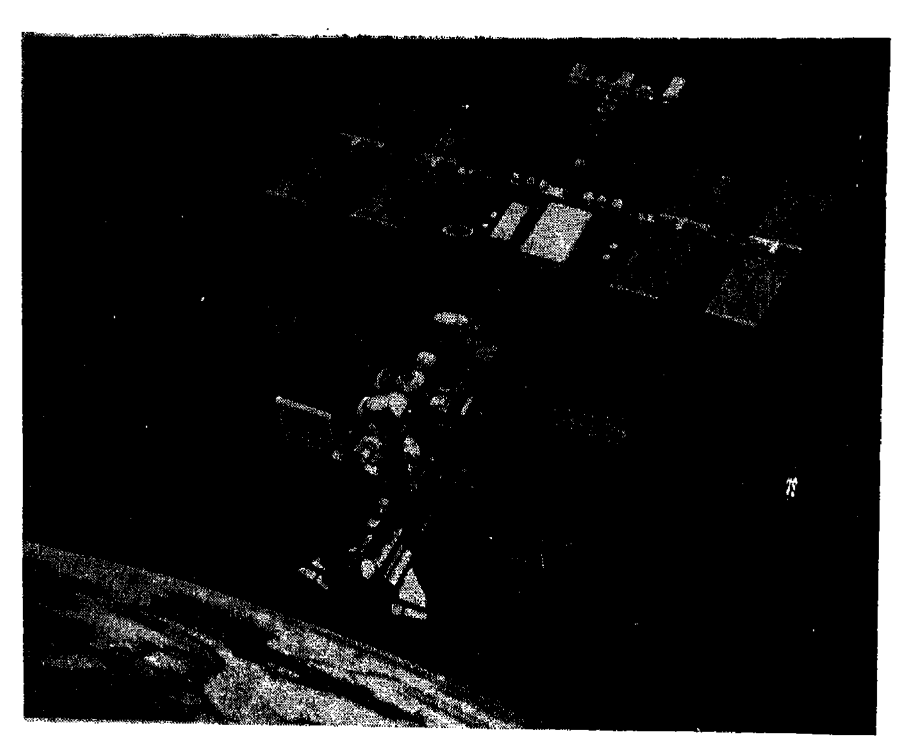
تضعف، غير أنه يمكن تقويتها وإعادة استقبالها إذا افترضنا وجود حضارات متقدمة في الفضاء الخارجي. كما أن هناك مشكلة أخرى ظلت تبحث عن حل، هي: لو فرضنا أن سكان الفضاء بثوا إلينا موجاتهم اللاسلكية فعلى أية موجة سنلتقطها؟

في عام ١٩٤٣ طلع علينا عالم الفلك الهولندي هندريك كرستوفل فان دينهولست بحل معقول لتلك المشكلة. قال بأن ذرات الهيدروجين يمكنها، إن غيرت طاقتها بفعل المؤثرات الكونية، أن تبث طاقة لاسلكية ضعيفة على موجة الراديو ٢١ ـ سنتيمتر. ولو فرضنا أن سكان الفضاء يعرفون هذه الحقيقة مثلما نعرفها يصبح عندئذ من السهل تبادل الإشارات اللاسلكية بيننا وبينهم على هذه الموجة.

ولقد تمت أول محاولة رسمية للاتصال بالفضاء الخارجي في عام ١٩٦٠، عندما قام عالم الفلك الأميركي الدكتور فرانك دريك بتوجيه قرص الهوائي الضخم (قطره ٨٥ قدماً) للمرصد الوطني في جرين بانك بغرب فرجينيا، نحو النجمين Tau Ceti و Epsilon Eridani. وقد اختار هذين النجمين لقربهما منا (على بعد ١١ سنة ضوئية)، وأطلق على مشروعه الاسم الرمزي OZMA. وقد أبقى أمر هذا المشروع سراً خشية أن يتعرض لسخرية النقاد أو يتهم بتبذير الوقت وإساءة استخدام معدات المرصد. وطوال ثلاثة أشهر ظل الدكتور دريك ينتظر سماع أية إشارات قادمة من الفضاء، قبل أن يعلن أمام زملائه بأنه لا يعتقد بوجود حياة متقدمة على بعد معقول من كوكبنا.

أما في عام ١٩٧٢ فقد قام علماء مشروع بيونير بقذف «رسالة في زجاجة» إلى الفضاء الخارجي، ورسموا عليها خريطة لموقع كوكب الأرض مع صورة لامرأة، ورجل رافعين اليد كتحية، ومع إشارة إلى الاتصال بالأرض على الموجة ٢١ ـ سنتيمتر. وبعد أربع سنوات أعلن العلماء (في عام ١٩٧٦) أن رسالتهم لم تأت بنتيجة، وأنها ربما تكون قد أصبحت إحدى النفايات السابحة في الفضاء.

هذا، وكان الكاتب العلمي إيان ريد باث قد شك في استجابة وفهم سكان الفضاء لمغزى صورة الرجل الرافع اليد بالتحية، فأخذ صورة مماثلة وعرضها على مجموعة من قردة ريسوس في قفص، فظنت القردة بأن الرجل سيهاجمها ولذلك ارتدت إلى الوراء وانزوت في ركن القفص الخلفي. ولذلك تم في عام ١٩٧٧ وضع



محطات اتصال بسكان الفضاء

«رسالة» ثانية في الفضاء الخارجي محملة بأشرطة فيديو، وأصوات العصافير والحيوانات الأخرى، وبعبارات التحية بخمس وخمسين لغة مختلفة.

لقد توقف مشروع OZMA وذهب طي النسيان غير أن تطلع الإنسان إلى مخاطبة سكان الفضاء لم ولن يتوقف. فهناك اليوم عدة جهات في أميركا وسواها من البلدان ما زالت تسعى لتحقيق تلك الفكرة. من بين هؤلاء مؤسسات كبيرة أو صغيرة، وأفراد، مثل: NASA و SETI و META ومخرج فيلم .E.T الفنان ستيفن سبيلبيرغ. وقد أخذ بعض هذه المؤسسات يستعين بالكمبيوتر ويخصص قنوات استقبال إذاعي تصل إلى ٧٠ ألف قناة (مشروع SETI). غير أنه يجب أن لا ننسى شيئاً واحداً، هو أن الإشارة قد تستغرق ٢٠ ـ ٣٠ سنة حتى تصل من الأرض إلى مستقبليها في الفضاء، ونحتاج إلى فترة مماثلة حتى نتلقى الإجابة. كما أن سكان الفضاء ربما كانوا قد تلقوا أخبارنا عبر الموجات اللاسلكية ووجدوا أنها مليئة بالمآسي والكوارث والحروب أو بالعروض التلفزيونية السخيفة ومهازل الانتخابات الرئاسية فترفعوا عن مخاطبتنا وأحجموا عن الرد على رسائلنا أو الاحتكاك بنا!

قبيلة الدوغون

يبلغ عدد أفراد قبيلة الدوغون نحو ٢ مليون نسمة، يعيشون عيشة بدائية في جمهورية مالي الإفريقية. لم تتغير حياتهم إلا قليلاً عبر القرون، فهم ما زالوا يرعون الماعز ويزرعون الحبوب ويجمعون الحطب لنارهم في سهل بانادياغارا، على بعد ٣٠٠ ميلاً جنوبي تمبكتو، حيث قطن أسلافهم قبل ٥٠٠ سنة مضت. وهم يعبدون آلهتهم في السماء، ويخصون مجموعة سيريوس النجمية بتقدير واحترام شديدين. وسَيريوس (Sirius) هو النجم البراق في السماء الذي سماه الفلكيون العرب «الشِّعري اليمانية».

يعتبر سيريوس من أقرب النجوم إلى الأرض، حيث لا يبعد عنها سوى (٨,٧) سنة ضوئية، وبريقه يفوق في نصف الكرة الشمالي بريق سائر النجوم. وقد عبد هذا النجم قبائل أخرى غير قبيلة الدوغون. كما استعان به قدماء المصريين في تقويمهم السنوي ومعرفة ميعاد فيضان النيل في كل سنة. بيد أن إيمان قبيلة الدوغون وعلاقتهم بالنجم سيريوس أمر فريد من نوعه. فمنذ خمسة قرون وهم يعبدون، ليس سيريوس وحده، وإنما النجم القزم الأبيض المصاحب له أيضاً «سيريوس ب» الذي لا يُرى بالعين المجرَّدة. والعجيب في الأمر أن أسلاف قبيلة الدوغون عرفوا مواقع «سيريوس ب» بالضبط، بدون استخدام التلسكوبات القوية أو الآلات الفلكية الدقيقة المعروفة في أيامنا.

هذا، ولم يعرف الفلكيون في أوروبا وأميركا بوجود النجم سيريوس ب إلا في القرن التاسع عشر. ففي عام ١٨٦٢ كان الفلكي الأميركي ألفان غراهام كلارك يجرب تلسكوباً جديداً عندما اكتشف بالقرب من سيريوس نجماً صغيراً أبيضاً سمّاه سيريوس ب. وبعد ٦٠ سنة اكتشف العالم الإنكليزي السير آرثر آدينكتون في عام ١٩٢٨ معلومات جديدة عن سيريوس ب وحجمه، وتذبذب ضوئه الأبيض، وتأثير جاذبيته على نجم سيريوس المجاور له. وأخيراً، تم في عام ١٩٧٠، رصد

وتصوير النجم سيريوس ب بوساطة عدسات التلسكوبات الحديثة المعقدة والكاميرات الشديدة الحساسية.

كل هذه الأمور كانت، بالنسبة لقبيلة الدوغون، أخباراً قديمة، أكدت ما سبق أن عرفوه ليس أكثر. لقد عرفوا منذ قرون بوجود سيريوس ب وكانوا يدعونه باسم بو تولو. وكانوا يعرفون أنه يدور حول سيريوس في مدار بيضاوي مرة كل ٥٠ سنة. فكيف توصلت هذه القبيلة البدائية إلى معرفة ما لم يعرفه الفلكيون إلا منذ وقت قريب، وبعد الاستعانة بمعطيات التكنولوجيا الحديثة؟

يدّعي أفراد قبيلة الدوغون أن معلوماتهم مستمدة من زوار غرباء قدموا من كوكب قريب من النجم سيريوس، وعلموهم أسرار النجوم والكواكب، وأعطوهم عناصر حضارتهم الأساسية.

وفي عام ١٩٣١ قدم إلى سهل باندياغارا عالمان فرنسيان مرموقان هما مارسيل كريول وجيرمين ديترلن لإجراء دراسة حول قبيلة الدوغون. وكان في نيتهما قضاء بضعة سنوات لدراسة أصول حضارة تلك القبيلة، غير أنهما قضيا هناك ٢١ سنة. وقد لحظا منذ وصولهما عمق المعلومات التي يعرفها أفراد قبيلة الدوغون عن أسرار النجم سيريوس، والنجم غير المنظور سيريوس ب، وعن نجم ثالث لم نكتشفه حتى اليوم. ووجدا رسومات لرموز تلك النجوم على ثيابهم، وأدواتهم الفخارية، كما وجداها محفورة أو منقوشة على الخشب والجدران الطينية في معابدهم.

لقد احتاج مارسيل كريول إلى ١٥ سنة ليحوز على ثقة زعماء قبيلة الدوغون. عند ذلك سمحوا له بحضور احتفالاتهم الدينية السرية، وأطلعوه على العقيدة التي جاء بها الزائر الغريب من النجم سيريوس، وقد أطلقوا على ذلك الزائر اسم «النومو ـ The Nommo». وكان النومو ـ حسب قولهم ـ كائناً فضائياً غريباً معداً للحياة في الماء والبر (برمائي)، وقد جاء لنشر المدنية على الأرض، وبدأ فأعطى الدوغون أسس حضارتهم.

وبعد عشرين سنة من البحث في تاريخ الدوغون، نشر العالمان الفرنسيان نتيجة أبحاثهما في Journal of the Society of African Research، وكان عنوان البحث A Sudanese Sirius System. وقد أنهيا بحثهما بتعجبهما من كيفية معرفة كل تلك المعلومات الفلكية بدون أية أدوات للرصد أو آلات، «وتبقى معضلة مصادر معلوماتهم الفلكية من غير حل».

وعندما توفي مارسيل كريول في مالي عام ١٩٥٦، شيّع جثمانه نحـو ربع مليـون نسمة من أفراد قبيلة الدوغون. أما زميلته جيرمين ديترلن فقد غادرت إفريقيا ورجعت إلى باريس لتشغل منصباً علمياً رفيعاً. وفي عام ١٩٦٥ نشرت مقـالة حـول تجربتهـا الإفـريقية لفتت نـظر العالم الأمـيركي روبرت تمبـل الذي كـان مرجعـاً في الدراسـات الشرقية والسنسكريتية، فسافر إلى باريس لمقابلة ديترلن، ومن ثم اتجه إلى مـالي بهدف الكشف عن أسطورة الزوار القـادمين من الفضـاء. وقد اعـترف، فيها بعـد، بقولـه: «كنت في البداية أستقصي، وأنا نزّاع للشـك. وكنت أبحث عن أية خـدعة أو تـزوير لاعتقادي بعدم صحة الأمر. غير أني بدأت أكتشف في كل يوم أدلة ومعلومات سليمة مطابقة لأقوالهم».

لقـد شرح رجال القبيلة البـدائية لتمبـل كيف حط النـومـو بسفينتـه الفضـائيـة «آرك ـ ark» في الجزء الشمالي الشرقي من أرضهم، ووصفـوا له صـوت هبوط المـركبة الفضائية والغبار الذي أثارته لدى هبوطها. ووصفوا النـومو بـاعتباره «مـدبر الكـون، وحامي المبادىء الروحية، ومُنزِّل المطر وسيد الماء». وقد تحدث تمبـل عن ذلك كله في الكتاب الذي نشره في عام ١٩٧٦ بعنوان: «The Sirius Mystery».

ذكر تمبل في كتابه أيضاً ما أخبره به كهنة الدوغون حول ما يعرفـونه عن النـظام الشمسي، وعن «جفـاف» سطح القمـر، ورسموا لـه على الـرمل زحـل والهالـة الدائـريـة المحيطة به، وبيّنوا له حركة الكواكب حول الشمس، ودوران الأرض حول محورهـا. كما شرحوا له دورة كوكب الزهرة، ورسموا أمامه على الرمل مخططاً للمشترى والأقـمار الأربعة التي تدور حـوله. وقـالوا إن أسـلافهم عرفـوا هذه الأقـمار قبل أن يشـاهدهـا غاليليو بتلسكوبه. وحمل كاهن حبة قمح وقال إن سيريوس ب يشبهها، «غـير أن كل سكـان الأرض جميعاً لا يستـطيعون حملهـا». ووصف ذلك الكـاهن نجماً صغيـراً آخر بالقرب من سيريوس، غير سيريوس ب الثقيل، وهو أخف من الأخير بأربع مرات.

لقد أصابت معلومات الدوغـون الفلكية تمبـل وغيره من البحـاثة بـالحيرة. هـل استمـد هؤلاء معلومـاتهم من الاستعـمار الفـرنسي في مـطلع القـرن العشرين، أم من الجامعة الإسلامية التي ازدهرت في العاصمة تمبكتو خلال القرن السادس عشر؟.

إن تـاريخ قبيلة الـدوغون يشـير إلى أن هذه القبيلة سكنت في الأصـل ساحـل إفريقيا الشمالي بمحاذاة شواطىء الجزائر وليبيا ومصر. ولذا فهناك احتمال بأنها احتكت

بحضارات حوض البحر الأبيض المتوسط. ومعلوم أن تلك الحضارات غنية بالأساطير المتعلقة بكائنات برمائية غريبة. فالأساطير اليونانية القديمة أشارت إلى كائنات قطنت جزيرة رودس وكانت مغطاة بالحراشف، على هيئة نصف إنسان ـ نصف سمكة. وتحدثت الأساطير البابلية عن كائنات بشرية ـ سمكية علمت البابليين «كل ما من شأنه تلطيف الأخلاق وتهذيب السلوك وأنسنة البشر».

هذه الأساطير اليونانية والبابلية تتفق مع الأوصاف التي ذكرها كهنة الدوغون. والفرق الوحيد الذي يصر عليه أفراد الدوغون قولهم بأن الكائن البرمائي الذي علمهم علومهم الغامضة لم يأت من أعماق المحيط وإنما من الفضاء الخارجي. كما أن قبيلة الدوغون حددت المكان الذي قدم منه النومو، عندما ذكروا أن الزائر الغريب قدم من كوكب غير معروف يدور حول نجم صغير أحمر غير معروف أيضاً من مجموعة الأجرام المحيطة بالنجم سيريوس.

هل هي أسطورة خرافية؟ أم أن هناك نجماً خفياً يدور بصمت حول سيريوس؟ وهل ستكشف تلسكوباتنا الموجهة نحو مجموعة سيريوس هذا النجم الخفي وكوكبه المجهول خلال السنوات القليلة القادمة؟ وماذا سيكون رد فعل العلماء المتشككين حيال رجال قبيلة الدوغون الذين سوف يهزون عندئذ أكتافهم بلا مبالاة ويقولون: «لقد قلنا لكم ذلك!».

الوخـز بالأبـر

تعتـبر العمليات الجـراحية المعقـدة واحدة من التحـديات الكـبرى التي تـواجـه العلوم الـطبية الحـديثة. إذ عـلى الجراح أن يعـرف كل شيء عن عمـل كل عضـو في الجسم البشري قبل أن يلجأ إلى استخـدام مهارتـه في الشق والقص والاستئصال، أو في زراعة عضو من الأعضاء. ولعل الأخطر من ذلك كله عمـل طبيب التخديـر الذي يضـع المريض في حـالة بـين الحياة والمـوت. إذ عليه أن يعـطي المـريض قبـل إجـراء العمليـة جرعـة من المخـدر تجعله لا يحس بـالألم ولا بما يجـري له، وتبقي في الـوقت نفسه على استجابات جسمه الحيوية. والتخديـر لفترة طـويلة قد يلحق الضرر الجسيم ببعض أعضاء الجسم. لذلك نجد آلاف الجراحين يودون إجراء عملياتهم دون تخديـر مع الإبقاء على وعي المريض حتى يستجيب لتعليـماتهم من جهة، ولكي يستفيـدوا هم بدورهم من ملاحظاته واستجاباته.

الوخز بـالأبر يـوفر حـالات كهذه، عـلاوة على أثـره في شفاء كثـير من الحالات المرضية بدون جراحة. فمنذ قرون وممارسو الوخز بالأبر يعلنون عن قدراتهم على شفاء أمـراض خـطيرة، وعـلاج حـالات الإدمـان عـلى المخـدرات أو التـدخـين، وتخليص مرضاهم من الألم. كما ويجري بعض هؤلاء الأطبـاء عملياتهم الجـراحية بـدون تخديـر مستعينين بطريقة الوخز بالأبر لجعل مريضهم لا يحس بالألم أثناء العملية.

والوخز بالأبر، بالنسبة للطبيب المدرَّب على أن المرض له أسباب عضويـة، لغز محير. بيد أن الوخز بالأبر بالنسبة للطبيب الصيني القديم أو الحديث مجـرد أمر بسيط، يؤمِّن التوازن الحيوي لمظاهر الحياة داخل الجسم. ولقد عرف الإنسـان ممارسـة الوخـز بالأبر منذ ٥٠٠٠ سنة مضت. فقبل اكتشاف المعادن، استخدم الأطباء الصينيون إبـراً من الصوان والعظام والقصب. وكان اكتشاف مفعـول الوخـز بالأبـر صدفـة، عندمـا لاحظ الأطباء الصينيون أن جرحى الحرب المصابون بسهام الخيزران كانوا يشفـون من أمراض طالما عانوا منها قبل إصابتهم بتلك السهـام. وبدراسـة حالات عـديدة كتلك

تمكن الأطباء من تحديد «قنوات» تحت الجلد تكمن فيها القوى الحيوية التي تتحكم بصحة الجسد. وقد تم تدوين تلك الخبرات قبل نحو ١٥٠٠ سنة في كتاب بعنوان: «Yellow Emperor's Book of Internal Medicine».

يتكون الكتاب من ٣٤ مجلداً تشتمل على حوار مطول بين الإمبراطور هوانغتي وطبيبه الخاص تشاي باي حول خلاصة المعلومات المعروفة لأسباب الأمراض وعلاجها. وتفترض تلك المعلومات أن الصحة الجيدة تظهر في روح الحياة «تشي» التي هي عبارة عن توازن بين قوتين متكاملتين متضادتين هما «الين ـ Yin» و «اليانغ ـ Yang».

يقال إن الين هي قوة مائية أنثوية لطيفة داخل البدن، تقابل وتوازن قوة اليانغ الجافة الذكرية الخشنة. وما المرض، بالنسبة لفلسفة الصحة الصينية، سوى اختلال الاتزان بين هاتين القوتين. أما الروح تشي فتسري في جسم الإنسان خلال ١٢ زوج من القنوات الممتدة على جانبي الجسد، بحيث يرتبط كل زوج بعضو حيوي: القلب، والأمعاء الدقيقة، والمثانة، والكليتان، والحوصلة الصفراوية، والكبد، والرئتان، والقولون، والمعدة، والطحال، و «عضوان» غير معروفان في الطب الغربي، يضبطان الدورة الدموية وحرارة الجسم.

هذا، ويوجد على امتداد كل قناة عدد من نقاط الضغط، أو البوابات، التي تتحكم بجريان التشي، حيث يتم وخز الأبر. ذلك أن عملية الوخز قد تزيد تيار الين أو اليانغ لتحقيق التوازن بين القوتين، وبالتالي تحقيق الصحة والعافية. ولقد كان يعتقد بوجود ٣٦٥ نقطة ضغط (بعدد أيام السنة) في جميع القنوات، غير أنه تم حتى اليوم تحديد نحو ٢٠٠٠ نقطة. ونقاط الضغط هذه لا توجد علاقة بين موقعها وموضع الألم في الجسم. والطب الغربي لا يعترف بوجود مثل هذه النقاط.

تبين الرسوم والخرائط الصينية الشبكة المعقدة لنقاط الضغط على امتداد القنوات عبر خطوط غير منطقية تمر بالجهازين العضلي والعصبي في الجسم. فأمراض الكلية ـ مثلاً ـ ترتبط بنقاط في باطن القدم. واضطرابات القلب لها أكثر من ١٢ بوابة تمتد من الصدر إلى أطراف الأصابع. وفي بعض الحالات عندما تفشل الأبر في إحداث الشفاء يتم تزويد طرف الإبرة البعيدة عن الجلد بخلاصة أعشاب مشتعلة تساعد في سرعة الشفاء. بل وهناك طريقة حديثة تزود اليوم طرف الإبرة هذا بنبضات كهربائية خفيفة.



مدمنة تدخين تعالج بالوخز بالإبر

ولقد حاولت السلطات الطبية عبر العصور منع العلاج بوخز الإبر باعتبـاره طباً زائفـاً. وليس الشفاء الـذي ينتج عنـه سوى أمـر نفسي. بيد أن هؤلاء يتجـاهلون أن

الوخز بالأبر كان فعالاً في الطب البيطري مع الحيوانات أيضاً، حيث تم شفاء كلاب مصابة بالشلل - على سبيل المثال - عن طريق علاجها بوخز الأبر. كما أن الكتب القديمة أشارت إلى علاج الفيلة وشفاء أمراض العظام لدى الحيوانات عن طريق الوخز بالأبر.

لقد عرف الشرق الوخز بالأبر منذ قرون، غير أن أوروبا لم تعرفه إلا منذ ٣٠٠ سنة فقط عن طريق بعثة تبشيرية يسوعية، ولم يحظ بالاهتمام إلا منذ عام ١٩٣٩، عندما قام الدبلوماسي الفرنسي العالم جورج سولي دي موران بكتابة مرجع من خمسة مجلدات حول طرق الوخز بالأبر، فأحيا هذا النوع من الطب في أوروبا من جديد. واليوم يوجد في فرنسا وحدها أكثر من ١٥٠٠ طبيباً يحملون ترخيصاً باستخدام الوخز بالأبر في علاج مرضاهم. كما يوجد نحو ١٠ مستشفيات خاصة مجهزة بأقسام للعلاج بالوخز بالأبر.

أما في الصين نفسها، مهد العلاج باستخدام وخز الأبر، فقد تقلب حظ هذا النوع من العلاج بين القبول والرفض. ففي عام ١٨٢٢ أعلنت السلطات الصينية أن الوخز بالأبر عمل بربري دون العلاج بالأعشاب مرتبة، ومنعت مزاولته. بيد أن الوخز بالأبر ظل يمارس في المناطق النائية ثم عاد فازدهر ثانية في جميع أرجاء الصين. ثم تم منعه ثانية في عام ١٩٢٢ بعد فشله في إيقاف الطاعون الذي انتشر في منشوريا نتيجة تفشي التيفوس والدوسنطاريا.

لقد تم حظر الوخز بالأبر في عهد شيانج كاي شيك، والحكومة الشيوعية التي خلفته. غير أن الرئيس ماوتسي تونغ أعاد لطب الوخز بالأبر اعتباره، وسمح بممارسته إلى جانب الطب الغربي الحديث والجراحة.

وفي عام ١٩٥٩ أعلن الأطباء الصينيون أن بإمكانهم تخدير المريض بغرس إبرتين فقط في مكانين مختارين بدقة تحت الجلد قبل إجراء العمليات الجراحية الخطيرة، أو عمليات الولادة. واليوم يستخدم التخدير بوخز الأبر في نحو ١٠ بالمئة من حالات المرضى الذين يتعرضون لعمليات جراحية. وهؤلاء لا يفقدون وعيهم، ولا يتعرضون لجرعات التخدير الذي قد تفضي إلى الموت. كما أن بعضهم يمكن أن يشرب الماء أو يبلع كميات ضئيلة من الطعام بناء على رغبة الطبيب الجراح، وهم يحسون بالمشارط والملاقط وهي تعمل في أجسادهم، ولكن بدون أي شعور بالألم. كما

أن أطباء الأسنان الصينيين أخذوا يتحدثون عن إيقاف الألم بمجرد الضغط بأصابعهم على نقاط حيوية معينة.

هناك اليوم في الصين أكثر من ١٠٠ نوع من العمليات الجراحية المختلفة تُستخدم فيها طريقة الوخز بالأبر لمنع الإحساس بالألم. كما أن بين ١٥ و ٢٠ بالمئة من العمليات الجراحية جميعاً التي تجري في الصين يتم فيها التخدير عن طريق الوخز بالأبر. وقد ثبت نجاح هذه الطريقة بنسبة ٧٥ بالمئة من الحالات التي استخدمت فيها.

كما أن الوخز بالأبر يستخدم اليوم كذلك في علاج الحالات النفسية والاضطرابات العاطفية، وفي التغلب على الخوف والقلق وما شابه ذلك.

لقد أخذ الأوروبيون ينظرون اليوم إلى العلاج عن طريق الوخز بالأبر نظرة أكثر جدية، ويجرون البحوث للوصول إلى سر فعالية هذه الطريقة في منع الإحساس بالألم، وفي علاج كثير من الحالات المرضية.

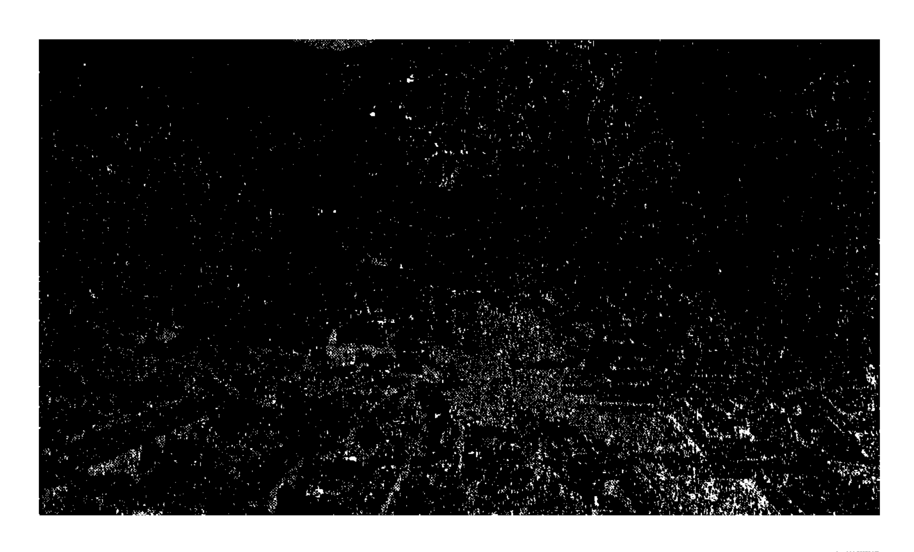
هنـود صحـراء النازكـا

شكّل سهل نازكا الواسع المـرتفع عـلى الساحـل الغربي لبـيرو عقبة أمـام خطط إنشاء طريق واسع يمتد عبر قارة أميركا الجنـوبية. وخـلال عمليات مسح واستكشاف أفضل السبل المتاحة لشق طريق دولي عبر ذلك السهل الصحـراوي الممتد الأطـراف، عثر المساحون على آثار مدهشة خلّفها هنود الأنكا القدماء الذين كانوا يتنقلون بطرقهم الخاصة عبر ذلك المجاز المتشابه المعالم.

كانت خطوط خرائط المساحين تتقاطع أحياناً مع «ممرات» الأنكا القديمة. لكنها كانت في أحيان أخرى تسير لمسـافات طـويلة بموازاة تلك الممـرات التي كانت تمتـد في خطوط مستقيمة تصل إلى أكثر من ٢٠ ميلاً. وكانت تلك الخطوط تمثل أقصر الـطرق بين قرى الأنكا ومعابدهم التي يرجع تاريخها إلى ٢٠٠٠ سنة مضت.

وفي عـام ١٩٢٧ تم الانتهاء من تخـطيط طـريق يمتـد من ليـما في الشـمال وحتى نازكا، ثم يمتد جنوباً نحو حدود تشيلي وبوليفيا. هيأت حكومة بيرو المعـدات اللازمـة لتنفيذ المشروع وكان من بـين تلك المعدات ثـلاث طائـرات استكشاف مستعملة مـع طيـاريها لتستكشف المسـاحة الـواقعة بـين المحيط الهادي وقمـة جبال الأنـديز بغـرض استكمال الخرائط التي يحتاجها المشروع.

طار المساح توربيو كسيسب على ارتفاع ٣ آلاف قدم فوق نجد نازكا الذي تبلغ مسـاحته ٢٠٠ ميـل مربـع، فشاهـد خطوط النـازكا القـديمة وصفـوفـاً من الجـلاميـد الصخرية التي سرعان ما تبين توربيـو مع الـطيار المرافق له أنها تمثـل صور حيـوانات عمـلاقة. كـان هناك شكـل للطائر الـذبـابي (الـطنّـان) يبلغ طـول جنـاحـه أكـثر من ٢٠٠ قـدماً. وكـانت هناك أشكـال على هيئـة حوت قـاتـل، وأسـماك، وحيـوانـات، وحشرات، وطيور، وعلى هيئة محاربين أشداء على رؤوسهم تيجان، عـلاوة على أكـثر من ١٠٠ شكل لولبي، ومثلثات، وخطوط مستقيمـة هائلة العـدد، وكلها بقيـاسـات ضخمة بصورة لا تصدق.



مدينة الإنكا.. اللغز والغموض

قبل اكتشاف توربيو التاريخي هذا. كانت صحراء نازكا مجرد مساحة مليئة بالرمال والصخور، غير أنها أصبحت بعد ذلك الكشف معرضاً ضخماً للفن ينبغي على مرتاديه أن يحلقوا عالياً في الجو حتى يستمتعوا بما يشاهدونه.

لقد ازدهرت حضارة الأنكا في عام ٢٠٠ قبل الميلاد، إبّان ازدهار الإمبراطورية الرومانية في العالم القديم. وقد كان للرومانيين طرق مواصلاتهم، بيد أن طرق مواصلات الأنكا كانت شيئاً آخر. بل، وحتى الخطوط المستقيمة كانت تبدو كمدرجات حديثة لهبوط الطائرات.

كان البروفسور بول كوسوك من جامعة لونغ آيلاند أول عالم اهتم بكشف أسرار آثار الأنكا في صحراء نازكا، وذلك بعد مرور ١٢ عاماً على اكتشافها. أخذ يلتقط الصور ويدرسها. وكان يقوم بعمله عند الصباح الباكر هرباً من لفح الصحراء المحرق. وفي ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ لحظ كوسوك بزوغ الشمس من خلف جبال الأنديز من لدن الطرف البعيد لأحد الخطوط الممتدة أمامه. وكان ذلك اليوم هو بداية فصل الشتاء في نصف الكرة الجنوبي. استنتج كوسوك بوضوح أن الخطوط المستقيمة العديدة كانت علامات تقويم ضخمة لتحديد الفصول ومواعيد الزراعة والحصاد وما إلى ذلك. بيد أن كوسوك توفي في عام ١٩٥٩ دون أن يقدم تفسيراً لوجود أشكال الحيوانات والآدميين الضخمة.

كان كوسوك قد استعان في أبحاثه المتأخرة بعالمة الآثار والفلك، الخبيرة الألمانية ماريا ريخ التي كانت تعمل مديرة مدرسة في عاصمة الأنكا القديمة، كوزكو، منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية. وكانت قد توصلت مع كوسوك إلى أن الخطوط المستقيمة لم تكن علامات للشمس والقمر فحسب، وإنما كانت تدل كذلك على موقع العديد من النجوم. ثم قالت ريخ بأن أشكال الحيوانات كانت مجرد أعمال فنية للزينة. ذلك أن علماء الآثار اكتشفوا حب الأنكا للزخرفة والفن عندما اكتشفوا بعض الأواني الذهبية والثياب المزخرفة علاوة على نماذج مصغرة للحيوانات التي رسموها مضخمة على الصخور.

لقد أقنعت تفسيرات كوسوك وماريا ريخ معظم المفكرين والعلماء، بيد أن الكاتب إريك فون دانيكن الذي حاز إعجاب ملايين القراء بكتابه «عربة الآلهة»، طلع علينا في السبعينيات بنظرية مفادها أن صحراء النازكا شهدت هبوط زوار غرباء قدموا من الفضاء وحطت مركباتهم الفضائية على تلك المدرجات المستقيمة. وقد أخذ البعض نظرية دانيكن على محمل الجد، فقام أحد الطيارين بالهبوط بنجاح فوق أحد «الممرات» المستقيمة على سبيل التجربة للتحقق من صحة نظرية دانيكن.

بعد ذلك جاء الأميركي جيم وودمان وزار صحراء النازكا ووجد قماشاً محاكاً، بشكل محكم وأفراناً فادعى أن الأنكا كانوا يملأوون بالونات من ذلك القماش بالهواء الساخن ويطيرون بها فوق صحرائهم للاستمتاع بمشاهدة ما صنعوه من أشكال فنية وزخارف. وقد قام وودمان بالفعل في عام ١٩٧٥، بالتعاون مع خبير المناطيد الإنكليزي جوليان نوت بصنع بالون من نسج الهنود المحليين وبصنع سلة من القصب علقاها بالبالون المملوء بالهواء الساخن وطارا فوق صحراء النازكا حيث استمتعا بمشاهدة تفاصيل المنظر الرائع تحتهما.

هل استطعنا أن نحل لغز ما وجدناه من آثار في صحراء النازكا؟ وهل تكمن الإجابة في مزيج معقد من كل النظريات المذكورة سابقاً؟ وهل كانت الأشكال الضخمة من الحيتان القاتلة، والعناكب، والمحاربين نوعاً من الإنذار للغزاة القادمين من الفضاء، يقول لهم: «هذا عمل أناس عمالقة. لا تقتربوا! الهبوط هنا فيه هلاككم!».

ربما نحصل، في يوم ما، على إجابة شافية وأكيدة لمثل هذه التساؤلات.

أسـرار نيقـولا تِسـلا

وصـل المخترع اليـوغسلافي الشـاب نيقولا تسـلا إلى نيويـورك في عام ١٨٨٤، وليس معـه سوى ٤ سنتـات، وبعض التقاريـر والأبحاث العلميـة. كـان في الثـامنـة والعشرين من العمر، وسرعان ما التحق بشركة إديسون التي صمم لها مولدات الطاقة المستخدمة في شـلالات نياغـارا. وفي غضون ثـلاث سنوات اخـترع لحساب الشركـة المذكورة ٢٤ نوعاً من المولدات الكهربائية المختلفة التي بيعت ببلايين الدولارات. بعد ذلك ترك الشركة وأخذ يعمل لحسابه الخاص بعـد أن أنشأ شركـة كهربـائية منـافسة لشركة إديسون. وقد حصل خلال السنة الأولى لافتتاح شركته على ٣٠ براءة اختراع.

جمع تسلا دخله من اختراعاته وانسحب في عام ١٨٩٩ إلى كولورادو سـبرنغز في جبال روكي لمتابعة أبحاثـه السرية هنـاك، حيث شيّد مختبـراً ضخماً ووضـع فوقـه قبة نحاسية قطرها ثـلاثة أقـدام. كما وضـع داخل المختبر ملفاً كهـربائيـاً دائري الشكـل لتزويد جهاز إرسال بالطاقة اللازمة. وكان يأمل في التوصل إلى بث موجات لاسلكيـة حول العالم. كما كان يخطط لاستثمار الطاقة الكامنة في الأرض نفسها.

ولّـد تسلا في البـداية طـاقـة من ملفـه تكفي لإضـاءة ٢٠٠ مصبـاح عـلى بعـد ٢٥ ميلاً. بعد ذلك ركز عـلى استثمار وتسخـير الطاقـة الكامنـة في الأرض، ونجح في جعل القبة النحاسية تصدر ألسنة من النار تمتد مئـات الأقدام في الهـواء. وقد صحب ذلك صدور أصوات قوية كأصوات الرعد، لقد نجح تسلا في توليد برق اصطناعي.

بعـدئذ أوقف تسـلا أبحاثـه هذه عنـد هذا الحـد، وانصرف ثانيـة إلى أبحـاثـه السريـة. وبعد نحـو ٣٠ سنة وصف تسـلا في عام ١٩٣٤ جهـازاً اخترعـه لبث ضوء الليـزر. ولم يتم تطويـر ذلك الجهـاز بشكل فعـال إلا في عام ١٩٦٠ بعـد وفـاة تسـلا بسنوات.

لقد توفي تسلا في أحد فنادق نيويـورك عام ١٩٤٣ معـدماً كـما بدأ. وقبـل نقل جثمانه للدفن اقتحم رجال وكالة الاستخبارات الأميركية (F.B.I.) غرفته المتـواضعة في



نيقولا تِسلا ـ لماذا صادرت الـ F.B.I. أوراقه؟

الفندق وصادروا أوراقه الخاصة وسجلات أبحاثه بداعي «الأمن القومي». لقد توصل تسلا إلى اختراع سلاح إشعاعي ذري يصلح أساساً للاستخدام في حرب النجوم المخيفة. كما أنه وضع أسس تدمير الصواريخ وهي في الفضاء قبل اختراع تلك الصواريخ بسبعين سنة.

وفي عام ١٩٧٧ عادت السلطات الكندية فأثارت مسألة اختراعات نيقولا تسلا السرية بعد ملاحظة حدوث عواصف كهربائية غامضة فوق المناطق القطبية، بل وفوق كندا نفسها. يومها شكّت السلطات الكندية بأن السوفييت يقومون بتجارب مماثلة لما قام به تسلا قبل أكثر من ٤٠ سنة. كما وأرجعت السلطات الكندية التغيرات التي طرأت على حالة الطقس إلى تجارب مماثلة لتجارب تسلا، حيث قال العالم الكندي أندرو ميتشروسكي محذراً بصراحة: «يبدو جلياً بالنسبة لي أن الروس يجرون تجارب مبنية على أفكار تسلا، بإمكانها أن تغير من حالة الطقس في العالم».

كما قال مدير العمليات في دائرة الاتصالات الكندية في أوتاوا وطسون و. سكوت: «قيل لي أن هذه محاولة لمتابعة أبحاث تسلا. فهل هذه التجارب هي المسؤولة عن الجفاف الكبير الذي حل ببريطانيا في عام ١٩٧٦؟ وهل هي وراء موجة الحرارة في غرينلاند، أو وراء الثلج الذي تساقط في ميامي مؤخراً؟!»

الفصل الثاني

محاكمات فاصلة

الجاسوس الذي هوى

كان من المقرر عقد مؤتمر قمة في أيار (مايو) ١٩٦٠ بين الرئيس الأميركي دوايت إيزنهاور ورئيس وزراء الاتحاد السوفياتي نكيتا خروتشيف، في العاصمة الفرنسية باريس. وكان هدف المؤتمر تخفيف حدة التوتر بين الدولتين الكبيرتين في حربهما الباردة التي كانت تهدد بشبح حرب نووية. كان العالم بأسره يتطلع إلى نجاح المؤتمر، غير أنه لم يُعقد بتاتاً. وكان السبب في عدم عقد المؤتمر إعلان السوفيات عن إسقاط طائرة تجسس من نوع يو تو (U-2) فوق الأراضي الروسية.

حاول الأميركيون تمويه الأمر والتنصل من الحادث، فأعلن المسؤولون الرسميون أنه ليس لديهم علم بمهمة أميركية كالتي أعلن عنها الاتحاد السوفياتي. ثم قالت واشنطن: أن الطائرة مخصصة لرصد حالة الطقس والأبحاث المناخية، وقد اخترقت الحدود السوفياتية عن غير قصد بتأثير الرياح وسوء الأحوال الجوية. بيد أن خروتشيف كان يملك معلومات خطيرة لم يعلن عنها بعد،تدين أميركا بالكذب. قال: بأن الطائرة كانت مزودة بكاميرات للتصوير من ارتفاعات شاهقة، وقد التقطت صوراً للمنشآت السوفياتية. كما أن الطيار غاري باورز البالغ من العمر ٣١ عاماً أسير لديه.

اضطر الرئيس ايزنهاور إلى الاعتراف صراحة بالحقيقة، وظهر نائبه نكسون على شاشة التلفزيون وأعلن أن مهمة الطيار التجسسية كانت ضمن سياسة الولايات المتحدة الأميركية ـ وسوف تستمر.

استغل خروتشيف الظرف، وطالب الرئيس ايزنهاور ـ إذا كان يريد عقد المؤتمر ـ بالاعتذار علناً عن الحادث أمام العالم، وبمعاقبة مستشاريه، والتعهد بعدم تكرار الحادث. ولما كانت الشروط مهينة للرئيس الأميركي فإنه لم يستجب لها. وهكذا انهار لقاء القمة.

كان الحادث نصراً أخلاقياً لخروتشيف سبّب الكثير من الإحراج للرئيس ايزنهاور. وقد توّج خروتشيف نصره ذاك بمحاكمة علنية للطيار الجاسوس غاري

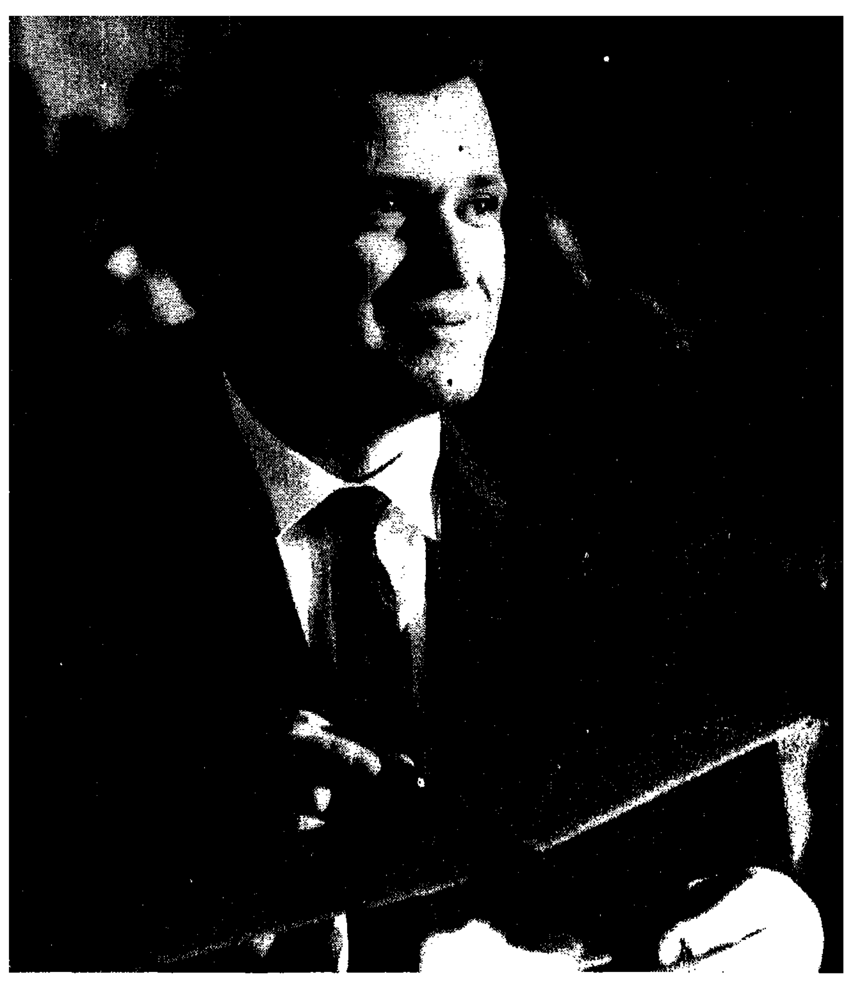
باورز، بدأت في موسكو يوم ١٧ آب (أغسطس) ١٩٦٠ أمام حشد كبير من شبكات التلفزيون ورجال الإعلام. ورغم أن المحاكمة تمت في روسيا فقد وفر السوفيات ترجمة فورية لوقائع الجلسات باللغات الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والأسبانية، ليحكم العالم على عظمة العدالة السوفياتية!.

لم تكن المحاكمة على غرار محاكمات عهد ستالين التي كان يتم فيها غسل دماغ المتهم وتلفيق التهم له، ذلك أن قضية فرانسيس غاري باورز كانت واضحة ولا تحتاج إلى مثل تلك الإجراءات. ولم يكن أمام باورز إلّا أن يروي قصته ببساطة.

قال باورز: إنه من ولاية كنتاكي، من عائلة فقيرة، تطوع للعمل في سلاح الجو عام ١٩٥٠. وبعد عامين قابله رجال المخابرات واتفقوا معه على طلعات للتجسس فوق حدود الاتحاد السوفياتي. أطلقوا عليه اسم بالمر، ودربوه في نيفادا على طائرة يوتو لمدة شهرين ونصف الشهر. وكانت تلك الطائرة آخر ما توصل إليه الأميركيون في عالم الطيران، إذ كان باستطاعتها الطيران على ارتفاع ٦٨ ألف قدم، وهو ارتفاع لم يكن العالم يحلم ببلوغه من قبل. وقد ظن الأميركيون أن لا أحد يستطيع إسقاط طائرة من ذلك العلو!.

طار باورز فوق الحدود التركية ـ السوفياتية مع فريق مكوّن من ٦ طيارين آخرين منذ عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦٠. ويوم إسقاط طائرته في ١ أيار (مايو) ١٩٦٠ كان مكلفاً بالطيران من بيشاور في باكستان إلى بودو في النروج عبر أراضي الاتحاد السوفياتي، على أن يشغل أجهزته وكاميرات التصوير في طائرته فوق مواقع محددة على الخريطة. وكانت تلك أول مرة يخترق فيها الحدود الروسية. قال باورز: أن الكولونيل شلتون الذي كلفه بالمهمة زوده بنقود سوفياتية وبعض القطع الذهبية، وقطعة فضية فيها دبوس مسمم. وقال: بأن الكولونيل أخبره بأن الروس لا يستطيعون إسقاط طائرته، ولكن إذا حدث وسقطت الطائرة فوق الأراضي السوفياتية فيمكنه استخدام النقود الروسية لرشوة الفلاحين. أما الدبوس المسمم فيمكنه استخدامه إذا تعرض للتعذيب الشديد.

انطلق باورز بطائرته في تمام الساعة الخامسة صباحاً، وبعد نصف ساعة كان يعبر الحدود السوفياتية. كان يطير على ارتفاع ٦٨ ألف قدم. وبعد أربع ساعات على إقلاع طائرته كان فوق سفير دلوفسك حيث تم إسقاط طائرته. «سمعت صوت



غاري كوبر ونموذج لطائرة التجسس U-2

انفجار خلفي. التفتّ فشاهدت كتلة برتقالية اللون من الضوء ورائي. كان أمامي ٧٠ ثانية لأدمر الطائرة وأقذف بنفسي خارجها». وما هي إلا لحظات وكان باورز يلامس بخوذته الهواء الشديد البرودة. هبط باورز بمظلته وسط مجموعة من القرويين الروس المشدوهين. وقد تم بعد ذلك التقاط أفلام، وكاميرات، وأجهزة إرسال وتسجيل، علاوة على جهاز لتفجير الطائرة لم يتمكن باورز من تشغيله، وذلك من بين حطام الطائرة وبقاياها.

كان باورز موفقاً في إجاباته أثناء المحاكمة. وفيما يلي عينة من تلك الإجابات:

المدعي العام: وجدت في طائرتك أجهزة تصوير. ما هي التعليمات المعطاة لك بخصوص ذلك؟

باورز: لم أتلق أية تعليمات خاصة. وكل ما كان عليّ فعله أن أضغط بعض الأزرار فوق أماكن معينة.

المدعي العام: لأية أغراض كنت ستضغط تلك الأزرار؟

باورز: لقد تم إرشادي إلى كيفية ضغط الأزرار فوق مواقع محددة على الخريطة، ولم أكن أعرف لأية أغراض.

المدعي العام: ولكن، لعلك تعرف الغرض؟

باورز: أستطيع أن أخمن الغرض. ولكن إذا توخيت الدقة، فإني أقول لا أعرف.

المدعي العام: كان يمكن أن تضغط زراً بكل بساطة إذن لإسقاط قنبلة ذرية؟

باورز: يمكن. غير أن هذا النوع من الطائرات ليس مخصصاً لحمل وإسقاط قنابل كهذه.

وعندما سؤل باورز عن المسدس الذي كان بحوزته، أجاب: بأنه كان للدفاع عن النفس ضد الوحوش إذا سقط في مكان قفر. ولكن المدعي العام رد عليه قائلاً: «إنه لقتل المواطنين السوفيات، لأنه مجهز بكاتم للصوت». أما الدبوس المسمم فقد تم فحصه واختباره، وقد شهد الخبير بما يلي:

«لقد تم تجربة الدبوس في كلب، فارتمى على جانبه بعد دقيقة من وخزه بالدبوس. وبعد ٩٠ ثانية توقف تنفسه. أما توقف القلب عن الخفقان وموت الكلب فقد حدث بعد ثلاث دقائق».

كان المدعي العام في هذه القضية، رومان رودنكو، الذي شارك في محاكمات نورمبيرغ. وقد وصف باورز في نهاية المحاكمة بأنه جاسوس غير عادي، «فهو مجرم تم تدريبه بدقة»، وكان يمكن أن يسقط قنبلة ذرية فوق الاتحاد السوفياتي بكل برودة أعصاب. كان يحمل مسدساً لاغتيال المواطنين السوفيات، ويحمل دبوساً مسمماً للانتحار. ومع ذلك فلم يطلب له الإعدام، وإنما حكماً بالسجن لمدة ١٥ سنة على سبيل الإنذار.

أما الدفاع عن باورز فقد تولاه المحامي ميخائيل غرينيف الذي لم يكن يدافع عن باورز بقدر ما كان يحوّل التهم إلى الولايات المتحدة الأميركية وسياستها العدوانية. قال بأن باورز مجرد مخلب في مؤامرة واشنطن الخسيسة، وأن الذين يجب محاكمتهم هم المسؤولون العسكريون الأميركيون، وألن دالاس رئيس وكالة الاستخبارات المركزية (CIA). كما أشار إلى البطالة المتفشية في أميركا. ثم طلب الرحمة لموكله لتقديم الدليل على إنسانية العدالة السوفياتية.

وهكذا تم الحكم على غاري باورز بالسجن لمدة عشر سنوات لم يقضِ منها في الاتحاد السوفياتي سوى سنتين، حيث تم الإفراج عنه مقابل إفراج الولايات المتحدة عن الجاسوس السوفياتي المهم، رودلف أبل.

لقد شغلت حادثة إسقاط طائرة التجسس U-2 العالم فترة ليست قصيرة، وكشفت أموراً كثيرة. فقد أظهرت أن رئيس الولايات المتحدة الأميركية قد يكذب. وكان الناس يعتقدون، بتأثير الدعاية الغربية، أن التجسس رذيلة روسية، فتبين لهم أن الغرب يمارسها كذلك. كما أن الغرب كان يعتقد أن الروس لا يملكون صواريخ بإمكانها إسقاط طائرة من ارتفاع ٦٨ ألف قدم، فتبين لهم خطأ ما كانوا يعتقدونه. ولعل الأهم من ذلك كله اكتشاف الأميركيين والغربيين أن زعماءهم يقولون شيئاً ويفعلون شيئاً آخر، وأن الحرب الباردة لم تكن بين قوى الخير وقوى الشر. ومنذ ذلك اليوم سادت العالم واقعية جديدة في الشؤون الدولية، تمثلت في إجابة الناطق الصحفي باسم البيت الأبيض، جيمس هاغرتي، عندما سؤل أمام عدسات التلفزيون: ما الدروس التي تعلمتها الولايات المتحدة من كارثة إسقاط الطائرة U-2؟

يومها قال: «أن تتجنب القبض عليك».

نهاية بطــل

كــان السير والـتر رالي علماً من أعلام إنكلترا في عصر الملكـة إليـزابيث. عمـل جندياً محارباً، وقرصاناً، وشاعراً، ومستكشفاً. ولـد عام ١٥٥٤ ولعب دوراً بـارزاً في هزيمة الأرمادا، وقاد بعثة الاستكشاف التي أنشأت مستعمرة فرجينيا. وهـو الذي عـاد من العالم الجديـد يحمل إلى إنكلترا وكـل أوروبا نبـاتات البـطاطا والتبـغ. كما أنـه قاد عمليـة نهب الأسطول الإسبـاني المحمل بـالكنوز في قـادس. ولكن كل هـذه الأعـمال والخدمات لم تشفع للسير والتر لدى العرش البريطاني. ففي عام ١٦٠٣، عندما اعتـلى جيمس الأول العرش، اتهم السير والتر رالي بالخيانة العظمى.

لقد قام صـديق السير رالي، اللورد كـوبهام بتـدبير مؤامـرة على الملك جيمس، واستغـل عدوه في البـلاط السـير روبـرت سيسيـل تلك الصـداقـة فـاتهم السـير رالي بالمشاركة في المؤامرة. وكان اللورد كوبهـام يجاهـر بعدائـه للملك جيمس، وقد اتصـل بالسفير الإسباني وتباحث معه في توقيع معاهدة سلام إن هو نجح بتنحية الملك ووضع عمته أرابيلا ستيوارت مكانه على العرش.

ولمـا سؤل السـير رالي عن دوره في المؤامـرة قـال: بـأن صـديقـه عـرض عليــه ١٠ آلاف كراون ليساعده في تحقيق السلام مـع إسبانيـا، لكنه رفض العـرض واعتبره واحداً من أعمال كوبهام الغبية. وذهـب روبرت سيسيل إلى كوبهام وواجهـه بما يقولـه صديقه رالي، فرد الأخير، بعد أن اتضحت خيانة رالي له، بـأن السير والـتر كان هـو المخطط الحقيقي لكل شيء.

وبرغم أن التهمة لم تكن صحيحـة، تم إرسال السـير رالي إلى السجن. وهناك كتب رسالة إلى صديقه القديم كوبهام، الذي كان مسجوناً في حجرة مجاورة، مع أحد الحراس يطلب منه فيها أن يقول الحقيقة. وقد استجاب كوبهام لطلب صديقه وأرسل إليه رسالة يعترف فيها ببراءة السير والتر. فرح رالي بـالرسـالة واحتفظ بهـا لإظهارهـا أثناء المحاكمة.

بـدأت محاكمـة السير والـتر في ١٧ تشرين الثاني (نـوفمبر) ١٦٠٣ وسط أجـواء عدائية صورت السير رالي باعتباره خائناً. وقد تشكلت هيئة المحكمة من أربعة قضاة كان أحدهم عدوه اللدود روبرت سيسيـل. وعندما ووجه بتهمـة الاشتراك في المؤامـرة وذكرت بعض الأدلة قال السير والتر: «أثبتوا أمراً واحداً مما تقولونه». غـير أن المدعي العام أجابه: «لا. بل سنثبت كل الأدلة أيها المنحرف البشع. إن لك وجه إنكليزي، بيد أن قلبك إسباني». وهكذا انقلب البطل الذي جُرح أثناء الحرب مع الإسبـان إلى خائن موال للإسبان! لقد كان الشاهد الوحيد ضده أقوال كوبهام. وعندما طلب السير رالي مواجهته بكوبهام رُفض طلبه.

دافع السير رالي عن نفسه دفاعاً مشرفاً، وظل محتفظاً بعـزة نفسه. وعنـدما أراد أن يلعب ورقته الأخيرة ـ رسالة كوبهام ـ وجـد المحكمة قـد سبقته إلى الشـاهد الـذي عاد وغيّر أقواله، مجدداً الاتهام للسير رالي بأنه عميل للإسبان! لقد أنكر رالي التهمـة، بيد أن المحلفين لم يستغرقوا سوى ربع ساعة ليحكمـوا عليه بتهمـة الخيانـة العظمى. وكان نص الحكم الذي صدر عليه من أقسى الأحكام وأغربها:

«سـوف تعـرض في الشـوارع من هنـا إلى المكـان الـذي أتيت منـه (السجن)، وستظل هناك إلى حـين تنفيذ الحكم فيـك. حيث سيتم تقطيعـك حياً وإخـراج قلبك وبقيـة أعضائـك وطـرحهـا في النـار أمـام عينيـك، ثم فصـل رأسـك عن جسـدك. فليرأف الله بروحك».

قال أحد القضاة الذين حاكموا السير والتر، وهو على فراش الموت: «لم تتعرض العدالة الإنكليزية للخزي والعار مثلما تعرضت له يوم محاكمـة السير والـتر رالي». كما أن الجمهور تعاطف مع السير والـتر مما جعـل الملك جيمس الأول يؤجل تنفيـذ حكم الإعدام بالبطل السابق.

في ١٠ كـانون أول (ديسمـبر) سيق كوبهـام وبعض من معـه من المتـآمـرين إلى ساحة الإعدام. وقد أمر السير والتر بمشاهدتهم من نافذة زنزانتـه، وقيل لـه أن الدور عليه الآن. وقبيل تنفيذ الإعدام شنقاً، وأثناء تلاوة المتهمين لصلواتهم صدر فجأة عفو عـام عنهم وتحولت عقـوبتهم إلى السجن المؤبد. أمـا السير والـتر فقد تـركوه يتعـذب بعض الوقت قبل تبليغه بتخفيف الحكم الصادر بحقه.

قضى السير والتر رالي ١٣ سنة في السجن، كتب خلالها كتابـه «تاريخ العالم».

ولم يفقد الأمل يوماً خلال تلك الفترة بنيل حريته، وتوصل أخيراً إلى قلب الملك. توجه إلى جوانب الجشع والبخل وحب اكتناز الأموال في شخصية الملك جيمس، فتعهد إن هو أفرج عنه بتجهيز حملة على نفقته الخاصة لاستكشاف منطقة نهر أرينوكو التي يعتقد بوجود مناجم الذهب فيها. وعندها سوف يقدم له كل ما يجده من ثروات هناك.

وفي آذار (مارس) ١٦١٦ وافق الملك على الاقتراح، وأفرج عن السير رالي بدون أن يسامحه أو يعلن العفو عنه. كان السير والتر قد بلغ حينذاك ٦٤ عاماً، وكان يشكو من الأمراض، غير أنه تمكن بمساعدة أصدقائه من تجهيز أسطول صغير اتجه به نحو غوايانا. لقد كانت الحملة مأساوية بكل معنى الكلمة: لم يجد المنجم الذي كان يحلم بالعثور عليه، وفقد ابنه في قتال مع الإسبان، وتعرض للحمى وتمرد البحارة عليه. وهكذا رجع إلى ميناء بلايموث بسفينة واحدة ـ ليواجه غضب الملك ونقمته.

كان ينبغي قتله، ولكن بأية حجة؟ لقد أحيى الملك جيمس حكم الإعدام السابق الصادر بحقه من المحكمة، وأرسله في ٢٩ تشرين أول (أكتوبر) ١٦١٨ إلى المقصلة.

وقف السير رالي أمام الجلاد بكل وقار ونبل، فحيّاه وطلب منه أن يسمح له بتفحص الفأس، التي أمسكها وأجرى إصبعه على حدها قائلاً: «هذا دواء ناجع يصلح بالتأكيد لشفاء كل الأمراض». ثم طلب من الجلاد بكل شجاعة أن لا يغمض عينيه، وأن يضرب عنقه عندما يضع رأسه على خشبة المقصلة ويبسط يديه. ولّما تأثر الجلاد بشجاعته وتأخر في ضرب عنقه عاد فبسط ذراعيه ثانية وقال: «ماذا تخشى؟ اضرب يا رجل، اضرب!».

سقطت الفأس على عنقه مرتين لتنهي حياة أشجع بطل عرفه عصر الملكة إليزابيث الأولى. وقد عجب الناس من كمية الدم التي تدفقت من عنق العجوز المسن.

خيانة عظمى وبارود

عند منتصف ليل ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٦٠٥ توجهت ثلّة من الجنود إلى الأقبية الموجودة أسفل مجلس اللوردات في وستمينستر وألقت القبض على المتآمر غوي فوكس ومعه ٣٦ برميلاً من البارود مخبوءة تحت كتل من الفحم والحطب. وكان مع تلك البراميل كمية كبيرة من الصخور وقضبان الحديد لتزيد من القوة التدميرية للانفجار. وكانت المؤامرة تهدف إلى نسف البرلمان وكل من بداخله أثناء إلقاء الملك جيمس خطابه هناك.

شكر الملك العناية الإلهية التي أنقذته، وشارك بنفسه في استجواب فوكس الذي اعترف بعد التعذيب الشديد وأدلى باسم رأس المؤامرة: روبرت كاتسبي، وأسماء مجموعة من المتشددين الكاثوليك الذين كانوا يسعون للإطاحة بالملك جيمس وإعادة بريطانيا للكنيسة الكاثوليكية. كان فوكس جندياً مدرباً على استخدام المتفجرات، في الخامسة والثلاثين من عمره. وكان المتآمرون يخططون لاستئجار منزل ملاصق لمجلس اللوردات يحفرون منه نفقاً إلى أسفل المجلس حيث يضعون المتفجرات. وبعد أسابيع من التداول حول الأمر اكتشفوا أن هناك عدة أقبية مؤجرة للعموم تحت مبنى البرلمان، فاستأجروا أحد تلك الأقبية وبدأوا يعدون العدة لتنفيذ مؤامرتهم.

بعد استئجار القبو، نقل المتآمرون براميل البارود إليه بكل سهولة ويسر أثناء الليل وغطوها بالحطب. وكان من المفترض أن يشعلها فوكس في الوقت المناسب ويهرب مغادراً إنكلترا عن طريق البحر. وفي تلك الأثناء يقوم المتآمرون بخطف أبناء العائلة المالكة، وإشعال ثورة في البلاد تنتهي بتحقيق مآربهم.

غير أنه، لسوء حظ المتآمرين، قام أحدهم بتوجيه رسالة إلى اللورد الكاثوليكي، مونتيجل يحذره فيها من الذهاب إلى مجلس اللوردات يوم خطبة العرش «لأن البرلمان سوف يتلقى ضربة رهيبة». لم يرد في الرسالة ذكر لأسماء ولا لأية

تفصيلات أخرى. ومع ذلك عزف الملك بأن هناك مؤامرة تحاك ضده وأمر ببدء التحقيق وإجراء التحريات حول حقيقة الأمر.

قام اللورد تشامبرلين بجولة تفقدية صباح يوم ٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، زار خلالها مبنى البرلمان والأقبية أسفله. وشاهد فوكس مع أكداسه من الفحم والحطب، وسأله عن صاحب تلك الأكداس فأجابه فوكس بأنها لسيده توماس بيرسي، الذي كان في حقيقة الأمر أحد المتآمرين. ولقد أحس فوكس بأن السلطات تشك في أمر ما، فأنذر رفاقه. هرب بعض رجال المؤامرة إلى الأرياف. أما فوكس فقد رجع إلى القبو بناء على التعليمات مثل أي جندي مطيع. وهناك تم القبض عليه، دون أن يُفاجأ بذلك.

تم إحضار غوي فوكس أمام الملك للتحقيق معه، ومن هناك تم إرساله إلى السجن. حاول فوكس في بداية التحقيق عدم البوح بأي اسم، وأنكر التهم الموجهة إليه. ولكنه، بعد التعذيب الشديد، اعترف بكل شيء. بعد ذلك تم قتل بعض المشاركين في المؤامرة أثناء مقاومتهم للاعتقال، وأُلقي القبض على الباقين.

وفي ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٦٠٦ مثل فوكس وستة من رفاقه أمام هيئة المحكمة. كانت المحاكمة مناسبة لتمجيد الملك والتنديد بأعدائه أكثر مما كانت لاستجواب المتهمين والتحقيق معهم. وقد طغت على أجواء المحاكمة البلاغة والخطابة. ومن يراجع سجلات المحكمة لا يعثر على اسم فوكس إلا في موضع واحد عندما سأله القاضي لماذا اعترف بأنه مذنب بعد أن كان يصر على أنه غير مذنب! .

صدر الحكم على المتهمين بالسحل في الشوارع، وبالإعدام شنقاً، وبتقطيع جسد كل منهم إلى أربع قطع. وقد تم ذلك فعلاً في ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٦٠٦ بثلاثة من المتهمين هم توماس ونتر، وأمبروز روكوود، وروبرت كايز أمام عيني فوكس الذي ترك للآخر حتى يشهد العذاب الذي يقاسيه كل من رفاقه. وعندما جاء دوره كان فوكس لا يستطيع صعود السلم إلى المنصة بسبب المرض، والتعذيب الذي لقيه أثناء التحقيق قبل مثوله أمام المحكمة. لقد تحولت القسوة في تنفيذ الأحكام إلى وحشية ما بعدها وحشية.

ملك ينبغي أن يموت

عندما حُكم على الملك تشارلز الأول بالإعدام، رفض الجلاد العام في إنكلترا قطع رأسه. إذ لم يكن أحد يود أن يسجل التاريخ أنه الجلاد الذي قطع رأس الملك لأول مرة في تاريخ إنكلترا. ولذلك عندما صعد الملك إلى منصة الإعدام في صباح يوم ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٦٤٩، جيء له بجلاد يلبس قناعاً على وجهه ويضع لحية زائفة وشعراً مستعاراً.

لم يكن هدف المحاكمة سماع أقوال الملك، وإنما لإعلان الحكم عليه بالإعدام. كان ينبغي موت الملك، لأن بقاءه حياً سوف يثير القلاقل وربما أشعل الحرب الأهلية ثانية. لقد كان وجود الملك تشارلز محرجاً لحكام إنكلترا الجدد، ولذا كان لا بد له من أن يختفي. ولكن كيف؟ هل يتم قتله غيلة أم بالسم؟ لقد توصل كرومويل ومؤيدوه إلى حل آخر تمثل في عقد محاكمة علنية للملك «تعلّم كل الملوك بأنهم عرضة للعقاب إن هم أساءوا لشعوبهم وظلموا».

وهكذا سيق الملك إلى قاعة المحكمة ليقف أمام هيئة مكونة من ١٣٥ عضواً لم يحضر منهم، بسبب الجبن، سوى النصف. لقد كانت المحاكمة أول حدث من نوعه في التاريخ، وكان ينبغي مشاركة أكبر عدد ممكن من المسؤولين والقضاة في تحمل مسؤولية إعدام الملك الذي كان مقرراً سلفاً.

كان رئيس هيئة المحكمة المحامي جون برادشو الذي وضع على رأسه خوذة ضد الرصاص. وكانت قاعة المحكمة غاصة بالجنود بحيث تعذر على الكثيرين دخول القاعة من الأبواب التي ظلت مفتوحة طوال الوقت للجمهور. وفي الوقت المحدد دخل الملك القاعة بكامل زيه الرسمي، وجلس على الكرسي المخصصة له. وقد رفض خلع قبعته دلالة على عدم احترامه لهيئة المحكمة وشرعيتها.

بعد الحيثيات، وجّه المدعي العام، السيد كوك، الاتهام للملك بالخيانة العظمى، وبتحوله إلى طاغية يقف ضد إرادة الشعب والبرلمان. استمع الملك إلى

التهم الموجهة إليه بصمت، غير أنه ضحك بصوت مرتفع عندما ذكر المدعي العام أنه «طاغية وقاتل». بعد ذلك طلب منه الرئيس أن يرد على التهم الموجهة إليه، غير أن الملك أجاب: «أود أن أعرف أولاً ما هي السلطة التي تملك أن تحضرني إلى هنا، وبعد ذلك أرد». قال الرئيس برادشو له: «أنت تحاكم هنا باسم الشعب الذي انتخبك ملكاً». فرد عليه الملك: «إنكلترا لم تعرف الانتخابات طوال تاريخها، وهي مملكة يتم توارث العرش فيها منذ أكثر من ألف عام. ولذا أود أن أعرف بأي حق أحاكم هنا؟» وهنا رفع الرئيس الجلسة.

وعند استئناف المحاكمة في اليوم التالي رفض الملك بعناد الرد على التهم الموجهة إليه وظل يصر على القول بأن المحكمة لا تملك حق محاكمته. وعند ذلك أعلن الرئيس أن الملك يتحدى هيئة المحكمة، ونادى على الشهود لسماع أقوالهم. وقد تقدم للشهادة ضد الملك أكثر من ٢٤ برلمانياً شهدوا أن الملك أمر بإعلان الحرب على الشعب، بل وشارك بنفسه في محاربة الشعب. وشهد البعض أنهم رأوا الملك فوق صهوة جواده والسيف في يده ـ وهذه التهمة شبيهة بجريمة الحرب في أيامنا هذه.

وهكذا صدر الحكم على الملك بالإعدام لأنه السبب في الخراب والدمار والحرائق والقتل الذي شهدته إنكلترا إبان الحرب الأهلية. «لكل هذا تحكم المحكمة على المدعو تشارلز ستيوارت بالموت عن طريق فصل رأسه عن جسده». وبعد صدور الحكم طلب الملك الكلام، ولكن برادشو رفض طلبه وأمر الحراس بإخراجه من القاعة. وقد غادر الملك القاعة وسط بصاق الجنود وهتافاتهم المهينة والساخرة ضده.

وبعد يومين على انتهاء المحاكمة سُمح للملك برؤية أولاده الصغار. وفي ٢٩ كانون الثاني (يناير) صادق كروميل ومعه ٦٨ آخرين على الحكم الذي تم تنفيذه في صباح اليوم التالي علناً أمام الجمهور. وقد طلب الملك في ذلك الصباح ملابس تقيه البرد حتى لا يراه الناس يرتجف فيظنون أن ذلك بفعل الخوف، كما قال. وعلى منصة الإعدام شرح باختصار إنجازاته، ومبادىء نظام الحكم في إنكلترا، وختم حديثه بالقول: «لم أكن أعرف أن سعادة الناس تكمن في عملية مشاركتهم في الحكم. فهناك فرق واضح بين الرعية والملك».

لقد تم قطع رأس الملك بضربة واحدة. ثم رُفع الرأس عالياً ليراه الجميع. بعد ذلك صعد الجمهور إلى المنصة ليغمس كل فرد متعطش للدم منديله في دم الملك للذكرى!

النفـي إلـى جزيـرة الشيطـان

رشا الفرنسيون خادمات التنظيف النهاريات اللواتي يـدخلن السفارة الألمـانية في باريس لتزويدهم بأية أوراق أو رسائل مهملة يجدونها في سـلال المهملات. وفي أيلول (سبتمـبر) ١٨٩٤ أصبحت السيدة العجـوز باستـين أشهر خـادمـة من هـذا النـوع في التاريخ بعـد عثورهـا على رسـالة شقت فـرنسا إلى نصفـين وكادت تتسبب في انـدلاع حرب أهلية. لقد عثرت على مذكرة يعرض فيها صاحبهـا قائمـة من خمسة بنـود حول معلومات حربية عن فرنسا كان الكاتب مستعد لتزويد الألمان بها.

لم تكن المذكرة موقعة، كما أن المعلومات المعروضة على الألمان لم تكن ذات قيمة مهمـة. ولكنها كـانت تشير إلى وجـود ضابط فـرنسي خائن يتعـامل مـع عدوة فـرنسا اللدودة. وكـان لا بد من العثـور على متهم، فـاتجهت الشكوك إلى الضـابط اليهـودي الوحيد في الجيش الفرنسي، النقيب ألفرد دريفوس.

كان دريفوس ابن أسرة ثرية، وكـانت يهوديتـه المبرر الـوحيد للشـك في ولائه. جعلوه يكتب كلمات مشابهة لتلك الواردة في المذكرة، وقارنوا بين الخطين، ولما وجـدوا بعض التشابه في كتابة بعض الحروف والكلمات، تم إلقاء القبض عليـه، وتقديمـه إلى المحاكمة.

نفى خبير الخطوط الذي يعمل في بنـك فرنسـا، السيد جـوبير، وجـود أي شبه بين خط دريفوس وخط كاتب المذكرة. لكن المحكمة لم تقتنع بهذه الشهادة فاستدعت خبيراً آخراً (لم يكن موثوقاً) أكد وجـود التشابـه. وكان ذلـك الخبير معـاد لليهود. ثم جيء بشاهد أفاد بأن «شخصاً مرموقاً» أخـبره أن دريفوس كـان خائنـاً لفرنسـا. وأفاد شاهد آخر أن دريفوس عندما وُجهت إليه التهمة «شحب لونه».

بمثل هذه الأدلة أُدين دريفوس وحكم عليه بالسجن المؤبـد وبتجريـده من رتبته العسكـرية. وفعـلاً تم في ٤ كانـون الثـاني (ينـايـر) ١٨٩٥ تجـريـد السجين من رتبتـه العسكرية في عرض مهين أمام زملائه. بعد ذلـك انتزّع سيفـه منه وتم كسره وطـرحه

أرضاً بين سخرية زملائه وهتافهم ضده. وكان دريفوس يصرخ أثناء ذلك كله مردداً: «إنّي بريء».

تم إرسال دريفوس إلى جزيرة الشيطان المزعجة في مستعمرة غويانا الفرنسية، لقضاء بقية عمره هناك. وقال البعض في فرنسا إنه محظوظ لأنه نجا من عقوبة الإعدام. وكان من الممكن أن تنتهي الأمور عند هذا الحد لولا احتجاجات عائلته، وتدخل الكولونيل جورج بيكار في القضية.

كان بيكار على رأس جهاز كشف الجواسيس، وقد لاحظ أن عمليات التجسس لصالح الألمان لم تتوقف بنفي دريفوس. وذات يوم وقعت بين يديه رسالة تم العثور عليها في نفايات السفارة الألمانية كان خطها مشابهاً لخط المذكرة التي اتهم دريفوس بكتابتها، وبالتحقيق تم التوصل إلى اتهام الضابط استرهازي بكتابة الرسالتين.

رفع بيكار الأمر إلى رؤسائه، غير أنهم ـ لدهشته ـ لم يهتموا بالأمر. قال له الجنرال غونز: «وماذا يعنيك إذا وضعنا يهودياً في جزيرة الشيطان؟»

ـ ولكنه بريء...

ـ إذا أنت لم تتكلم، فلا أحد يعرف بما تقوله.

بيد أن بيكار رفض الصمت، ولذلك تم نقله في أواخر عام ١٨٩٦ إلى تونس حيث كان القتال مستعراً، على أمل أن يلقى حتفه هناك. لكن بيكار لم يمت في شمال أفريقيا. كما أن عائلة دريفوس ظلت تطالب بإعادة محاكمة ابنها البريء، بعد ثبوت التهمة على استرهازي. وفجأة نشرت «الفيغارو» في ذلك الوقت رسائل لإسترهازي يعبر فيها عن كراهيته للجيش الفرنسي.

في مطلع عام ١٨٩٨ تم توجيه تهمة الخيانة إلى الضابط إسترهازي، وأُعيد بيكار إلى باريس تحت تأثير ضغط الرأي العام في فرنسا. وفي هذا الوقت كتب الروائي المشهور إميل زولا مقالة مدوية في الصفحة الأولى من صحيفة «L'Aurore» بعنوان: «إني أتهم!»، اتهم فيها الحكومة الفرنسية وكل من شارك في محاكمة دريفوس بعدم توخي العدالة. ونتيجة لذلك تم القبض على زولا ومحاكمته بتهمة الطعن والتشهير، وحكم عليه بالسجن لمدة سنة. ولما فشل في تخفيف الحكم، هرب عبر القنال إلى إنكلترا ليتابع حملته من هناك.



الكابتن ألفرد دريفوس

في هـذا الوقت أصبحت كـل فرنسـا مشغـولـة بقضيـة دريفـوس، وقـد انقسم الشعب الفـرنسي إلى قسمـين: قسم يؤيـد دريفـوس ويتمثـل في الجمهـوريـين، والـبروتستـانت والمـاسـونيـين، واليهـود. وقسم ضـد دريفـوس ويتمثـل في الجيش، والملكيين، والكاثوليك واللاساميين. بل وانقسمت العائلة الواحدة في فرنسا بين مؤيد ومعارض. وخير مثال على ذلك الروائي اليهـودي مارسيـل بروست الـذي كان يؤيـد براءة دريفوس، بينما كان والده الطبيب المشهور ضد دريفـوس، ربما بسبب صـداقاتـه الشخصية مع بعض الوزراء في الحكومة الفرنسية.

وهكذا أُعيد دريفوس بعد أربع سنوات قضاها في جـزيرة الشيـطان إلى باريس في حزيران (يونيو) ١٨٩٩ ليواجه إجـراءات إعادة محـاكمته. وقـد بدا دريفـوس أثناء المحاكمة بشعره الأبيض رجلاً محطماً. كما تمت في ذلـك الوقت محـاولة لاغتيـال محامي الـدفـاع، السيـد لابـوري. وتعلقت أنـظار الشعب الفـرنسي بـانتـظار حكم هيئـة المحكمة المؤلفة من ٧ قضاة. وعندما صدر الحكم الجديد قررت الأغلبية (٥ أصوات) إدانـة دريفوس «مع ظروف مخففـة»، وصـدر الحكم عليـه هـذه المـرة بـالسجن لمـدة ١٠ سنوات.

لقـد راعى الحكم عـدم تـوجيـه ضربـة تمس كـرامـة الجيش. وإلا فكيف يتم التوفيق بين «الظروف المخففة» والإدانة بالخيـانة؟! ولـذلك أصـدر الرئيس «Loubet» بعـد ١٠ أيـام عـلى صـدور الحكم عفـواً عـامـاً عن دريفـوس، وذلـك في ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٩.

وبرغم أن العفو أثار بدوره جدلاً لأنه لا ينـطوي على بـراءة دريفوس من التهم المـوجهة إليـه، فإن دريفـوس رضي بالعفـو شرط أن يعاد إلى الجيش ليثبت إخـلاصـه وحبـه لفرنسـا. وبالفعـل أُعيد دريفـوس إلى الجيش وشارك في الحـرب العالميـة الأولى حيث أبلى بلاءً حسناً ونال أرفع الرتب والترقيات. كـما أن الجنرال الألمـاني الذي كـان يعمل في السفارة الألمانية في باريس في تلك الفترة «ماكس ڤون شوارتز كـوبن» اعترف فيما بعد، وهو على فراش الموت عام ١٩١٧، بأن «الفرنسي دريفوس بـريء! ولم يكن مذنباً أبداً!».

الإمبراطورة الحمراء

ولدت يانغ كينغ في عام ١٩١٢، وعاشت طفولة تعيسة مع والدها الذي كان يسيء معاملتها ومعاملة والدتها. ولما بلغت التاسعة عشر من عمرها كانت قد تزوجت مرتين. وعندما اشتغلت في السينما أصبحت نجمة ناشئة تعرضت للإشاعات واتهمت بالخلاعة، وقد أطلقت على نفسها في تلك الفترة اسم لان بينج (التفاحة الزرقاء). وفي عام ١٩٣٨ قابلت زعيم الحزب الشيوعي الصيني ماوتسي تونغ وأصبحت، برغم اعتراضات رجال الحزب، زوجته الرابعة. وقد تسببت في خلق أزمة داخل الحزب انتهت بالاتفاق على عدم تدخلها بالأمور السياسية.

وقد التزمت السيدة ماو بتعهدها ذاك عدة سنوات، ولكنها بدأت منذ عام ١٩٦٠، تتدخل في الشؤون العامة. وفي عام ١٩٦٦ أطلقت في شانغهاي مبادىء ما عُرف باسم الثورة الثقافية. وقد قصد ماو من وراء إعلان ثورة البروليتاريا الثقافية محاربة الاتجاهات التقليدية، والبيروقراطية التي أخذت تتسلل إلى الحياة الصينية من جديد. وقد نتج عن تلك الثورة إغلاق العديد من الجامعات، وطرد آلاف الأساتذة الجامعيين ومسؤولي الحزب من وظائفهم وتعريضهم للإهانة والاضطهاد. وفي تلك الفترة شهد العالم آلاف الشبان من الحرس الأحمر يهتفون مرددين «أفكار» ماو، ويلوّحون بالكتاب الأحمر الذي احتوى على تلك الأفكار.

بلغت الثورة الثقافية أوج ازدهارها في فترة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨، بيد أنها لم تنته نهائياً إلا بعد موت ماو في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٧٦. وكانت يانغ كينغ ضمن المجموعة الرئيسية التي قادت الثورة الثقافية وسعت إلى التغيير.

وبعد موت ماو نشأ صراع على السلطة بين المحافظين واليساريين المتطرفين بزعامة يانغ وثلاثة قادة آخرين هم: ياو ونينوان، وزانغ تشونكيو، ووانغ هونغوين. وقد لقب هؤلاء فيما بعد بعصابة الأربعة، ولما فشلوا في الاستيلاء على السلطة تم القبض عليهم في تشرين أول (أكتوبر) ١٩٧٦ وقدموا إلى المحاكمة.

لم تبدأ محاكمة عصابة الأربعة إلا بعد أربع سنوات من إلقاء القبض عليهم. وكان نائب الرئيس في العهد الجديد، دنغ زياو - بنغ، قد تعرض أكثر من مرة للإهانة في ظل الثورة الثقافية، وأجبر مرة على العمل في مطبخ. ومع ذلك لم يهاجم زوجة ماو على سبيل التشفي، واكتفى بالإشارة إلى أنها امرأة «شريرة».

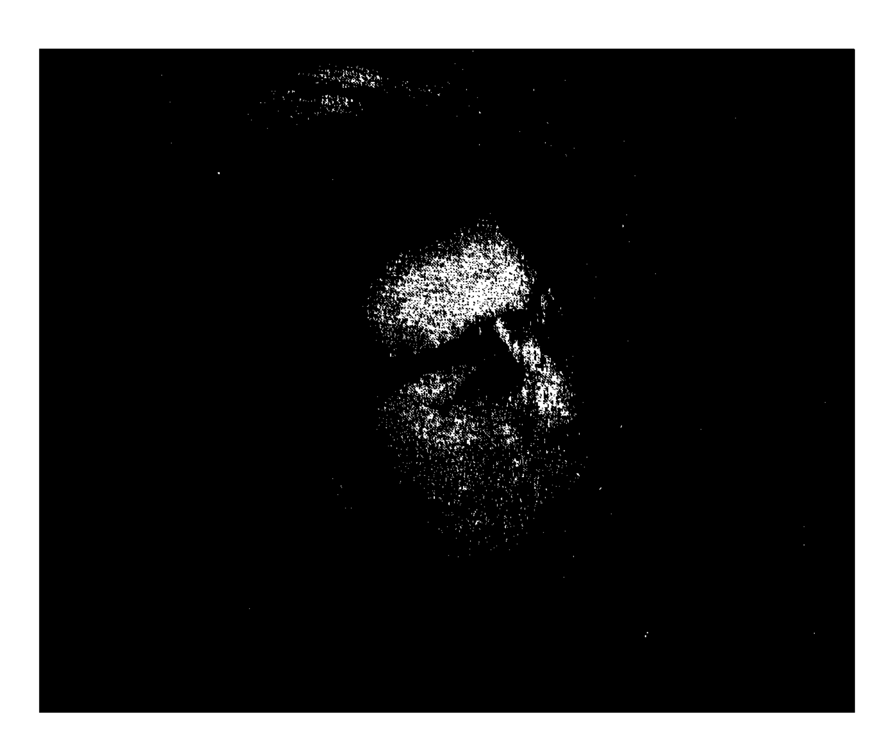
بدأت المحاكمة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٠ بحضور نخبة مختارة من الشعب بلغ عدد أفرادها ٨٠٠ شخصاً. وقد وجهت المحكمة إلى عصابة الأربعة تهمة اضطهاد ٧٢٩٥١١ شخصاً أثناء الثورة الثقافية، مات منهم ٣٤٨٠٠. وكانت هيئة المحكمة مكونة من ٣٠ قاض برئاسة أحد ضحايا الحرس الأحمر، يانغ هوا.

بدا على رفاق يانغ كينغ الخوف والاضطراب في قاعة المحكمة. وقد رضي اثنان منهم بالتعاون مع هيئة المحكمة على أمل الحصول على أحكام مخففة. أما الثالث، زانغ تشونكيو، فقد رفض التعاون، ولم ينطق بكلمة واحدة طوال فترة المحاكمة. وهكذا استأثرت السيدة ماو بكل الأضواء، وكانت نجمة المحاكمة دون منازع.

دخلت المرأة البالغة ٦٧ عاماً إلى قاعة المحكمة بكل كبرياء وثقة. ويقال بأنها اشتكت من شدة الحرارة داخل القاعة، ولما لم يتم فعل شيء لتخفيف درجة الحرارة أخذت تخلع ملابسها قطعة بعد أخرى أمام القضاة مما اضطر المسؤولين إلى إيقاف التدفئة فعادت عندئذ وارتدت ثيابها. (لقد منع الصحفيون من حضور الجلسات، وكانت السلطات تذيع مقتطفات مختارة منها. ولذلك فإن الرواية يحتمل أن تكون صحيحة في جوهرها، غير أن الأمر ربما لم يتعد فك زر أو اثنين).

كانت المحاكمة مميزة، وتم التركيز فيها على أرملة ماو. ففي ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) مثل في منصة الشهود شابتان شهدتا بأن يانغ سممت أفكار ماو عام ١٩٧٤ ضد بعض الشيوعيين المخلصين. وقال بعض الشهود بأنها اضطهدت الأقليات وجعلتهم يتخلون عن أزيائهم القومية ليلبسوا الملابس الماوية. كما أنها أجبرت المسلمين على تربية الخنازير مما يتعارض مع معتقداتهم الدينية. واتهمت كذلك باضطهاد معارفها السابقين، وبمسؤوليتها عن مداهمة منازلهم لجمع الرسائل والوثائق التي تعرضها للشبهات والفضائح.

كانت يانغ كينغ تستمع إلى الاتهامات الموجهة ضدها بلا مبالاة، وكانت أحياناً تنزع السماعات التي كانت تستخدمها بسبب ضعف سمعها، وكأنها تقول بأنها لا تهتم



أرملة ماو تصرخ في وجه قضاتها

بما يقال، ولا تريد سماعه! وعندما اتهمت بأنها أمرت بالقبض على زوجة منافسها الذي توفي في السجن، ليو شاو ـ كي، قالت بأنها لا تذكر شيئاً عن ذلك الأمر. ولما عرضت المحكمة عليها أمر القبض موقعاً من قبلها اضطرت إلى الاعتراف قائلة: «نعم هذا خطي». ثم اعترفت بأنها أمرت بالقبض على ١١ شخصاً من أعوان ليو، مات أحدهم أثناء التعذيب.

هناك ثغرات في سجل محاكمة أرملة ماو، ويبدو أنه لم يتم تسجيل كل إجاباتها وأقوالها. وكانت تقول باستمرار: أنها فعلت ما فعلته بموافقة ماو، بل «وتنفيذاً لأوامره». وكانت هيئة المحكمة حريصة على عدم الإساءة لسمعة ماو الذي كان محبوباً من الناس.

وكما حاولوا إخفاء بعض إجاباتها، حاولوا كذلك إخفاء بعض ثورات غضبها.

ففي ١٢ كانون أول (ديسمبر) ـ على سبيل المثال ـ تقدم الكاتب الصحفي لياو موشا وشهد بأنها كانت وراء القبض عليه وسجنه لمدة ٨ سنوات. وكان يبكي ويمسح عينيه أثناء رواية قصته. وهنا انفجرت يانغ كينغ صارخة: «ولكنه كان عميلاً للعدو». وقد حاول القاضي إسكاتها عبثاً، فرفع الجلسة بعد أن أخذت في ثورة غضبها تصرخ في وجه القضاة: «مرتدين، خونة». هذا، وقد تكرر حادث رفع الجلسة وإخراجها بالقوة من قاعة المحكمة أكثر من مرة.

وفي ٢٩ كانون أول (ديسمبر) انتهت جلسات المحاكمة بإصدار الحكم عليها بالإعدام رمياً بالرصاص (في مؤخرة رأسها). وبعد صدور الحكم أخذت توبخ القضاة وتتهمهم بالفاشية، وختمت أقوالها بهذه العبارة: «إن القبض عليّ ومحاكمتي هنا ما هو إلا تشويه لسمعة الرئيس ماوتسي تونغ» وأخذت تردد بعض أقوال وشعارات ماو.

وأخيراً، تم في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٨١ تغيير الحكم إلى «الإعدام مع وقف التنفيذ». ونفس الحكم صدر بحق المتهم الصامت زانغ تشونكيو. أما وانغ فتلقى حكماً بالسجن مدى الحياة، وياو بالسجن ٢٠ سنة

لقد قضت «الامبراطورة الحمراء» سني سجنها المؤبد وحيدة في سجن محصّن، ولتغطية نفقات سجنها قامت بصنع ألعاب صغيرة لتجني من ورائها ما يكفي للوفاء بنفقاتها القليلة داخل السجن.

ـ في حزيران ١٩٩١، أعلن نبأ انتحار يانغ كينغ (٧٧ عاماً) الزوجة الثالثة لماوتسي تونغ وكانت تقضي حينها فترة عقوبتها في الإقامة الجبرية ومعلوم أنها كانت مصابة بداء سرطان الحلق. (الناشر)

محاكمة الحيوانات

في عام ١٤٥٧ اقتيدت خنزيرة وصغارها الستة إلى قاعة المحكمة في فرنسا بتهمة قتل طفل ونهش أجزاء من جسده. وقد تم الحكم على الأم بالموت، وأطلق سراح الصغار لعدم توفر الأدلة التي تدينهم!.

قد يبدو الأمر غريباً بالنسبة إلينا في هذه الأيام، غير أن أوروبا شهدت الكثير من محاكمات الحيوانات في القرون الوسطى، حيث كانت مثل هذه المحاكمات أمراً مألوفاً حينذاك. وقد شهدت فرنسا وحدها بين عام ١١٢٠ وعام ١٧٤٠، ٩٢ محاكمة كهذه، كان آخرها محاكمة بقرة والحكم عليها بالإعدام. وكانت المحاكم العادية تقضي في جرائم الحيوانات المنزلية الأليفة. أما قضايا الحيوانات المتوحشة أو البرية فكانت من اختصاص المحاكم الدينية التابعة للكنيسة.

كانت عقوبة الحيوانات المذنبة تتراوح بين النفي والإبعاد وبين الإعدام. وكان ينادي على الحيوان موضع الشكوى في ثلاث جلسات، فإن لم يحضر أمام هيئة المحكمة يتم إصدار الحكم عليه غيابياً. وكانت بعض المحاكمات تستمر فترة طويلة وخاصة إذا كانت تنظر أمام محكمة دينية، كما حدثت في القرن ١٥ عندما استمر نظر القضية بين أهالي سانت جوليان وبين مستعمرة من الخنافس ٤٢ عاماً.

ومن مشكلات مثل تلك المحاكمات عدم امتثال الحيوانات المتهمة للتعليمات وعدم استجابتها للمثول أمام القاضي. ففي قضية مشهورة رفعت في فرنسا عام ١٥٢١ ضد «حيوانات قذرة من الفئران الرمادية اللون التي تعيش في الجحور» بتهمة التخريب المتعمد، تمنعت الحيوانات المتهمة عن حضور جلسات المحكمة! ويومها تم تعيين المحامي بارثولوميو شاساني للدفاع عن الفئران فأظهر براعة في دفاعه سببت له الشهرة ورسخت اسمه في دنيا المحاماة.

سألت هيئة المحكمة لماذا لم تحضر الفئران في اليوم المحدد، فأجابها المحامي القدير: لأن أمر الاستدعاء لم يكن واضحاً ولا مصاغاً بدقة. وأوضح أن أمر

الاستدعاء كان ينبغي أن ينص صراحة على حضور جميع فئران الأبرشية. وفي المرة الثانية طلب تأجيل موعد الجلسة لأن موكليه بعضهم كبير في السن وعاجز مما يستدعي توفير إجراءات خاصة لنقلهم وإحضارهم إلى قاعة المحكمة. أما في المرة الثالثة والأخيرة فقد قال: بأن موكليه مستعدين للحضور إن تم احتجاز جميع القطط في المنازل. وعندما رفض الأهالي الاستجابة لمطلبه، تم إلغاء القضية، وانتصر شاساني!.

وفي ألمانيا تم تأجيل محاكمة دب عام ١٤٩٩ بحجة أن له الحق في محاكمة يحضرها محلفون من الدببة أقرانه! وفي عام ١٥١٩! تم الحكم في إيطاليا على بعض البغال بالنفي مع النظر بعين الرأفة إلى الصغار والإناث الحوامل! غير أنه كانت هناك أيضاً محاكم لا تتحلى بأي قدر من الرحمة. ففي بال تم الحكم بإعدام ديك حرقاً عام ١٤٧٤ لأنه وضع بيضة. ذلك لأن مثل ذلك الأمر لم يكن ليحصل لو لم يكن الشيطان يسكن روح ذلك الديك! لقد كان الديك شيطاناً متخف في هيئة ديك! ولذلك تم إحراقه وإحراق البيضة في احتفال مهيب وفقاً للمراسم المتبعة.

هذا، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فيما يتعلق بجرائم الحيوانات ومحاكماتها، بل تعداه إلى الأخذ بشهادة الحيوانات! ففي سافوي، قبل اتحادها مع فرنسا، كان قانون الجزاء يبرّىء من يقتل داخل منزله لصاً أو معتدٍ جاء ليعتدي على صاحب البيت أو أملاكه. وخوفاً من استدراج أحد الأشخاص أو الأعداء إلى المنزل وقتله بحجة أنه دخيل معتد، كان القانون يشترط وجود شهود ولو من الحيوانات. إذ كان على صاحب المنزل أن يحلف أمام كلبه أو قطته بأنه بريء فيكون من الصادقين! ذلك لأن عدالة الله لا تقبل بإفلات القاتل الكاذب ونجاته، فتجعل الحيوان الأعجم ينطق إن كان من يحلف أمامه كاذباً!

تحطيم زهرية أثرية

تعتبر زهرية بورتلاند المحفوظة في المتحف البريطاني من أثمن التحف الأثرية التي يرجع تاريخها إلى أيام السيد المسيح. وبرغم أن ارتفاع الزهرية لا يتجاوز ١٠ بوصات، إلا أنها فريدة من نوعها ولا تقدر بثمن. بيد أنها قدرت قبل نحو ١٥٠ سنة بخمسة جنيهات أسترلينية فقط!

ففي تمام الساعة الثالثة و ٤٥ دقيقة من بعد ظهر يوم ٧ شباط (فبراير) ١٨٤٥، كان عدد من الزوار يجولون داخل المتحف البريطاني. وفجأة سمعوا صوت تحطيم آنية، فهرعوا إلى مصدر الصوت ليجدوا حطام الزهرية الأثرية وقد انتشر أمامهم في أرجاء الحجرة. وبدأ البحث والتساؤل عمن فعل ذلك.

أُغلقت أبواب المتحف في الحال، وبدأ استجواب الزوار المذهولين. وما هي إلا لحظات حتى تقدم رسام من دبلن اسمه وليام لويد وقال متباهياً: «أنا وحدي فعلت ذلك!» وعندما تم اقتياده إلى مخفر الشرطة تبين أنه كان مخموراً.

حوكم لويد، وحكم عليه بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات، أو بالسجن لمدة شهرين. إذ لم يكن القانون وقتها يسمح بتغريمه أكثر من قيمة الزهرية التي قدرت بخمسة جنيهات. ولما لم يكن لويد يملك بحوزته خمسة جنيهات، فقد سيق إلى السجن. وقبل مرور أسبوع على دخوله السجن أُفرج عنه بعد أن دفع أحد المحسنين قيمة الغرامة نيابة عنه.

لقد كانت قيمة الزهرية الأثرية تساوي أكثر من خمسة جنيهات بكثير. ولذلك أثيرت المسألة في البرلمان، وتم إصدار قانون جديد يحمي الأعمال الفنية والتحف الأثرية ويشدد العقوبة على من يعتدي عليها أو يمسها بضرر.

محاكمات القدح والتشهير

عندما وصل عازف البيانو الأميركي الشاب لايبرس إلى أوروبا عام ١٩٥٦، أثار ضجة كبيرة على مستوى الاستقبالات الشعبية، والمقالات الصحفية. فعندما عقد مؤتمراً صحافياً لدى وصوله تشيربورغ، كان يقف وسط أغابة من شمعدانات الزينة. وعندما وصل إلى محطة واترلو في لندن قادماً بالقطار من ساوثامبتون، وجد في انتظاره ٣ آلاف امرأة وفتاة اندفعن نحوه بين صارخة، ومترنحة، ومغمى عليها. وكان ذلك بالنسبة لوليام نيل كونرو الكاتب الصحفي في الديلي ميرور أمراً مبالغاً فيه، تعدى كل حد، فكتب مقالة هاجم فيها لايبرس بعنف.

كتب كونور يسخر من رجولة لايبرس وضحكته نصف المكبوتة، ومظهره البراق، وعطره الفواح، ومن اهتزازه، وقهقهته، ورقته المتكلفة. بل واتهمه تلميحاً بالشذوذ الجنسي. وعندما أتبع كونور مقالته هذه بأخرى لا تقل عنها عنفاً وتشهيراً، رفع لايبرس قضية تشهير ضده وضد جريدة الديلي ميرور.

استمرت المحاكمة ٧ أيام، تم الكشف خلالها عن الكثير من جوانب شخصية عازف البيانو وحياته الخاصة. وقد تابع الجمهور القضية بشغف واهتمام مما زاد في مبيعات الصحف. لقد كان دخل لايبرس السنوي أكثر من مليون دولار، وكان يمتلك ٦٠ بدلة، وبركة سباحة على هيئة بيانو. كما تم الكشف عن كثير من خصاله وهواياته وجوانب حياته العائلية.

وقبل صدور الحكم، علق كونور على القضية المرفوعة ضده بقوله: «سوف نحظى بكثير من اللهو والهزل، وسوف يحصل لايبرس على مبلغ لا بأس به من المال تدفعه إليه الديلي ميرور مقابل الدعاية التي ستحظى بها طوال أسبوع».

وبالفعل، صدر الحكم بتعويض لايبرس عن الإهانات التي لحقت به، وبتغريم الديلي ميرور لصالح لايبرس مبلغ ٨ آلاف جنيه بدل عطل وضرر. ولم يكن للقضية



لابيرس أمام البيانو

انعكاسات خطيرة، سوى أنها كشفت عن الحد الفاصل بين ما يمكن قوله في النقد، وبين ما لا يمكن.

لم تكن هذه القضية هي الوحيدة من نوعها. فقد شهد العالم كثيراً من قضايا الطعن والتشهير. وكانت أخيراً، وليس آخراً، القضية التي رفعها خبير تخفيف الوزن (الريجيم)، هارلي ستريت ضد شبكة هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) والمذيع إستر رانتزن في حزيران (يونيو) ١٩٨٣ بدعوى التشهير لوصفه إياه «بالدجال المشعوذ، عديم الضمير». وقد استمرت المحاكمة ٨٧ يوماً، وشهد فيها ٥٠ شاهداً، وأخصائيون طبيون، وانتهت في نيسان (إبريل) ١٩٨٥ بإعطاء الطبيب هارلي ستريت ٧٥ ألف جنيه تعويضاً عما لحق به من تشهير وضرر.

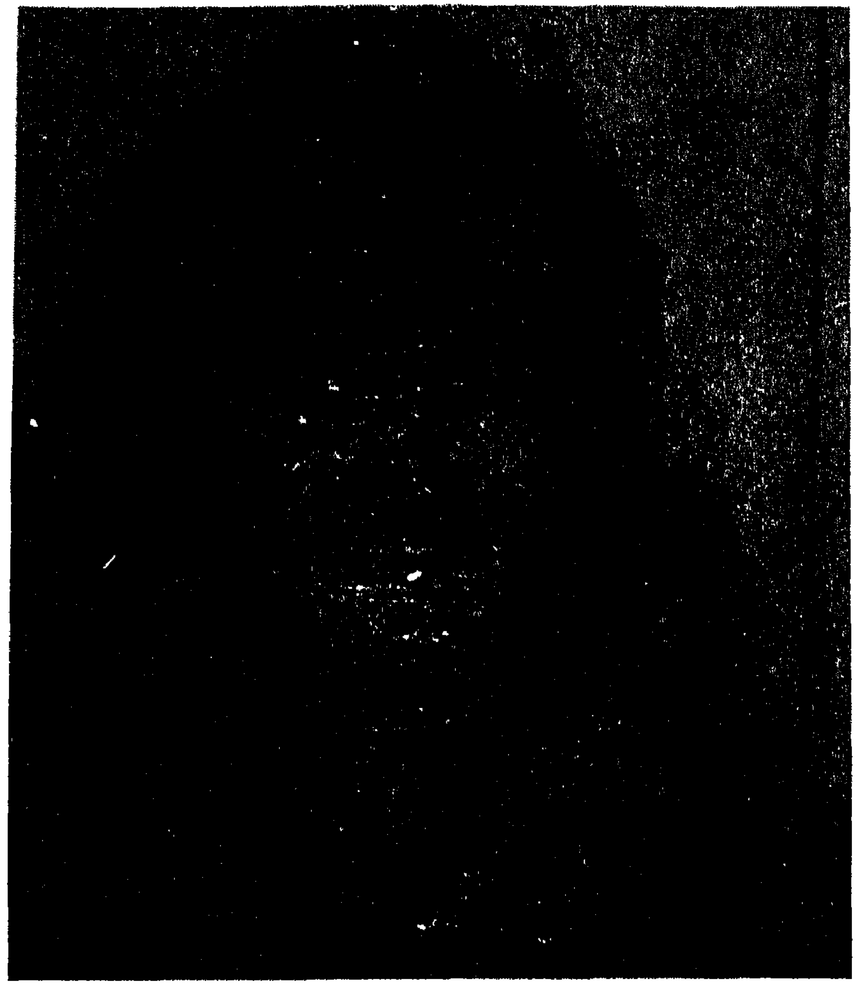
طلاسم المربية الإسكتلندية

عندما دخلت كارول كومبتون، البالغة من العمر ٢١ عاماً، قاعة المحكمة، في طريقها إلى قفص الاتهام جنّ جنون الصحافيين وأخذت أصوات الكاميرات تئز وتقرقع، برغم أن هيئة المحكمة منعت دخول المصورين. كانت المتهمة تبتسم بوجهها الشاحب وتمضغ اللبان دون انقطاع. تقدمت والدتها وقبلتها من خلف القضبان، قائلة: «أنت لست خائفة، أليس كذلك؟ لقد انتظرت هذا اليوم طويلاً. أثبتي لهم براءتك».

لقد كانت كارول موقوفة في جزيرة إلبا الإيطالية منذ آب (أغسطس) ١٩٨٢ بتهمة إشعال الحرائق، ومحاولة قتل. وبعد ١٦ شهراً تم تقديمها إلى المحاكمة في شهر كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٣ بعد أن كانت الصحافة الإيطالية قد أشاعت أنها ساحرة. وكانت كارول تعمل مربية لدى عائلة إيطالية، وهي من مواليد اسكتلندا. كانت التهمة الموجهة إلى المربية، التسبب في إشعال حريقين في البيت، كاد الثاني منهما أن يودي بحياة طفل في الثالثة من عمره. ولم يكن اهتمام الصحافة منصباً على تهمة إشعال الحرائق بقدر ما كانت تتحدث عن الألغاز والطلاسم التي كانت تحدث أينما حلّت كارول.

تألفت هيئة المحكمة من ستة قضاة وخبيرين شرعيين، وساد قاعة المحكمة منذ البداية جو من الفوضى والاضطراب، وخاصة بسبب سوء الترجمة مما دعا المتهمة إلى اللجوء أحياناً إلى التعبير عن أقوالها بلهجة إيطالية ركيكة، وكلمات إيطالية قليلة كانت تعرفها. كما أن مسؤولو السفارة البريطانية احتجوا كذلك على عدم دقة ترجمة أقوال المتهمة من الإنكليزية إلى الإيطالية. أضف إلى ذلك عدم تقيد الصحافيين بالتعليمات.

وبرغم هذه الصعوبات، سارت المحاكمة في مجراها الطبيعي، وتم الوصول إلى إثارة مسألة السحر. شهدت ربة البيت التي كانت كارول تعمل لديها في روما قبل



المربية كارول كومبتون

انتقالها إلى جزيرة إلبا بأن أموراً خارقة كانت تحدث في وجود كارول مثل سقوط زهرية وتهشمها، أو سقوط صورة عن الجدار بدون أن يلمسها أحد. واتهمتها كذلك بنشوب ثلاثة حرائق غامضة في منزلها خلال فترة عملها السابقة في منزلها. وقد فسر الخبير القضائي الذي جيء به من جامعة بيزا بأن سقوط الأشياء قد يكون حدث بفعل الصدفة. غير أنه لم يستطع تفسير ظاهرة الحرائق التي كانت تحدث بفعل درجة حرارة مرتفعة بدون تصاعد اللهب!.

بعد ذلك شهدت الجدة في بيت المخدومين الجدد في إلبا، بحـدوث أمور غـريبة بعد وصول كارول إلى المنزل مباشرة، مثل سقوط طبق وتهشمه بدون أن يلمسه أحد. يومها قالت الجدة، حسب زعمها: «يا إله السماوات! توجد أشباح في بيتنا!».

ولقد حاول المدعي العام طوال المحاكمة أن يبتعد عن مسألة السحر والشعوذة، وأن يركز على تهم إشعال الحرائق.ومحاولة القتل. وهاجم الصحافة لتأثيرها عـلى مجرى المحاكمة وتحويل مسارها للحديث عن الألغاز واعمال السحر والشعـوذة. وأخيراً طلب معاقبة المتهمة بالسجن لمدة سبع سنوات لتسببها في إشعـال الحرائق رغم عـدم تأكـده من دوافعها، كما قال. وكذلك أهمل الـدفاع مـوضوع السحـر والأحداث الغـامضة، وركز في دفاعه على نفي التهم.

وفي نهايـة المحاكمـة صدر الحكم عـلى المتهمـة بـالسجن سنتـين ونصف السنـة لمحاولتها إشعال الحرائق في بيت مخدوميها الحالي، والسابق. ونـظراً لأن كارول قضت فترة طويلة في التـوقيف قبل إجـراء المحاكمـة، فقد تم الإفـراج عنها لتعـود إلى وطنها اسكتلندة.

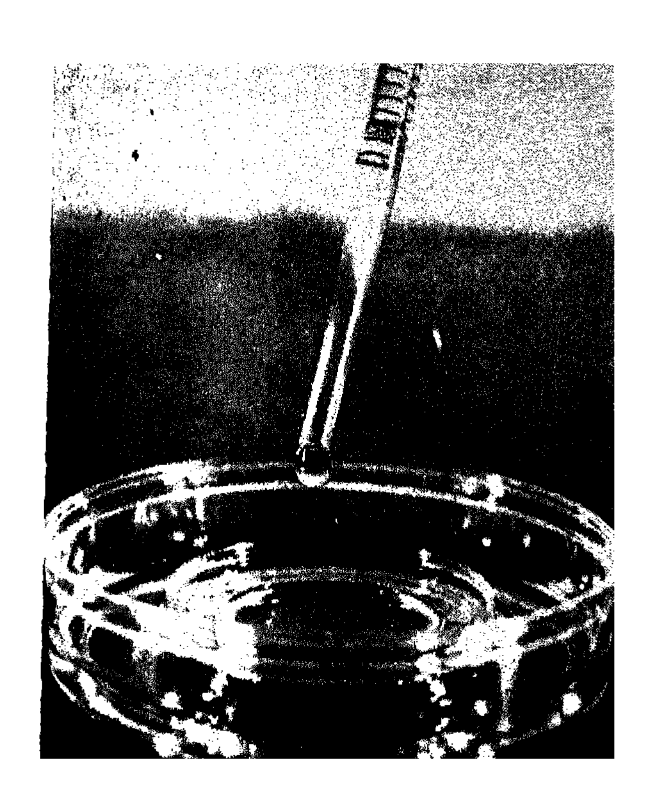
شرعيـة التلقيـح الاصطناعـي

أوجد التقدم العلمي في ميدان الطب مجالاً خصباً للقضايا الشرعيـة والمشكلات الأخـلاقية. فهنـاك مسائـل بنوك الحيـوانات المنـوية، واستئجـار الأرحـام، والتلقيـح الاصطناعي وسواها. ومن أوائل القضايا التي شهدتهـا المحاكم حـول شرعية التلقيـح الاصطناعي قضية السيدة الفرنسية كـورين باربـاليه التي كـانت مصممة عـلى إنجاب طفل من زوجها المتوفى!

قـابلت كورين الضـابط «ألن» أول مرة في آب (أغسـطس) ١٩٨١. وسرعـان ما اكتشفت أنه مصـاب بمرض عضـال، يستدعي إجـراء عملية جـراحية، قـد تتركـه عقيماً. ولذلك اتفق ألن مع كـورين على وضـع مخزون من حيـواناتـه المنويـة في مركـز لحفظ المني قبل إجراء العملية. ولقد تدهورت صحة ألن بعد ذلك بسرعة وتـوفي بعد يـومين من عقـد قرانـه على كـورين في المستشفى بتاريـخ ٢٣ كـانـون أول (ديسمـبر) ١٩٨٣.

لم يترك ألن أية وصية بخصوص حيواناته المنوية، غير أن زوجتـه ووالديـه أصرا على أنه أعلن قبيل وفاته عن رغبته بإنجاب طفل من كورين. ولما أصر بنك المني عـلى عدم التصرف بالحيوانات المنوية إلا بعد الحصول على إذن من وزارة الصحة، توجهت الـزوجة إلى الـوزارة المذكـورة للحصـول عـلى الإذن المطلوب. لكن الـوزارة رفضت إعطاء التصريح بحجة أن موضوع التلقيح الاصطناعي ما زال قيد الدراسة.

لجـأت كـورين إلى القضـاء، فحكمت لهـا المحكمـة التي عقـدت في آب (أغسطس) ١٩٨٤ بحقها في أخذ الحيوانات المنوية من البنك. وعندما سمعت السيدة بـارباليـه الحكم بكت فرحـاً، وشكرت هيئـة المحكمة ومحـاميها قـائلة: «هـذا الحكم جعلني امرأة سعيدة». لكن سعادة السيدة بارباليه لم تتم، نظراً لأن حيـوانات زوجهـا المنوية كانت ضعيفة، ربما بسبب مرضه. ولذلك قرر الأطباء تلقيحها بمخزون زوجها



عملية التلقيح الاصطناعي

جميعه، غير أنه تم الإعلان عن فشل المحاولة في مطلع عام ١٩٨٥ (كانون الثاني/يناير).

لقد فشلت كورين في الحصول على طفل عن طريق التلقيح الاصطناعي، لكنها نجحت في فتح الأبواب أمام شرعية ذلك الإجراء من الناحيتين القانونية والتاريخية.

روايـة الليـدي تشاترلـي

نحن اليـوم نعـرف عـدد مـرات تكـرار الكلمات التي تخـدش الحيـاء والمـواقف الإبـاحية في روايـة «عشيق الليـدي تشـاتـرلي» للكـاتب الإنكليـزي د. هـ. لـورنس (١٨٨٥ ـ ١٩٣٠). ذلـك لأن المدعي العـام في محاكمـة ناشر الـروايـة عـام ١٩٦٠، أحصى تلك الكلمات والمـواقف. ولقـد سبق أن ظهـرت الـروايـة في طبعـة مهـذبـة عـام ١٩٢٨، غير أن دار بنجـوين للنشر أعادت طبـاعـة النسخـة الأصليـة المفصلة، ونشرتهـا بسعر في متنـاول الجميع، فـأقبل الـبريطانيـون على شرائهـا وقراءتهـا بأعـداد غفيرة، مما حدا بالمدعي العام إلى رفـع دعوى قضـائية ضـد دار النشر لحمايـة الأخلاق العامة. وتم سحب ٢٠٠ ألف نسخة من الأسواق بانتظار ما ستسفر عنه المحاكمة.

واليوم، تعتبر رواية عشيق الليدي تشاترلي أسـوأ ما كتب لـورنس، ليس بسبب إبـاحيتها وألفـاظها الفـاضحة فحسب، وإنمـا لأنها ضعيفة كـذلـك في حبكتهـا ورسم شخصياتها.

بـدأت المحاكمـة، وسط اهتـمام شعبي شـديـد، في ٢٠ تشرين أول (أكتـوبـر) ١٩٦٠، وفقاً لقانون المطبوعات الصادر حديثـاً عام ١٩٥٩. كـان ذلك القـانون يمنـع نشر الكتابات التي تعتبر فاحشة «إذا كانت بمجملها تفسد الأخـلاق». بيد أن القـانون كان يحمي كذلك الأعمال الفنيـة المرمـوقة، إذا كـانت المادة المنشـورة «تبتغي الصالـح العام من حيث الحقائق العلمية، والأغراض الأدبية، أو الفنية، أو التعليمية، أو ذات الاهتمام العام».

ركز المدعي العام، السيد مـيرفن غريفيث ـ جـونز، منـذ بدايـة الجلسات عـلى فحش الرواية وإباحيتها، وأحصى بالأرقام المـواقف والعبارات التي تخـدش الحيـاء وتسيء إلى الأخلاق العامة. وتساءل: «هـل يناسب الكتـاب تلامـذة المدارس؟ وهـل هو كتـاب نسمح بدخوله بيوتنا؟ بل، هل نسمـح لزوجـاتنا وخـادماتنـا بقراءتـه؟» ثم أوضح أن



الازدحام لشراء الكتاب

البلوى تكتمل عندما نعلم أن باستطاعة أي حدث شراء الكتاب لأن دار النشر عرضته في الأسواق بأعداد كبيرة وثمن زهيد.

أما الدفاع فقد بدأ مرافعته بتبيان المكانة المرموقة التي يحتلها لورنس بين أعظم كتاب القرن العشرين. ثم أوضح السيد جرالد غاردنر أن الكتاب أبعد ما يكون عن الإفساد والإساءة إلى الأخلاق العامة، بل إنه كتاب ذو غرض أخلاقي يهدف إلى دعوة الناس لتوطيد علاقات المحبة والحنان فيما بينهم بدلاً من عبادة المال والتكالب على ما يسمونه «النجاح».

وهنا كان لا بد للمحلفين (بينهم ٣ نساء) من قراءة الرواية. وأثيرت مسألة مكان القراءة: هل يُقرأ الكتاب في المنزل أم في قاعة المحكمة؟ واختلف المدعي العام في رأيه بهذا الخصوص مع محامي الدفاع. وأخيراً توصل القاضي إلى حل وسط عندما أوصى بتخصيص حجرة مزودة بمقاعد مريحة وبالهدوء المطلوب لقراءة الكتاب. وبعد ثلاثة أيام انتهى أبطأ محلف من قراءة الرواية، واستأنفت المحكمة جلساتها.

شهد في القضية ٣٥ شخصية عامة مرموقة بينهم: نقاد، ورجال دين،

ومعلمـون، وكتاب، ومحـررون، وربات بيـوت. قالت معلمـة مدرسـة: أنها تسمـح لتلميذاتها بقراءة الكتاب. وقال محام: بأن الكتاب يضيف قيمـة للأدب الإنكليـزي. وقـال كاثـوليكي: بأن الكتـاب عبارة عن روايـة أخلاقيـة دون ريب. وقال سيـاسـي ناشيء بأنه يعتبر الكتاب عملاً أدبياً.

ولمـا لم يجد المدعي العام أحـداً من الشهود يسـانـد رأيـه، أدرك أنـه قـد خسر القضية. وكان محامي الدفاع قد ختم حديثه، بعد سماع شهادة الشهود، بـالقول: إن الكتاب لا يفسد أخلاق أحد «ولا حتى زوجـاتنا وخـادماتنـا». وهنا ابتسم المحلفـون. وهكـذا صدر الحكم بـبراءة دار بنجوين للنشر وسُمـح ببيع الكتـاب، حيث اصـطف البريطانيون بالمئات في طوابير طويلة لشراء الرواية.

والمهم في هـذه المحاكمـة أنها فتحت الأبواب أمـام نشر أعـمال مماثلة، وجعلت المجتمع أكثر مرونة وتسامحاً في نشر الكتابات الإباحية.

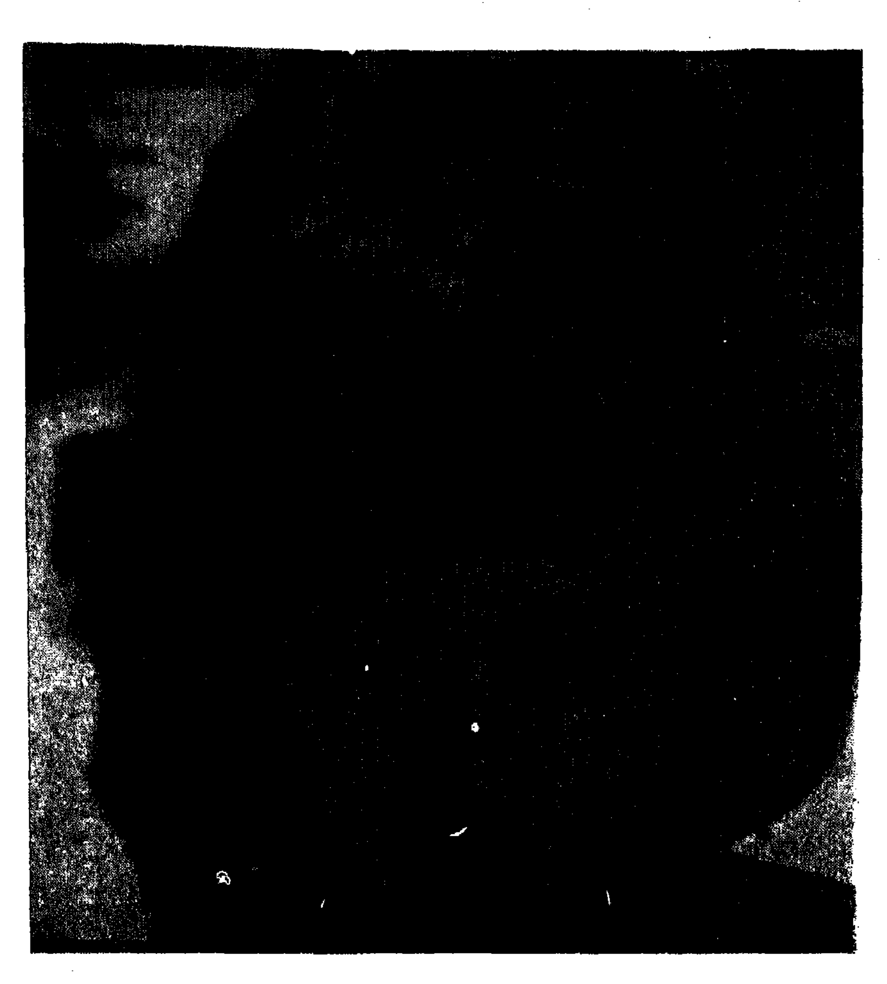
كلب برّي التهم طفلتي

في مساء يوم ١٧ آب (أغسطس) ١٩٨٠ كانت مجموعة من المصطافين تستمتع بحفلة عشاء في مخيم قرب إيرس روك بأستراليا. وفجأة دوت صرخة منبعثة من إحدى الخيام: «كلب برّي التهم طفلتي!». هرع السيد تشامبرلين مع آخرين إلى الخيمة التي انبعثت منها الصرخة حيث وجد زوجته تولول، فدخل الخيمة ليجد سرير ابنته خاوياً. كانت ابنته أزاريا في أسبوعها التاسع. ومنذ ذلك اليوم لم يعثر لها على أثر.

لقد أثار اختفاء الطفلة موجة عارمة من الهمس المريب. فقد كانت لندي ومايكل تشامبرلين والدا الطفلة أعضاء في جمعية دينية، وكانا كلاهما في الثلاثين من العمر. وقد أشيع أن اسم الطفلة أزاريا يعني «التضحية للإله في البرية». كما أن رجال الشرطة عثروا على بقع دماء في سيارة العائلة. ولكن أين اختفت جثة الطفلة؟ وهل جاء كلب برّي وخطف الطفلة ليلتهمها، أم أن الأم قدمتها قرباناً للإله؟ وإذا كان الكلب قد التهم الطفلة فأين بقايا الجثة؟ أم أن الجثة دفنت في مكان ما؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن دفنها؟

كلها أسئلة محيرة يكتنفها الغموض. غير أن المحقق في القضية أعلن براءة الوالدين وعدم مسؤوليتهما عما حدث، وأبدى تعاطفه مع الوالدين المنكوبين بفقد طفلتهما. وقال إنه سمح لشبكات التلفزيون بتغطية الموضوع للقضاء على الإشاعات المثارة، والهمس المريب. بيد أن القضية لم تمت. فقد أثيرت من جديد بعد عام تقريباً عقب العثور على بقع دم وشعر في علبة كاميرا آل تشامبرلين. تم توجيه الإتهام إلى الأم بقتل ابنتها، وإلى الأب بالمساعدة والتستر.

تبين أثناء المحاكمة أن الأم كانت حاملاً في شهرها السابع. وقد أثارت المحاكمة اهتماماً شعبياً منقطع النظير، وانشغلت الصحف بمتابعة تفاصيل المحاكمة. وقد وجه المدعي العام الاتهام إلى الأم بقتل طفلتها برغم عدم وجود دافع مقنع. وقال الادعاء بأن قصة الكلب البري أكذوبة لتمويه الحقيقة وإخفائها. وقد تبين أثناء



لندي تشامبرلين

التحقيق أن ملابس الطفلة الممزقة التي تم العثور عليها لم تكن ممزقة بفعل كلب وإنما بفعل مقص. غير أن جميع الشهود تقريباً أفادوا أن الأم كانت تحب طفلتها وتعطف عليها. كما أن دموع الأم أثناء المحاكمة استدرت دموع المحلفات الثلاث اللواتي كن بين أعضاء هيئة المحلفين. وعلاوة على ذلك شهدت امرأة كانت في المخيم أنها رأت كلباً برياً يقترب من الخيمة التي كانت تنام فيها الطفلة، وأفاد مجموعة من أهالي المنطقة أن الكلاب البرية خطفت بعض الأطفال والتهمتهم. أما بقع الدم التي كانت

في السيارة فكانت ـ كما أفاد الزوج ـ لجريح نقله قبل عدة أشهر في سيارته.

وأخيراً، بعد ٦ ساعات من المداولة، وجد المحلفون الأم مذنبة، وصدر الحكم عليها بالسجن مدى الحياة. أما زوجها فحكم عليه بالسجن ١٨ شهراً مع وقف التنفيذ، وشرط أن يتحلى بسلوك حسن، ويأخذ أولاده إلى الكنيسة كل يوم أحد.

بعد شهر أنجبت لندي طفلة في السجن، ولم يسمح لها في بادىء الأمر بالاحتفاظ بطفلتها، غير أنها أعيدت إليها بعد يومين. ثم تم الإفراج عن الأم من أجل الطفلة بانتظار صدور حكم بتخفيف العقوبة. غير أن مثل ذلك الحكم لم يصدر بحجة اتفاق المحلفين على أنها كانت مذنبة. وهكذا أعيدت الأم ثانية إلى السجن لتقضي فيه ثلاث سنوات قبل أن يتم الإفراج عنها بشكل نهائي.

قصة الرائد المجنون

خمس ضربات بمرقاق العجين (الشوبك) أنهت حياة بائعة الهوى أوليف يونغ في شقتها من قبل رجل يدعو نفسه الرائد ترو. ولكي يتأكد الجاني من موت ضحيته طوق عنقها بحزام روبها وخنقها. بعد ذلك سحب الجثة وتركها على أرض الحمام. ثم وضع تحت غطاء السرير وسادتين للإيحاء بأن هناك شخصاً نائما. وقبل أن يغادر الشقة حضرت امرأة لتنظيف البيت فمنحها مبلغاً صغيراً من المال وطلب منها عدم إيقاظ سيدتها. وكان قبل ذلك قد استولى من الشقة على ٨ جنيهات وبعض المجوهرات.

تم اكتشاف الجريمة في صباح يوم ٦ آذار (مارس) ١٩٢٢. وفي ذلك اليوم نفسه ابتاع ترو بدلة جديدة ليرتديها بدلاً من بدلته التي لطختها الدماء، ورهن بعض المجوهرات، قبل أن يقبض عليه رجال الشرطة ويسوقونه إلى السجن. وكانت المرأة التي حضرت للتنظيف قد وشت به، وكانت قد التقت به من قبل في شقة الضحية. بيد أن رجال الشرطة لم يحتجزوه في عنبر السجن، وإنما وضعوه في مستشفى السجن لأنه كان من الواضح للجميع أن الرائد لم يكن بكامل قواه العقلية.

لقد أكد الأطباء الذين فحصوه أنه كان مخبولاً: وكان ترو منذ طفولته غريب الأطوار. ولما كبر أدمن على تعاطي المورفين. ثم ساءت حالته أثناء الحرب العالمية الأولى عندما تحطمت طائرته أثناء التدريب ومكث نتيجة لذلك فاقد الوعي لمدة يومين. ومنذ عام ١٩١٦ أخذ رونالد ترو يتردد على عيادات الأعصاب. وفي عام ١٩٢٠ ظهرت عليه بوادر الإصابة بانفصام الشخصية. وكان يتصرف في بعض الأحيان كطفل صغير فيجري سباقات خيل خيالية ويفرح عندما يفوز حصانه. وعندما كان يخسر كان يقول: إن الخاسر هو «رونالد ترو الآخر، ولست أنا».

أما خارج المصحات العقلية فكان الرائد ترو يتجول عاري الرأس لأن القبعات كانت، كما يقول، «تؤذي رأسه». وكان يتحدث عن بطولاته في الحرب ويفاخر بأنه

كان برتبة رائد. كما كان يدّعي أمام معارفه وأصدقائه أنه ما زال يقوم بمهمات سرية وغامضة لصالح الجيش والوطن. كان أصدقاؤه يتقبلون هذه القصص باعتبارها لا تشكل أي خطر. بيد أن النساء كن يتجنبنه، وخاصة بعد ملاحقته المزعجة للسيدة ولسون. كان يقول للأخيرة: إنه مستعد لحمايتها من «رونالد ترو الآخر»، ويريها مسدسه مدعياً أن سكوتلانديارد زودته به.

في شباط (فبراير) عام ١٩٢٢ توقف ترو عن ملاحقة السيدة ولسون، وأخذ يلاحق سيئة الحظ أوليف يونغ التي سرعان ما اكتشفت عدم اتزانه العقلي وأخذت تتحاشاه. وفي هذا الوقت وقع ترو تحت كاهل الديون. وقبل يوم الجريمة بأسبوعين أخبر ترو معارفه بأنه سيذهب قريباً إلى إحدى الشقق ويطلق النار على أحد دائنيه.

وعندما وقف ترو في وقت متأخر من ليلة ٥ آذار (مارس) ١٩٢٢ أمام باب شقة أوليف، حاولت الأخيرة منعه من الدخول، لكنها أمام إلحاحه عادت وسمحت له بالدخول خشية إحداث ضجة وشوشرة.

قال القاضي في المحكمة: إن الرائد ترو كان في كامل وعيه عندما ارتكب جريمته، «وكان يعي ما يفعل» بدليل وضعه للوسادتين على السرير بغرض التمويه. ولذلك أصدر الحكم عليه بالإعدام في ٥ أيار (مايو) من العام نفسه. ولكن، نظراً لأن القانون الإنكليزي يمنع إعدام المجنون، وبعد تأكيد ثلاثة أطباء بأن الجاني كان مجنوناً، تم احتجاز الرائد رونالد ترو في مصحة عقلية، حيث توفي هناك في عام ١٩٥١ بعد بلوغه الستين من العمر.

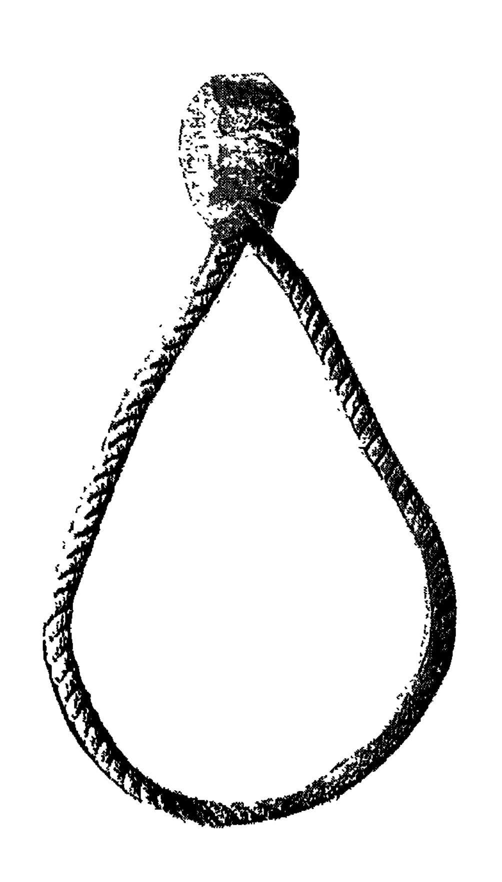
اللحظة الأخيرة من حقنا

في ١٥ نيسان (إبريل) ١٩٢٠ قُتل صراف الرواتب وحارسه خارج مصنع الأحذية الذي يعملان فيه قرب بوسطن بولاية ماساتشوستس، وفرّ الجناة. وبعد ثلاثة أسابيع تم القبض على مهاجرين إيطاليين بتهمة حيازة أسلحة نارية، ووجهت إليهما تهمة قتل الصراف وحارسه. أحد المهاجرين كان صانع أحذية يدعى نقولا ساكو، والثاني كان بائع سمك متجول ويدعى بارتولوميو فانزيتي. وقد ظل اسماهما عقوداً طويلة وصمة عار في جبين العدالة الأميركية.

تمت محاكمة المتهمين في أيار (مايو) ١٩٢١، وتميزت المحاكمة منذ بدايتها بالعداء والتحيز ضد المهاجرين الإيطاليين. فلمجرد أنهما مهاجرين لا يتقيدان بالنظم القائمة تمت إدانتهما، وكانا ينعتان أثناء المحاكمة بألقاب بذيئة. وقد تباهى القاضي بأنه أدانهما بجريمة القتل من الدرجة الأولى (هل رأيتم ماذا فعلت بالأوغاد الفوضويين؟)

بيد أن الأحرار في أميركا وقفوا إلى جانب المتهمين، فظهرت المقالات المنددة بالحكم، وقامت المظاهرات المطالبة بإعادة النظر بالحكم الصادر بحقهما. كما أن أوروبا شهدت موجة من الاحتجاجات على الحكم بإعدام المتهمين. وتعقدت الأمور أكثر في عام ١٩٢٥ عندما اعترف المتهم سلستينو ماديوروس المحكوم بالإعدام بأنه هو الذي قتل الصراف وحارسه. لكن القضاء لم يأخذ ذلك الاعتراف على محمل الجد.

وفي عام ١٩٢٧ تشكلت لجنة ثلاثية لإعادة النظر في القضية وأدلتها، فتبين للخبير الرائد كالفن غودارد بأن الرصاصات القاتلة أُطلقت من مسدس ساكو. وفي ٣ آب (أغسطس) من العام نفسه رفض حاكم الولاية إعادة المحاكمة، فثارت الاحتجاجات من جديد وسارت مظاهرات رافقتها أعمال عنف (وإلقاء قنابل أحياناً) في عدة مدن أميركية وخاصة في نيويورك وفيلادلفيا. ونظمت إضرابات في بعض مدن أوروبا وأميركا الجنوبية. ولكن ذلك كله كان بدون فائدة. ففي ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٢٧



سيق الرجلان ـ برغم إصرارهما على أنهما بريئان ـ إلى الغرفة الكهربائية حيث تم إعدامهما.

ألهم موت الرجلين الكتّاب والشعراء، فكُتبت حولهما القصائد والروايات والمسرحيات. وشكّك المؤرخون في صحة الحكم الذي اتخذ ضدهما. وفي عام ١٩٧٧ أعلن حاكم ولاية ماساتشوستس في تصريح رسمي براءتهما. ولعل أفضل ما بقي من ذكراهما ما كتبه فانزيتي بنفسه قبل إعدامه، حيث قال بأنه وزميله يقبلان الموت كشهداء بعد أن حركا ضمير العالم. لقد كتب بكل كبرياء واعتزاز يقول: «لم نكن لنثير في حياتنا ـ نحن الفقيرين ـ مثل كل هذا التعاطف مع العدالة وصحوة الضمير والتفهم... إن موتنا انتصار لهذه القيم ـ واللحظة الأخيرة من حقنا... نقول فيها ما نشاء».

القتـل للهـو

كان المراهقان رتشارد لويب (١٨ سنة)، وناثان ليوبولـد (١٩ سنة) من عـائلتين ثـريتين في شيكـاغو. وكـان لويب ابن نـائب رئيس متاجـر سيـرز المعـروفـة. ولم يكن ليوبولد يقل عن زميله ثـراء أو أهمية. كـان الشابـان يتميزان أيضـاً بالـذكاء، ولم يكن أحدهما بحاجة إلى المال. ومع ذلـك قامـا في ٢١ أيار (مـايو) ١٩٢٤ بـارتكاب جـريمة وحشية بطريقة تميزت بالغباء. كان دافعها الظاهري طلب فدية بقيمة ١٠ آلاف دولار - غير أن الحقيقة أنهما كانا يعبثان ويتسليان -.

كان الشابان من المعجبين بفلسفة نيتشه التي تبشر بالإنسان المتفوق (سوبـرمان) الذي لا يخضع للمعايير الأخلاقية التقليدية. كان رتشارد لويب يعتبر نفسـه من هؤلاء المتفوقين، بينـما كان نـاثان ليـوبولـد قصيراً وضعيف البصر، مكتفيـاً بتبعيته لصـديقه لويب، وقد وصف نفسه بأنه عبد لصديقه.

كان لويب صاحب فكرة ارتكاب «جريمـة كاملة»: القتـل بدون دافـع، وطلب فدية للتضليل. وكان الضحية بوبي فرانكس (١٤ سنة) ابن أحد أصحاب المـلايين في شيكاغو. دعا القاتلان بوبي لمرافقتهما في نزهة بالسيارة. وكان ليوبـولد يضـطلع بمهمة القيـادة، في حين قـام لويب بضرب الصبي بهـراوة حتى الموت. بعـد ذلك تم إخفـاء الجثـة في أحد المجـارير قـرب خط السكة الحـديد بعـد سكب الحامض عـلى الـوجـه للحيلولة دون التعرف على هوية الضحية.

بعد ذلك اتصل القاتلان بوالدة الصبي هاتفياً بصفتهما خاطفي ابنها، وبعثا إليها رسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة بتوقيع «جورج جونسون»، يشرحان فيهـا كيفية تسليم النقود.

لم تكن الجريمة كاملة أبداً، فسرعان ما تم اكتشاف الجثة، والتعـرف على هـوية صاحبها بسهولة. وإلى جانب الجثة تم العثـور على نـظارات ليوبـولد التي تم التعـرف على صاحبها من البائع الذي باعها لليوبولد. وبالتحقيق تبين كذلـك أن ليوبـولد هـو

الذي كتب الرسالة على طابعة استعارها من أحد أصدقائه. وبالتحقيق والاستجواب المكثف لرتشارد لويب، انهار السوبرمان، واعترف بكل شيء.

اجتاحت الرأي العام الأميركي موجة من الغضب العارم بعد إعلان نتائج التحقيقات الأولية، وطالب الجميع بإنزال عقوبة الإعدام بالقاتلين. وكان الجميع ينتظر إعدام القاتلين حقاً، عندما برز المحامي كلارنس دارو وتكفل بالدفاع عن المتهمين. كان دارو يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي والقيم الإنسانية، ويعارض عقوبة الإعدام. وكان كذلك محام بارع وشديد الذكاء بحيث إنه لم يخسر طوال حياته سوى قضية واحدة من بين ٥٠ قضية اتهام بالقتل من الدرجة الأولى.

بدأت المحاكمة في شهر تموز (يوليو) ١٩٢٤، وركز دارو في دفاعه على موضوع الجنون: «كيف يمكن وصف عمل كهذا بغير الجنون؟ وبأي مقياس يمكننا أن نعتبر عمل لويب وليوبولد بأنه عمل شابين عاقلين؟ وطوال يومين ظل يدافع دارو عن الشابين المراهقين اللذين ما زالت سنوات عمرهما في أولها. واستشهد بأقوال الكتّاب والشعراء والفلاسفة أمثال عمر الخيام، وهوسمان، وسواهما». ونتيجة لذلك تم الحكم على المتهمين بالسجن مدى الحياة.

أما رتشارد لويب فقد قتل في عام ١٩٣٦ أثناء شجار حدث داخل السجن. وأما ناثان ليوبولد فأطلق سراحه في عام ١٩٥٨ بعد أن قضى داخل السجن ٣٣ سنة. وقد تزوج بعد إطلاق سراحه، وذهب ليعيش مع زوجته في بورتوريكو. وقبل وفاته في عام ١٩٧١، كتب كتاباً حول خبراته وتجاربه في الحياة.

قضيـة منـع الحمـل

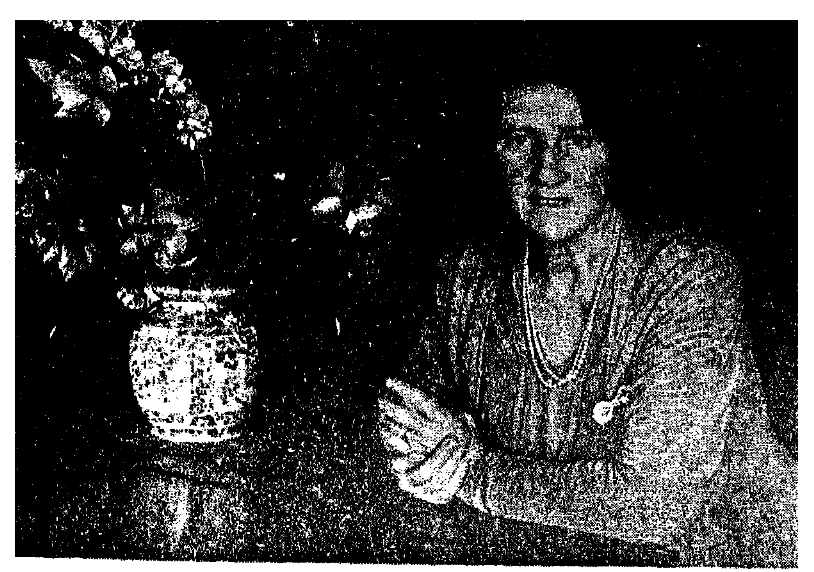
منذ أكثر من مائة عام كان الحديث عن موضوع تحديد النسل أو منع الحمل أمراً محرماً ومكروهاً. ففي روايات العهد الفكتوري قد نقرأ عن أطفال ولدوا سفاحاً، غير أننا لا نعثر على مسائل تتعلق بمنع الحمل. كما أننا لا نعثر على شيء حول منع الحمل غير المرغوب فيه، نظراً لشعور الناس بمشكلة تزايد السكان والانفجار السكاني.

بيد أن المرأة كانت أول من خاض غمار البحث في هذا الموضوع. ففي عام ١٨٧٧ حوكمت آني بيسان وبرئت لأنها كتبت حول خطط لتنظيم الأسرة. وفي عام ١٩١٤ نشرت مارجريت سانجر في مجلتها «ثورة المرأة» مقالة استخدمت فيها لأول مرة عبارة «تحديد النسل». غير أن قضية ماري ستوبس كانت من أشهر القضايا في هذا المجال.

ولدت ماري تشارلوت كار مايكل ستوبس عام ١٨٨٠، وكانت امرأة غير عادية، تتمتع بالجرأة، والحيوية والذكاء. كما أنها كانت تتمتع بإرادة قوية وعزم أكيد دون مراعاة للحساسيات. كانت تدرس علم النبات في جامعة مانشستر. وعندما انهارت حياتها الزوجية عام ١٩١٦، انصرفت للتفكير في مشكلات الزواج والكتابة حول ذلك الموضوع المثير للجدل، فنشرت كتابها الذي أثار الرأي العام وكان بعنوان «Married Love».

كان غرض الكتاب بحث مسألة السعادة الزوجية، ولم يكن موجهاً لمعالجة القضايا الجنسية أو وسائل تحديد النسل. بيد أن الكاتبة تطرقت لهذه الموضوعات بكل ثقة دون خوف أو وجل. وقالت: إن الجنس ليس أمراً يخص الرجل ومتعته فحسب، وإنما هو يخص المرأة كذلك. كما أن المرأة لا تجد سعادة في الجنس لأنها تخشى الحمل. ومن هنا كان تأييدها ودفاعها عن موضوع منع الحمل.

أثار هذا الكلام ضجة وصلت إلى حد النقمة والغضب العام! ورفضت التايمز



د. ماري ستوبس في منزلها

أن تعلن عن الكتاب. غير أن الكاتبة باعت من كتابها خلال أسبوعين فقط أكثر من ألفي نسخة. ثم أعيدت طباعة الكتاب ٢٦ مرة. وقد استخدمت ماري ستوبس عائدات بيع الكتاب لفتح عيادة في شمال مدينة لندن عام ١٩٢١ (آذار/مارس)، مهمة العاملات فيها تقديم النصح مجاناً للأمهات حول وسيلة منع الحمل التي كانت تقتصر في ذلك الوقت على تحميلة مهبلية تباع بسعر التكلفة.

أقبلت النساء على مراجعة العيادة من كل حدب وصوب، وخاصة من الأحياء الفقيرة في لندن. غير أن كثيرين من رجال الدين والأطباء شنوا حملة شعواء على ماري ستوبس وعيادتها. وكان على رأس هؤلاء أستاذ جامعة إدنبرة الكاثوليكي الدكتور هاليداي جبسون سوذرلاند، الذي كتب كتاباً خاصاً حول موضوع تحديد النسل. استشهد الدكتور سوذرلاند في كتابه بقول البروفسور ماكلوري الذي وصف وسيلة منع الحمل المستخدمة آنذاك بأنها خطرة. كما أنه اتهم ماري ستوبس بأنها تقوم في عيادتها بإجراء التجارب على نساء الأحياء الفقيرة. وكتب مقاطع مليئة بالاستفزاز والتحريض مثل: «ومن العجيب أن وزارة الداخلية تقف مكتوفة الأيدي إزاء هذه الحملة الشنيعة التي تقوم بها ماري ستوبس التي تؤمن بالفلسفة الألمانية».

بيد أن ستوبس قبلت التحدي، ورفعت ضد سوذرلاند قضية تشهير. وخلال المحاكمة التي استمرت ٩ أيام، وبدأت في ٢١ شباط (فبراير) ١٩٢١ تم تبادل الاتهامات من كلا الطرفين، والاستماع إلى شهادات المختصين من الأطباء. وكان القاضي في تعليقاته ومناقشته للشهود بادي التحيز ضد ستوبس وكتابها. فعندما قال الشاهد الدكتور ميريديث يونغ بأن النساء يستفدن من معرفة وسائل منع الحمل، أجابه القاضي بغضب: «ما هي الفائدة التي يمكن للفتيات الصغيرات أن يجنينها من التعرف على كيفية التحاميل المهبلية؟» ولما رد الطبيب بقوله: «إن لم يتعلمنها من الكتاب بطريقة علمية نظيفة، فسوف يتعلمنها بطريقة قذرة»، عاد القاضي يسأله: «ولكن لماذا؟» ثم أوضح أن ملايين الناس يحيون حياة طبيعية بدون حاجة إلى التعرف على وسائل منع الحمل.

غير أن الدفاع قال: بأن هذه الأمور لا تهم الرجل، ولكنها تهم المرأة، والأمهات. ووازنت ستوبس نفسها بين «المنع العلمي الحكيم» و«جرائم الإجهاض الفظيعة» التي تمارس في الأحياء الفقيرة. وأضافت: «هل نحن نجري تجارب على الفقراء؟ إن وسيلة منع الحمل التي نوصي بها مستخدمة على نطاق واسع منذ أكثر من ٤٠ عاماً ـ فأين التجارب والتجريب؟!

وبرغم أن المحلفين كانوا جميعهم من الرجال، فقد أقروا بصحة التشهير وحكموا للمدعية بتعويض قدره ١٠٠ جنيه بدل الضرر الذي ألحقه سوذرلاند بها.

لكن الدكتور سوذرلاند استأنف الحكم ورفع الأمر إلى مجلس اللوردات، ونال حكماً بالبراءة من تهمة التشهير وأعيد إليه المبلغ الذي سبق ودفعه. وهكذا خسرت ماري ستوبس الدعوى من الناحية القانونية، ولكنها ربحت الجائزة التي لا تقدر بمال عندما أصبح الحديث عن موضوع منع الحمل أمراً عادياً ولم يعد محرماً أو مكروهاً.

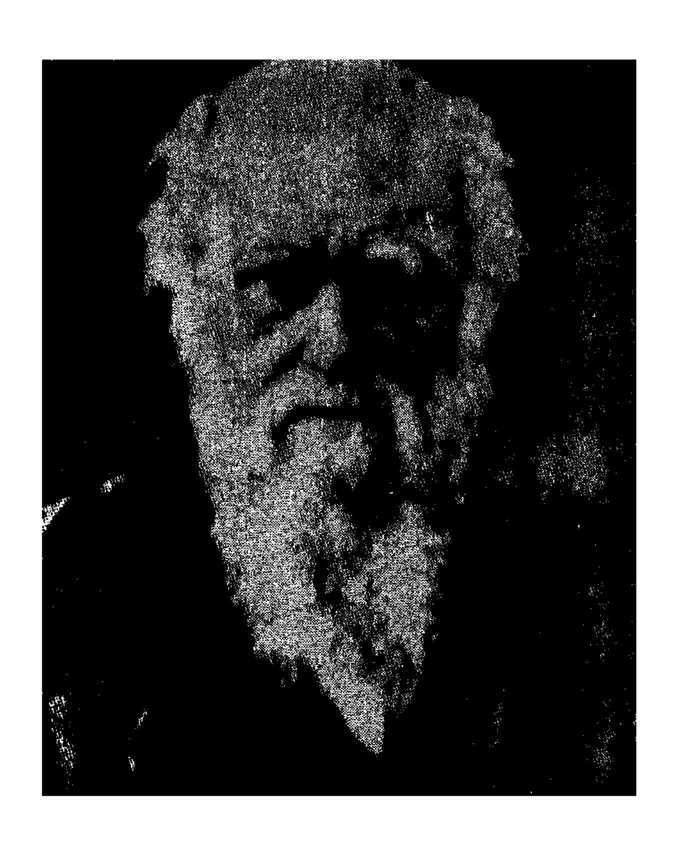
تدريس نظرية التطور

لم يكن أحد يتوقع قبل عام ١٩٢٥ أن تتم مناقشة مسألة تدريس نظرية التطور لداروين، في المحاكم. غير أنه صدر في آذار (مارس) ١٩٢٥ مشروع قانون يمنع تدريس نظرية التطور في مدارس ولاية تينسي. وكان المنع يشمل في الواقع تدريس أي موضوع يخالف ما جاء في الإنجيل حول خلق الإنسان. بيد أن معلم الأحياء في إحدى المدارس الثانوية في دايتون، ويدعى جون توماس سكوبس، صمم ـ مدعوماً من مدير المدرسة ـ على الاستمرار في تدريس موضوع التطور كما هو وارد في كتاب علم الأحياء المستخدم منذ سنوات. ومن أجل ذلك تم إلقاء القبض على المعلم، وقدم إلى المحاكمة.

تبرع المحامي كلارنس دارو للدفاع عن سكوبس، وكان في ذلك الوقت أشهر محام في أميركا. وهو الذي دافع عن القاتلين الصغيرين ليوبولد ولويب (راجع «القتل بدافع اللهو»). كان دارو في الثامنة والستين عندما تولى الدفاع عن قضية سكوبس من تلقاء نفسه: «إنها المرة الأولى، والأخيرة التي أتطوع فيها للدفاع عن قضية، لأنني أود أن أشارك فيها».

كان خصمه في قاعة المحكمة السياسي المشهور والخطيب اللامع وليام جننغز بريان الذي ترشح للرئاسة ولوزارة الخارجية ثلاث مرات أيام وودرو ويلسون. كان بريان يؤمن بكل ما جاء في الإنجيل، ولذلك ذهب إلى دايتون ليساعد الادعاء في قضية سكوبس، غير أنه أصبح هو المدعي العام الحقيقي بعد أن استأثر باهتمام الأميركيين وتركزت عليه أنظار الجميع.

بدأت المحاكمة في ١٠ تموز (يوليو) واستمرت أسبوعين. وقد وجه القاضي رولستون ضربة قوية إلى دارو منذ البداية عندما رفض السماح بسماع شهادة الخبراء العلميين الذين استعان بهم المحامي اللامع. قال القاضي بكل صراحة ووضوح: «نحن هنا لسنا في معرض محاكمة الدين أو التطور ـ نحن نحاكم معلماً انتهك نص



شارلز داروين . . منع تدريس نظريته في التطور

القانون في الولاية». كما أن القاضي منع بريان من إلقاء خطبته المطولة التي أعدها ليدحض النظرية الثورية ويفندها.

هذا، وقد بلغت المحاكمة أوجها عندما أخذ دارو يستجوب بريان حول المعنى الحرفي لما جاء في الإنجيل:

دارو: هل يؤمن السيد بريان بأن يوشع جعل الشمس تتوقف عن الحركة؟
بريان: أنا أؤمن بكل ما جاء في الإنجيل.

دارو: إن الشمس ثابتة لا تتحرك أصلاً - والأرض هي التي تدور حولها.
والآن، هـل فكرت يا سيد بريان مـاذا كان من الممكن أن يحـدث للأرض لـو توقفت فجأة عن الدوران؟

بريان: كلا.

دارو: ألا تعرف أنها كانت تحولت إلى كتلة منصهرة من المواد؟
والآن، هل يعرف السيد بريان منذ متى حدث الطوفان؟

بريان: منذ ٢٣٤٨ سنة قبل الميلاد.

دارو: ولكن الحضارات القديمة لمصر والصين ترجع في تاريخها إلى آلاف السنين قبل ذلك!.

دارو: هل تعتقد، يا سيد بريان، بأن حواء كانت أول امرأة؟

بريان: نعم.

دارو: هل تؤمن أنها خلقت من ضلع آدم؟

بريان: نعم أؤمن.

دارو: هل اكتشفت من أين حصل قابيل على زوجته؟

بريان: كلا، يا سيدي. وأنا أترك الأمر للأدريين ليبحثوا عن ذلك.

دارو: هل يؤمن بريان بصدق أن الحيات عوقبت بجعلها تزحف على بطنها؟

بريان: نعم، أنا أؤمن بذلك.

دارو: هل تعرف كيف كانت الحية تمشي قبل ذلك؟

بريان: كلا.

دارو: هل تعرف إذا ما كانت تمشي على ذيلها أم لا؟!

بريان: كلا يا سيدي، لا أملك وسيلة لمعرفة ذلك.

لقد انتهت المحاكمة في ٢١ تموز (يوليو) بإدانة سكـوبس وتغريمـه ١٠٠ دولاراً، غير أن بريان تم إذلاله تماماً. وهذا ما كان يريده دارو الذي أسرع بـرفع القضيـة إلى محكمة الاستئناف حيث أتيح له هناك كسب القضية بعد السماح لـه بالاستعـانة بـرأي الخبراء العلميين.

وهكذا انتصر دارو، وأصبح بـإمكان سكـوبس وجميع معلمي الأحيـاء تدريس نظرية التطور. بيد أن دارو حزن عندما علم أن خصمه بريان مرض في آخر يـوم من أيام المحاكمة التي جرت في دايتون، وأنه توفي بعد ذلك بخمسة أيام فقط.

سبق السّيف العذل

كان كاريل تشسمان في ٢٧ عندما اتهم بخطف فتاتين، وحكم عليه عام ١٩٤٨ بالإعدام، وفقاً لقانون ولاية كاليفورنيا. وكانت هذه الولاية قد أصدرت قانوناً بإعدام الخاطف، وذلك بعد حادثة خطف ابن الطيار المشهور لندنبيرغ. غير أن الخطف يعني طلب فدية وإلحاق الأذى بالمخطوف.

حاول تشسمان دون جدوى تبرئة نفسه من التهمة فقال: بأنه بريء، وأن الفتاتين خلطتا بينه وبين الخاطف الحقيقي. ثم قال: بأنه على افتراض أنه هو الخاطف فإنه لم يطلب فدية، ولم يلحق الأذى بالفتاتين. غير أن المدعي العام قال: بأنه أخذ من إحدى الفتاتين ٥ دولارات، وأنه نقل الفتاتين بسيارته رغم إرادتهن، وهذا يكفي لتأكيد تهمة الخطف.

بقي تشسمان في السجن ١٢ عاماً تأجل خلالها موعد تنفيذ حكم الإعدام ٩ مرات، وشهدت الأمة خلالها ازدهار موجة الروك أند رول، وبدء الحرب الكورية وانتهائها، علاوة على إرسال أول قمر صناعي إلى الفضاء. غير أن تشسمان لم يضع وقته عبثاً خلال تلك السنوات، فقد عمل على تثقيف نفسه، وكتب ثلاثة كتب ذاع صيتها وبيعت نسخها على نطاق واسع.

وفي ربيع عام ١٩٦٠ ظهر تشسمان على غلاف مجلة التايم، وشغلت قضيته الناس على جانبي المحيط، في أميركا وأوروبا على السواء. وأخذ الناس يتحدثون عن مساوىء عقوبة الإعدام ويطالبون بإلغائها. وكانت في ذلك الوقت تسع ولايات في أميركا قد ألغت عقوبة الإعدام. كما كان حاكم كاليفورنيا آنذاك، براون، يتطلع إلى إلغاء تلك العقوبة بدوره. وعندما حان الموعد الأخير لتنفيذ حكم الإعدام بتشسمان، أجّله الحاكم ٦٠ يوماً أخرى. وخلال تلك الفترة دار نقاش طويل بين مؤيدي عقوبة الإعدام ومعارضيها من أعضاء مجلس الولاية. وقبل موعد تنفيذ الحكم الذي كان مقرراً في ٢ أيار (مايو) ١٩٦٠ تجمعت مظاهرات الاحتجاج على إعدام تشسمان خارج سجن الولاية، وكان بين المحتجين الممثل الناشيء مارلون براندو. كما أن حاكم



تشسمان أمام كتبه الثلاثة

الـولاية تلقى أيضـاً سيلاً من العـرائض التي تطالب بعـدم إعدام تشسـمان، وبـإلغـاء عقوبة الإعدام كلية. وكان بين الموقعين على تلك العرائض شخصيـات معروفـة أيضاً مثل بارجيت باردو، وبابلو كاسالس، والدكتور ألبرت شويتزر.

وقبل تنفيذ العقوبة بـ ١٢ دقيقة فقط توصل المجلس الأعلى لولاية كاليفورنيا إلى إلغاء عقوبة الإعدام في الولاية بأربعة أصوات ضد ثلاثة. وعند صدور القانون أسرع القاضي في سان فرانسيسكو بتكليف سكـرتيره بـالاتصال هـاتفياً بسجن سـان كونتـين لإيقاف تنفيذ عقوبة الإعدام بتشسمان. غير أن السكرتير اتصل بـرقم خطأ. وفي هـذا الوقت كانت إجراءات الإعدام قد بدأت. وهكذا مات كاريل تشسمان في تمام الساعة ١٠ صباحاً داخل حجرة الغاز في سجن سان كـونتين. ولقـد بكته الجـماهير المحتشـدة خارج السجن، ونعته في اليوم التالي الصحف في أميركا وكثير من بلدان العالم الأخرى وأبدت أسفها لإعدامه.

وقبل موته كتب تشسمان عدة عبارات أكد في بعضها على براءته: «لقد قمت خلال حياتي بعدة جرائم، لكنهم يأخذون حياتي مقابل جريمة لم أرتكبها». كما كتب يعبر عن رأيه بعقوبة الإعدام، ويتمنى على المسؤولين إلغاءها. وطالب أنصاره ومؤيديه بمتابعة السعي لإلغاء هذه العقوبة المجحفة، في كل مكان.

جنايـة دواء

في أواخر الخمسينات صنّعت شركة أدوية ألمانية عقار الثاليدومايد الذي بيـع في جميـع أنحاء العـالم تحت ٥٠ اسماً مختلفـاً. ففي بريـطانيا ظهـر في الصيـدليـات بـاسم «ديستافال»، أو «تنسيفال»، أو «أسمافال». وكان الأطباء يصفونـه عادة لتخفيف القلق والتوتر لدى الحوامل، وهو في الأصل عقار مهدىء ومنوم.

إن النتائج التي نجمت عن خطأ السماح ببيع ذلك العقار كانت مـروعة. ذلـك أنه تبين فيها بعد أن المرأة الحامل إذا أخذت ذلك الدواء بين الأسبوع الرابع والسادس من بداية الحمل ـ وهي فترة تكوّن أطراف الجنين ـ فإن الجنين يولد مشوه الأطـراف أو بـدون أطـراف. فقـد ولـد بعض الأطفـال بـدون يـدين، وبعضهم بـدون رجلين، وبعضهم جاء بدون يـدين ولا رجلين معاً. وهكـذا شهدت أوروبـا بشكل خـاص في الفترة بين عام ١٩٥٩ وعام ١٩٦٢ ولادة ٨ آلاف طفل مشوه.

في بريطانيا وحدها ولد ٤٠٠ طفـل مشوه، وقـد تم سحب الدواء من الأسـواق في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦١. وبعد عام واحد رفعت أول عائلة في بريطانيـا دعـوى قضائيـة على الشركـة الموزعـة للعقار في بـريطانيـا (شركـة ديستلرز المحـدودة) تطالبها بالتعويض. وبعد ذلك توالى رفع الدعاوي ضـد تلك الشركة بحيث بلغت في وقت قصير ٦١ دعوى. غير أن تلك الدعاوى لم تصل إلى المحاكم إلا في عام ١٩٦٧.

عرضت الشركة تعويضات على المدعين إن هم أسقطوا دعـاواهم ضدهـا. وقد وافق الآباء بعد أن تم نصحهم بقبول عرض الشركة ومصالحتها، وذلك لسببين: أولاً لأن القانون لا يعتبر الجنين ذي الستة أسابيع «شخصاً» تم إلحـاق الأذى به. ثـانياً لأن تهمة الإهمال ربما لا تثبت على الشركـة وبذلـك يخسرون القضية ولا يحصلون عـلى أي تعويض. علاوة على أن الإجراءات القضائية قد تطول سنوات وسنوات.

بيد أن المشكلة كانت في تقدير كمية التعويض. وبعد كثير من الأخذ والرد بـين محامي الشركة ومحامي العائلات المتضررة قبلت الشركة بـدفع مليـون جنيه للعـائلات

المتضررة. عنـد ذلك ارتفـع عدد المـدعين إلى ٣٠٠ عـائلة. وفي عام ١٩٧١ عـرضت الشركة استعدادها لدفع ٣ ملايين وربع المليون جنيه لتمـويل مؤسسـة خيريـة لرعـاية الضحايا خلال ١٠ سنوات بشرط ألا يطالبها أحد بعد ذلك بأية تعويضات.

وافق معظم الآباء على تلك الفكرة باستثناء ست عائلات رأت في ذلك العرض إجحافاً بحقوق أبنائها المشوهين. غير أن بقيـة العائـلات ادعت على العـائلات الست أمام القضـاء بحجة أنها تسيء إلى مصلحة أبنائهم. وقـد ربحت ٥ عائـلات الدعـوى أمام القضاء في عام ١٩٧٢ مما حدا بالشركة إلى العودة للتفاوض حول حـل يتم خارج قاعات المحاكم. ويومها بدأ رئيس تحرير الصنداي تايمز، هارولد إيفانز، حملة لصالح العائلات المتضررة، افتتحها بمقالة كتبها يوم ٢٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢ تحت عنوان: «الثاليدومايد وأطفالنا المشوهون ـ وصمة عار في جبين أمتنا».

هاجم إيفانز القضاء الذي يسمح باستمرار المعارك القضائية طوال عشر سنوات دون اعتبار لمعاناة العائلات المتضررة وأطفالهـا المشوهـين. كما هـاجم الحكومـة التي لم تفتح تحقيقاً في المسألة منذ أول أيام ظهـورها. وأخيـراً هاجم الشركـة قائـلاً: «إن كل أموال الدنيا لا تعوض طفلاً عن فقد أطرافه، لكن منحة سخية على الأقل قد تساعـد الضحـايـا في أن يحيـوا حيـاة عـاديـة. لقـد فشلت شركـة ديستلرز في إظهـار كـرمهـا وسخائها، لأن الضحايا يستحقون أكثر بكثير مما عرضته عليهم».

استمـرت الحملة عـدة أسـابيـع، وانتقلت العـدوى إلى صحف أخـرى، وإلى الإذاعـة والتلفزيـون. وأثبتت الحملة نجاحهـا عندمـا عرضت الشركـة في عام ١٩٧٣ استعدادها لدفع تعـويضات تقـدر بعشرين مليون جنيـه، وهو مبلغ رضي بـه الآباء، ووافقت عليه المحكمة العليا، وراق للصنداي تايمز نفسها.

وهكـذا أتيح لأطفـال الثاليـدومايـد أن يحيوا حيـاة طبيعيـة، وأصبحت قصص شجاعتهم وإنجازاتهم مضرب المثل. ففي عام ١٩٧٨ وضعت أول فتـاة منهم، بدون ذراعين، طفلة. وفي عام ١٩٧٩ فاز أحد الضحايا بحزام البطولـة في الكاراتيـه. بعد ذلـك أخذت الصحف تتنـاقل أخبـار نجاحـاتهم: فهذا أحـدهم يحصل عـلى وظيفة، وذاك ينجح في اختبار القيادة ويحصل على إجازة قيادة سيارة. وهكذا...

أما هارولد إيفانز فقد تم منحه ميدالية ذهبية في عـام ١٩٧٩ جزاء شجـاعته في حملته الناجحة لإنصاف ضحايا العقار الجاني.

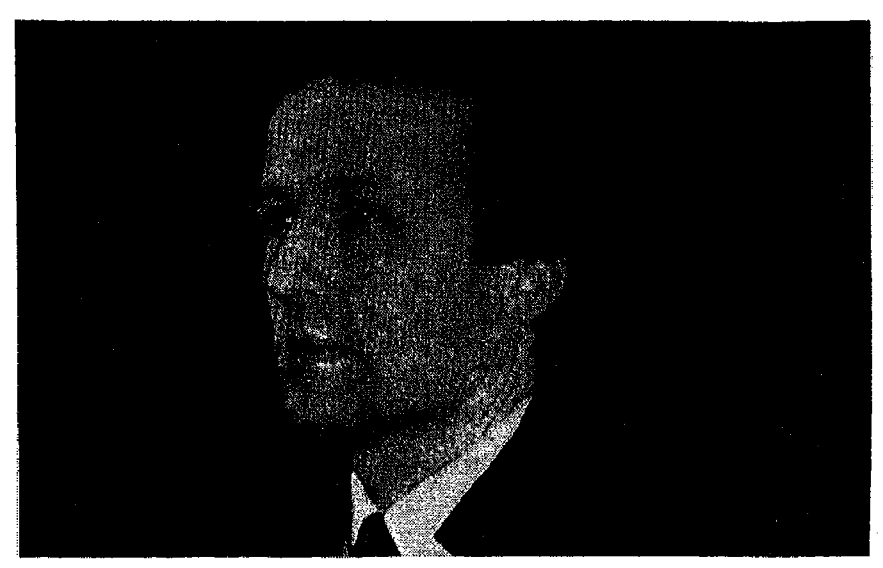
لا، أيها الوزير

في تمام الساعة السابعة مساء يوم ٢ أيار (مايو) ١٩٨٢ تم إغراق أكبر ثاني سفينة حربية أرجنتينية (بلجرانو ـ Belgrano) من قبل غواصة بريطانية تسير بالطاقة النووية. وقد غرق مع تلك السفينة ٣٦٨ رجلاً. وكانت تلك أول أكبر خسارة بالأرواح تشهدها حرب فوكلاند. وقد أثارت تلك الحادثة الرعب في جميع أرجاء العالم بما في ذلك الدول المؤيدة لبريطانيا في الصراع. أما الأرجنتين فقد ردت بإغراق المدمرة البريطانية (شفيلد). وبذلك تبخرت الآمال بإجراء مفاوضات بين الطرفين المتنازعين، وتم الاحتكام للسلاح.

وطُرح السؤال: لماذا أُغرقت بريطانيا البلجرانو؟ لقد أعلنت بريطانيا عن منطقة معزولة حول جزر فوكلاند. غير أن البلجرانو كانت خارج تلك المنطقة، بل وكانت تتجه بعيداً عنها.

قال المسؤولون البريطانيون أن البلجرانو كانت قريبة من المنطقة المحرمة، وأنهم شاهدوها لأول مرة يوم ٢ أيار (مايو). ثم عادوا وقالوا أنهم شاهدوها لأول مرة يوم ١ أيار (مايو) وقد أيدت السيدة تاتشر الرواية الثانية. ولم تقنع جميع تبريرات الحكومة المعارضين. واستمرت التساؤلات بعد انتهاء الحرب. ثم أثيرت المسألة في البرلمان. وتم استدعاء مساعد وزير الدفاع، الشاب الموهوب كليف بونتنغ للرد على أسئلة النواب.

كان بونتنغ في الثامنة والثلاثين من العمر، وكان من أقربْ مستشاري وزير الدفاع مايكل هاسلتاين. وقد أعد تقريراً خلاصته أن الحكومة ليس لديها ما تخفيه، وأن إغراق البلجرانو تم خشية تدخلها في الحرب وتهديدها للقوة البحرية البريطانية. ولما أخذت أسئلة النواب تضغط على الحكومة، وتتهمها بأنها ضللت الشعب ونواب الشعب في تبريراتها لإغراق السفينة الأرجنتينية، كان على بونتنغ أن يختار بين ولائه للحكومة أو ولائه للبرلمان. وقد اختار أن ينحاز لنواب الشعب والبرلمان، وقام بتسريب وثيقتين إلى تام داليل أحد أشد منتقدي إغراق البلجرانو.



كليف بونتنغ

اعترف بونتنغ لرؤسائه بأنه هو الذي سرب المعلومات لداليبل، وعرض أن يقدم استقالته من منصبه، غير أن الاستقالة رفضت. وتم بدلاً من ذلك تقديمه إلى المحاكمة بتهمة إفشاء أسرار رسمية. وتحول الأمر إلى نقاش حول شرعية حرية إفشاء المعلومات.

افتتحت أولى جلسات المحاكمة في ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥. وقد قال بونتنغ منذ البداية أنه غير مذنب بإفشاء أسرار رسمية. كما أن الدفاع عنه أوضح منذ اليوم الأول أن «هذه ليست حالة تجسس. وإنما هي مسألة تدور حول الكذب أو محاولة تضليل البرلمان». وقال الادعاء أن بونتنغ لم يهدد الأمن القومي للبلاد، لكنه خرق قانون السرية وأفشى أخباراً لشخص غير مسؤول.

استمرت المحاكمة لمدة أسبوعين، رفض خلالها القاضي نقل الجلسات على شاسة التلفزيون (القناة ٤). غير أن وسائل الإعلام ظلت تتابع المحاكمة وأخبارها باهتمام، وتعرض لقطات موجزة منها. كما أن القاضي أنذر داليبل بإدخاله السجن إن هو ظل يتحدث خارج المحكمة عما يدور في داخلها.

لقد شهد كثيرون إلى جانب بونتنغ. وكان الأخير في غاية الشجاعة عندما قال: بأن «الوزراء يبعثون بوثائق مضللة إلى البرلمان». غير أن القاضي أعلن في اليوم العاشر أن «مصلحة الدولة، وسياسة الحكومة هما شيء واحد. وسواء كانت سياسة الحكومة خطأ أم صواب، كان ينبغي عدم تقديم أية معلومات تتعلق بإغراق البلجرانو». ثم طلب من المحلفين أن ينسوا أخلاق المتهم الحميدة، ويتوقفوا عن التعاطف معه مهما كانت ميولهم السياسية لأن تسريب الأنباء عن إغراق البلجرانو كان ضد مصلحة الدولة.

وهكذا بدا أن الإدانة أمر محتوم، غير أن المحلفين تشاوروا لمدة ثلاث ساعات، وعادوا ليقولوا بأن بونتنغ ليس مذنباً. وقد سعد بونتنغ بذلك القرار، وقال: بأنه كان «مفاجأة هائلة» بالنسبة إليه. ثم أضاف وسط صيحات الاستحسان والتهليل: «لقد فعلت ما فعلت لأنه كان الشيء الصحيح. وبرغم كل الضغوط وقف معي ١٢ محلفاً، وأيدوا ما فعلته».

بعد ذلك كتبت الصحف تطالب بحرية الإدلاء بالمعلومات، وهاجمت الوزراء الذين يناورون ويخدعون نواب الشعب في البرلمان. كما أن السيد كينوك، زعيم المعارضة وقف في البرلمان واتهم السيدة تاتشر بأنها هي التي أوعزت بمحاكمة بونتنغ. ولما أنكرت رئيسة الوزراء ذلك، رد كينوك قائلاً بأنه لا يصدقها. عند ذلك ثار أنصار الحكومة، وغضبت السيدة تاتشر وطالبت كينوك بالاعتذار. وكان أنصار الحكومة قد احتجوا على قرار المحلفين واتهموا بعضهم بالتحيز. لكن الشعب البريطاني، والصحافة البريطانية أيدت قرار المحلفين ووقفت إلى جانب بونتنغ. ويومها وضعت التايمز في صدر صفحتها الأولى كاريكاتيراً كتبت تحته بكل بساطة: «ليس مذنباً ـ هذا هو القرار!»

الدكتـور جيكـل الحقيقـي

أصبح الدكتور جيكل أسطورة خيالية باقية. فهو العـالم الوقـور في النهار الـذي يتحـول ليلاً إلى وحش منحرف. والكاتب روبـرت لويس ستيفنسـون عندمـا نشر في عام ١٨٨٦ «الحالة الغريبة للدكتور جيكل والمستر هايد» كان يستوحي كـابوسـاً رآه في المنام عقب تناوله جرعة مركزة من الدواء. وكان ستيفنسون قد سمع من مربيته، منـذ طفولته، قصة وليام برودي الذي عاش حقيقة قبل مائة عام وكان يتحول في الليل إلى لص مجـرم. وقد كتب ستيفنسـون بالتعـاون مع هنـلي عام ١٨٨٢ مسـرحيـة بعنـوان: «ديكون برودي أو الحياة المزدوجة». فما هي قصة برودي هذا؟.

ولد وليام برودي عام ١٧٤١، وكان والده نجار موبيليا ميسور الحـال. وعندمـا بلغ وليام الأربعين من عمره أصبح رئيس نقابة النجارين، وعضواً بلدياً كبير النفـوذ. بيد أنه كانت لبرودي أيضاً حياته السرية: كان عازباً ينفق على عشيقتـين وخمسة أبنـاء غير شرعيين. وكان مقامراً كبيراً يهوى كذلك المراهنة على ضراع الديكة. لكن فسـاده تعـدى هذه الحـدود بكثير، إذ كـان يقف أيضاً خلف السرقـات التي انتشرت فجأة في أدنبرة صيف عام ١٧٨٦.

بـدأت عمليات السـطو في إحدى ليـالي شهر آب (أغسـطس) عندمـا تم سرقة ٨٠٠ جنيـه أسترليني من أحـد البنوك. وقـد أعقب ذلك مـوجـة من سرقـة المحـلات التجارية. وحتى جامعة أدنـبرة المشهورة لم تسلم من السرقـة، حيث سُرق من مكتبتها ذات ليلة صولجان فضي أثري يرجع تاريخه إلى ما قبل ٣٠٠ سنة.

استمـرت موجـة السرقـات حتى مسـاء يـوم ٨ آذار (مـارس) ١٧٨٨، عنـدمـا ارتكبت العصـابة خـطأها المميت بمحـاولة السـطو عـلى المكتب الـرئيسي للضرائب في اسكتلندة. في تلك الليلة عاد المحامي جيمس بونار إلى المكتب لأخذ بعض الأوراق، ففوجىء بوجود شخص في أحد الممـرات يرتـدي معطفـاً أسوداً وقبعـة سوداء. وبعـد لحظات سمع صفيراً أعقبه خروج شخصين من المبنى.

وفي اليوم التالي كـانت إدنبرة تتحـدث عن محاولـة سرقة مكتب الضرائب. ومـا

هي إلا أيام حتى تقدم أحد اللصوص، ويدعى جون براون، ليدلي باعترافه مقابل وعد بالعفو عنه. قال براون: إن عصابة السرقة تتكون منه ومن إنسلي وسميث وشخص رابع يشغل منصباً مرموقاً في المدينة. ولما أدرك برودي أن أمره كاد يفتضح، هرب إلى لندن، ثم إلى استند ومنها إلى أمستردام حيث تم العثور عليه مختبئاً داخل خزانة في انتظار السفر إلى نيويورك. وقد وشى به جورج سميث مقابل مكافأة مقدارها ٢٠٠ جنيه.

أُعيد برودي إلى أدنبرة ليواجه تهمة السطو المسلح على مكتب الضرائب هناك. بدأت المحاكمة في آب (أغسطس) ١٧٨٨ وسط قاعة مكتظة بالمشاهدين. وكان برودي يبدو واثقاً من البراءة بعد أن وكّل المحامي المشهور هنري أرسكين للدفاع عنه. بيد أن القاضي اللورد براكسفيلد كان أشهر قاض في تاريخ اسكتلندة.

كانت الأدلة ضد برودي دامغة: مسدسات وجدت في منزله، وهربه، واعتراف شركائه ضده. ومع أن سميث تراجع عن اعترافاته، فإن أنسلي وبراون قدما اعترافات تفصيلية مقابل وعود بالعفو. حاول محامي الدفاع أن يلغي شهادة براون بحجة أنه كان له سجل إجرامي سابق، غير أن الدفاع أوضح أن براون نال عفواً وأُلغي سجله الإجرامي.

أوضح أنسلي وبراون أن برودي هو الذي خطط لسرقة مكتب الضرائب، وكان بحكم مركزه يتردد نهاراً على المكتب ويعرف الكثير من أسراره. كما أنه ليلة الحادثة تنكر بملابس خاصة وبشعر مستعار كان لوالده، وأحضر معه دليلاً مزيفاً للتضليل تركه في أرض المكتب ليوحي للمحققين أن اللصوص قدموا من مكان بعيد. كما أن العصابة كانت مسلحة بمسدسات.

حكم القاضي على برودي وسميث بالإعدام «شنقاً حتى الموت». وكان برودي يمازح زواره ويأمل بتخفيف العقوبة. وعندما حان موعد تنفيذ الحكم وسألوه عن وصيته، طلب أن يسمح لأصدقائه بأخذ جثته مباشرة لدفنها دون تأخير. وكان قد رشا الجلاد ليسمح له بارتداء طوق معدني تحت ياقة قميصه. وفي الموعد المحدد صعد برودي إلى منصة الإعدام أمام ٤٠٠ ألف شاهد. وبعد أن تدلت جثته أسرع رفاقه بأخذها ـ حسب وصيته ـ إلى دكانه حيث كان ينتظره أحد الأطباء لإنعاشه إن لزم الأمر. غير أن برودي عندما وصل الدكان كان جثة هامدة لم يستطع الطبيب لها شيئاً.

قضيـة غــش

في ليلة ٨ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٠ ضُبط الإقطاعي الكبير، السير وليام جوردون ـ كـومنغ وهـو يغش في لعب الورق! وأين؟ بحضـور ولي عهد بـريطانيـا، أمير ويلز! وانتشر الخبر في أوساط الطبقة الراقية انتشار النار في الهشيم!

ففي تلك الليلة تجمع لخبة من علية القوم، بينهم ولي العهد، إدوارد السابـع، في منزل الثري السير آرثر ويلسـون، وبدأوا يلعبـون البكارة عقب الانتهـاء من تناول العشاء. وكان ولي العهد يحب هذا النوع من القمار، بعكس المضيف الـذي لم يشارك في اللعب، ولم يكن راضياً عن ممارسة تلك اللعبة السيئة الصيت في منزلـه. وكان ابن ويلسون الشاب ستانلي من بـين المتفرجـين، فشاهـد السير وليـام وهو يستبـدل بعض الأوراق، وأسر الخبر إلى زميله بيركلي ليفيت الذي شاهد بدوره ما يحدث.

ما العمل؟ لقد كتم الشابان الأمر، غير أن ستانـلي أخبر والـدته، وبـاح بيركـلي بالسر لزوجته وشقيقها. وفي اليوم التالي (٩ أيلول/ سبتمبر) انعقدت حلقـة القمار من جديد بعد العشاء تحت أنظار ثلاثة شهود جدد. وتأكد جميع الشهـود أن الوغـد يغش حقاً. وقد ربح في تلك الليلة ٢٢٨ جنيهاً معظمها من صديقه الشخصي، أمير ويلز.

وفي اليـوم الثـالث تم إبـلاغ الخـبر لـلأمـير نفسـه وللجنـرال وليـامس واللورد كوفنتري. واتفق الجميع على عدم إثارة ضجة حول الموضوع منعاً للفضيحة. بيد أنهم أجبروا السير وليام على توقيع تعهـد بالامتنـاع عن اللعب. وقد ثـار في البدايـة وأنكر التهمة، ثم رضخ بعد مواجهته بالشهود المحايدين، ووقع التعهد التالي:

«أتعهد بأن لا ألعب الورق طوال حياتي مقابل سكوت السادة الموقعين أدناه عن التهمة الموجهة إليّ حول سلوكي أثناء لعب البكارة ليلتي الاثنين والثلاثاء ٨ و ٩ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٠ في منزل السيد آرثر ويلسون في ترانبي كروفت».

بيد أن الأنباء سرعان ما تسربت إلى المجتمع، وعرف الناس بموضـوع التعهد. كما أنهم علموا بأن ولي العهد يلعب لعبة البكارة الممقـوتة. ولكي يـبرىء السير وليـام

نفسه من الفضيحة التي اقترنت باسمه رفع دعوى تشهير على الشهود الذين اتهموه بالغش.

بدأت المحاكمة في شهر حزيران (يونيو) ١٨٩١، ووكل السير وليام المحامي إدوارد كلارك (الذي ترافع فيها بعد عن أوسكار وايلد) للدفاع عنه. قال المحامي السيد إدوارد: إذا كان السير وليام قد غش فلماذا تم السكوت عنه؟ ولّما ووجه بالتعهد الموقع من قبل السير وليام أجاب: بأن موكله رضي بالتوقيع على مضض تحت إلحاح ونصح اللورد كوفنتري والجنرال وليامس ليمنع فضيحة تمس أمير ويلز. كما أن التعهد صيغ بعبارات غامضة، وليس فيه اعتراف صريح بالذنب.

لقد تم استدعاء الأمير للمثول أمام المحكمة والإدلاء بشهادته وسط دهشة الجمهور وتعجبه. لقد وقف ملك بريطانيا القادم في منصة الشهادة وشهد بما يلي: «لقد أجمع الشهود على الاتهام، فلم يتركوا لي خياراً سوى تصديقهم». وبعد أقل من ربع ساعة من المداولة رفض المحلفون تهمة التشهير، فدمغوا بذلك السير وليام بتهمة الغش التي أعقبتها مجموعة إجراءات مهينة مثل: تقديم استقالته من الجيش، وطرده من أربعة نواد في لندن، وعدم دعوته للحفلات والمناسبات الرسمية. وهكذا تم عزل السير وليام جوردون ـ كومنغ اجتماعياً، منذ ذلك الحين وحتى وفاته عام ١٩٣٠ في إحدى مقاطعاته الإسكتلندية.

هل كان السير وليام مذنباً حقاً؟ إن محاميه السير إدوارد كلارك يؤكد براءته. بل ويتهم القاضي كولردج بالتحيز. وقد أشيع أيضاً أن أمير ويلز كان ناقماً على السير وليام لأن الأخير أغوى إحدى عشيقاته. ومهما كانت الحقيقة، فإن فضيحة القمار تلك كشفت أمام الجميع أن السادة الكبار ليسوا بالضرورة سادة ولا كباراً!

أطول محاكمة شهدتها بريطانيا

في نيسان (إبريل) ١٨٥٤ غادر السير روجر تشارلز داوتي تيكبورن ريو دي جانيرو على متن سفينة فقدت فيها بعد ولم يعرف مصيرها. غير أن والدة السير روجر، الليدي تيكبورن رفضت أن تصدق موت ابنها. وبعد انتظار نحو ٩ سنوات بدأت في عام ١٨٦٣ تعلن عن اختفاء ابنها في جميع أرجاء العالم. وقد قرأ المهاجر المفلس السيد آرثر أورتون الإعلان في الصحف الأسترالية، فاتصل بالليدي تيكبورن يخبرها أنه هو ابنها المفقود، ويطلب منها بعض المال ليوافيها في باريس حيث تعيش.

كان السير روجر وريث إقطاعية تدر ٢٤ ألف جنيه في السنة. وكان عندما فُقد نحيل العود يزن أقل من ١٢٦ رطلاً. أما أورتون فكان عندما ظهر على مسرح الأحداث سميناً يزن ٣٧٨ رطلاً. وبرغم الفروقات الأخرى في الشكل والطباع بين الاثنين، فقد صمم أورتون على ركوب المغامرة وطار إلى أوروبا بعد استلامه المبلغ الذي بعث يطلبه من الليدي تيكبورن.

أبحر أورتون عام ١٨٦٦ ميمماً شطر إنكلترا، حيث وصلها يوم عيد الميلاد. وفي ١٠ كانون الثاني (يناير) وصل باريس التي شهدت اللقاء التاريخي بين الأم المفجوعة بفقد ابنها و«الابن» العائد إلى أحضانها بعد طول غياب. ذهبت الليدي تيكبورن مع محاميها إلى الفندق الذي ينزل فيه أورتون في باريس، فوجدته متوعك الجسم مستلقياً على السرير ووجهه إلى الحائط. وبرغم أنه لم ينطق كلمة واحدة، تقدمت الليدي تيكبورن منه وقبّلته قائلة: «إنه يشبه والده، وأذناه مثل أذني خاله».

كان الأمل الكاذب هو دافع المرأة لتصديق ذلك المحتال والوقوف إلى جانبه. أما جميع الأقارب فقد أنكروه. غير أن أورتون وجد بعض المرتزقة يقفون إلى جانبه أيضاً. كما أن غياب ١٢ سنة ليس فترة قصيرة، ومن المحتمل أن تتغير خلالها أشياء كثيرة. ثم من يعرف الابن أكثر من أمه؟!

كانت أملاك آل تيكبورن قد آلت إلى الصبي هنري تيكبورن، فجاء أورتون



ليدي تيكبورن



آرثر أورتون

يقاسمه تلك الأملاك بكل جرأة ووقاحة. غير أن أقارب هنري قاوموا ادعاء أورتون، ورفعت المسألة إلى القضاء في آذار (مارس) ١٨٦٧. لكن المحاكمة لم تبدأ إلا بعد أربع سنوات، استطاع أورتون خلالها جمع معلومات عن الابن المفقود ورشا خادمين ممن كانوا يعملون في خدمة السير روجر. وقد زوده الرجلان بمعلومات لا تقدر بثمن جعلت ٣٠ ضابطاً من رفاق السير روجر في الجيش يشهدون أن أورتون هو حقاً السير روجر. ومن سوء حظ أورتون أن الليدي تيكبورن توفيت قبل بدء المحاكمة في ١١ أيار (مايو) ١٨٧١. بيد أن أورتون عوّض عن ذلك بحشد ١٠٠ شاهد على استعداد للشهادة إلى جانبه.

حفظ أورتون دوره جيداً، وكدس الأدلة لصالحه. ومثله فعل خصومه. وخلال استجواب أورتون الذي استمر ٢٢ يوماً لم يكن المدعي العام يعرف من أين يبدأ. وشهدت المحاكمة كثيراً من الاستطراد والتشتت والغموض. ومع ذلك، تلقى أورتون كثيراً من الضربات، والصفعات.

فمثلاً، كان السير روجر يتكلم الفرنسية بطلاقة، ولم يكن المدعي يعرف كلمة فرنسية واحدة. وكان السير روجر مثقفاً تلقى تربية كلاسيكية في ستونيهيرست، أما أورتون فكان لا يكاد يعرف شيئاً من الآداب الكلاسيكية. وقد أثار ضحك الجمهور أكثر من مرة عندما كان يرد على أسئلة حول فرجيل وبعض الكتاب الآخرين. كما أنه تلقى صفعة مدمرة عندما سؤل عن اسم والدته: كانت الليدي تيكبورن قد وقّعت

أول رسالة بعثت بها إلى أورتون في أستراليا بالأحرف الأولى من اسمها: هـ. ف. تيكبورن. وعندما سؤل خلال المحاكمة ماذا يعني الحرفان هـ. ف. أجاب: «حنة فرانسيس». وكان الجواب الحقيقي الذي لم يتحر عنه المغفل أورتون هو «هنرييت فيلسته».

وأخيراً جاءت الضربة القاضية عندما شهد أحد أصدقاء المفقود منذ أيام الدراسة أن السير روجر كان له وشم على ذراعه اليسرى. وبالطبع كان أورتون يفتقد هذا الدليل. ولذلك انهارت قضية أورتون كلية بعد ١٠٣ أيام من بدء المحاكمة.

غير أن القضية لم تقف عن هذا الحد. فقد تم القبض على آرثر أورتون بتهمتي حلف اليمين الكاذب والتزوير. واستمرت المحاكمة هذه المرة ١٨٨ يوماً، وأثارت ضجة أكثر من الأولى. وفي هذه المرة قدم أورتون شاهد زور جديد يدعى لوي شهد بأنه كان على السفينة المفقودة وأنقذ ٦ أشخاص كان السير روجر أحدهم. ولكن سرعان ما تبين أن لوي كان محتالاً محترفاً وله سجل طويل لدى دائرة الشرطة.

وبالنتيجة، فإن القضية التي استغرق بحثها ١٠٢٥ يوماً، لم تأخذ من المحلفين سوى ٣٠ دقيقة ليحكموا فيها بإدانة آرثر أورتون بتهمة الحلف الكاذب، مما دعا القاضي إلى الحكم عليه بالسجن ١٤ عاماً مع الأشغال الشاقة. ومن حسن حظ الجميع أنه تم إسقاط تهمة التزوير، وإلا لاستمرت المحاكمة زمناً أطول بكثير. . .

قصة بروفيومو وكرستين كيلر

كان الرسام وطبيب العظام الناجح ستيفان وارد في الخمسين من عمره عندما تمت محاكمته عام ١٩٦٣ بتهمة إدارة بيت للدعارة. وكان الدكتور وارد قد استأجر كوخاً ريفياً من صديقه ومريضه اللورد أستور في مقاطعة كليفدن. وفي صيف عام ١٩٦١ دعا أستور وزير الحربية في حكومة المحافظين، جون بروفيومو، لحضور حفلة في كليفدن. وعندما وصل بروفيومو إلى هناك وجد لدى وارد ضيوفاً منهم الملحق البحري الروسي الكابتن إيفانوف، وفتاة تدعى كرستين كيلر. وسرعان ما نشأت علاقة عابرة بين وزير الحربية البريطاني والفتاة الشابة كيلر.

بعد ذلك ذاع اسم كرستين كيلر عقب حادثة إطلاق نار حدثت بين عشاقها. ويومها أخذ الصحافيون يجرون الأحاديث والمقابلات معها، فكشفت عن حياتها الخاصة وصرحت بأنها نامت مع وزير الحربية بروفيومو، ومع الملحق البحري في السفارة الروسية، إيفانوف. ويومها استدعي بروفيومو في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٦٣ للمثول أمام مجلس العموم والإدلاء بإفادته حول ما يشاع عن علاقته بكرستين كيلر، حيث أنكر وجود مثل تلك العلاقة.

غير أن الصحافة لم تسكت، وتابعت الحملة على وزير الحربية متسلحة بأقوال كيلر نفسها مما دعا الوزير إلى تقديم استقالته والاعتراف بأنه كذب أمام مجلس العموم. لقد هزّت الفضيحة حكومة ماكميلان. غير أن الأنظار تركزت على الدكتور ستيفان وارد الذي يجمع في منزله بين بائعات الهوى وبين الوزراء والدبلوماسيين وأصحاب النفوذ.

أخذ رجال الشرطة يحققون مع وارد، فتبين لهم أنه استأجر شقة أيضاً لبائعة الهوى ماندي رايس ـ دافيز التي كانت عشيقة للثري بيتر راتشمان. كما تبين لهم أن وارد كان يأخذ الأموال من كرستين وماندي، فوجهوا إليه تهمة الإتجار بالدعارة وأحالوه إلى القضاء.



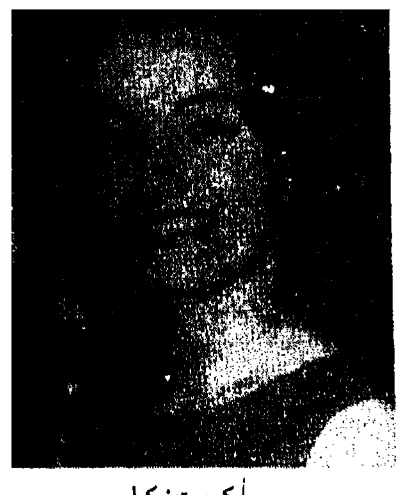
ستيفن وارد

بدأت محاكمة وارد يوم ٢٢ تموز (يوليـو) ١٩٦٣ وسط اهتمام شعبي بـالغ. وقـد وُجهت إليـه خمس تهم بتقاضيـه أموالاً من بـائعتي الهوى كيلر ورايس ـ دافيـز، ولكنه أنكر التهم بشدة، وقال: بأنه كان يسترجع منها على دفعات الأموال التي استـدانتاهـا منه من قبل.

بعد ذلك شهـدت رونا ريكـاردو وفيكي باريت ضـد وارد. ثم تراجعت الأولى عن أقـوالها واعـترفت أنها كذبت بتحريض من رجال الشرطـة. كما أن الشـانيـة روت قصصاً متناقضة وبعيدة عن التصديق. وصرح وارد بأنهم يريدونـه كبش فداء لقضيـة بروفيومو، كما أن الشهود قبضوا أموالاً من الصحف مقابل القصص التي لفّقوهـا. ثم شكا من أن رجال الشرطة كادوا يتسببون أثناء التحقيق معه في أصابته بانهيار عصبي. «صحيـح أنني كنت أجمع في حفـلاتي فتيـات جميـلات. غـير أني لم أكن أتقـاضى منهن أموالاً. وإذا كان بعض الرجال يقدمون لهن الهدايا والأموال، فهذا ليس ذنبي». ولما سأله المدعي العام لماذا استأجـر شقة لمـاندي، أجـابه: «لأنها كـانت مفلسة». وعـاد



ماندي رايس دايفز



كريستين كيلر

المدعي يقول: ولكن هناك كثيرات مفلسات لا يجدن من يدفع إيجار شققهن.

وارد: هذا صحيح.

المدعي: ألم تكن الحقيقة أنك كنت تود تقديم فتيات جميلات لأصدقائك؟

وارد: هذا غير صحيح كلية.

هذا، وقد تبين أثناء المحاكمة أن دخل وارد كان كبيراً بمقاييس عام ١٩٦٣ (٤ آلاف جنيه من مهنته كطبيب و ١٥٠٠ جنيه من رسوماته). كما تبين أن كلاً من كرستين كيلر ورايس ـ دايفز كانت في ١٦ من عمرها عندما تعرف عليها وارد. وكانت كيلر في ٢١ عندما قابلت بروفيومو.

قبل صدور الحكم، أقدم وارد على تناول كمية كبيرة من الحبوب المنومة، نقل على أثرها إلى المستشفى بحالة خطرة. وقد أصر القاضي على متابعة القضية وحكم بإدانة وارد الذي توفي في المستشفى بعد ثلاثة أيام من وصوله إلى هناك.

وفي نهاية ذلك الأسبوع انشغل الناس باختفاء الصحافي هارولد «كيم» فيلبي من بيروت، وظهوره في موسكو، ونسوا فضيحة وارد وبروفيومو.

النازية في قفص الاتهام

عندما تم القبض في صباح يوم ١٤ حزيران (يونيو) ١٩٤٥ على وزير الخارجية الألماني، يواكيم فون ريبنتروب، كان ما يزال في ثياب النوم وقد ألصق على جسده علبة سم صغيرة. وبرغم أنه عمل وزيراً للخارجية مدة ٧ سنوات، وعمل قبل ذلك سفيراً في لندن لمدة سنتين، فإنه لم يستطع نطق اسم تشرشل بشكل صحيح. لقد دعاه السيد «وينسنت تشرشل».

هكذا كان معظم النازيين، يدّعون التفوق ولا يهتمون بغيرهم من الشعوب. ولكن عندما تم إحضار نحو ٢٠ شخصية من كبار قادة النازية لمحاكمتهم في نورمبيرغ تبين أنهم أشخاص عاديون يشتكون ويتظلمون ويتهمون بعضهم بعضاً. غير أن بعض الأسماك الكبيرة نجت من شبكة الحلفاء. فهتلر نفسه انتحر. ومثله فعل غوبلز الذي سمّم أبناءه الستة قبل أن يأمر أحد أعوانه بإطلاق النار عليه وعلى زوجته. وكذلك حاول هيملر الهرب متنكراً إلى بافاريا، لكن الإنكليز اعتقلوه عند نقطة تفتيش دون أن يعرفوا هويته. ولما عرفوه بعد عدة أسابيع تناول كبسولة سيانيد تسببت في وفاته. هذا، ولم يتم العثور على نازيين آخرين مثل هنريخ مولر، ومارتن بورمان، وأدولف ايخمان.

لم يكن القصد من محاكمات نورمبيرغ مجرد محاكمة أفراد، وإنما محاكمة النظام النازي بأسره، وكشف ذلك النظام أمام الشعب الألماني والعالم. كان غورنغ أكبر شخصية نازية تم اعتقالها، وكان مرشحاً في يوم من الأيام لخلافة هتلر. كما أنه شارك في الحرب العالمية الأولى وأبدى خلالها شجاعة فائقة. وقد التحق بالحزب النازي منذ عام ١٩٢٢. لكن غورنغ فقد منزلته بعد فشله في تحطيم بريطانيا، حيث طرده هتلر من الحزب، ولجأ هو إلى العزلة وتعاطي المخدرات وأخذ وزنه يزداد بدرجة كبيرة. وبعد هزيمة ألمانيا سلم غورنغ نفسه للأميركيين خشية اغتياله من قبل رفاقه النازيين، حسب قوله.

من الشخصيات المهمة التي ألقي القبض عليها أيضاً رودلف هِس الـذي حاول عام ١٩٤١ (أيار/مايو) أن يتفاوض، على مسؤوليته، مع البريطانيين لتوقيع معاهدة سلام بين بريطانيا وألمانيا النازيـة. ولكنه اليـوم أخذ يـدعي فقد الـذاكرة. وكـان بين المعتقلين أيضـاً الكاتب الفـرد روزنبيرغ، والكـاتب بالـدور فـون شـيراك الـذي كتب إلى زوجته من السجن يقول: «أريد أن أتكلم أمام القضـاء وأحاسب نفسي. لقـد ضللت كثيراً من الشبان وجعلتهم يحبون هتلر ويؤمنون به. واليوم أريد أن أحررهم من ذلـك الوهم. وحالما أقول ذلك أمام القضاء، فليشنقوني بعدئذ».

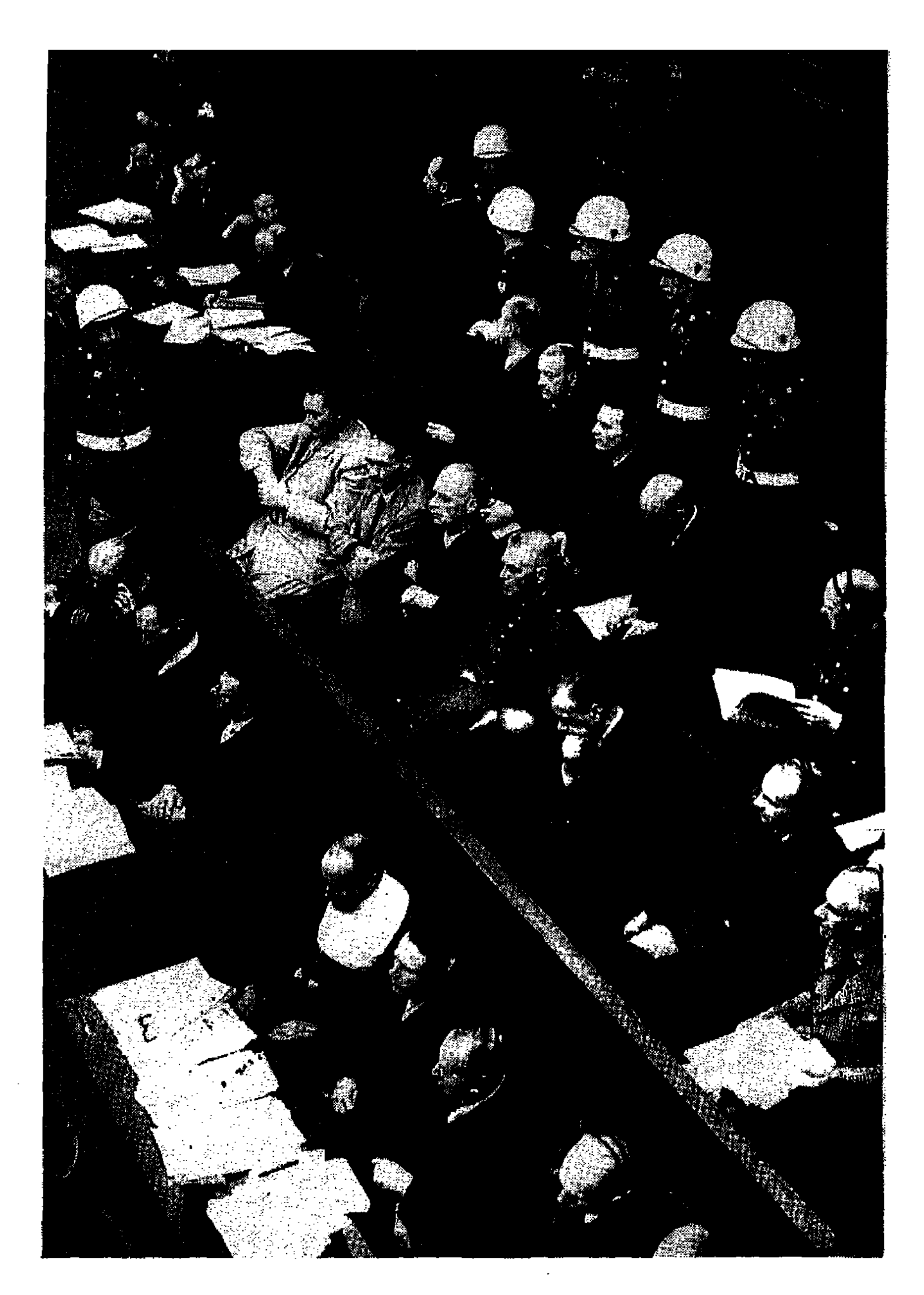
أمـا الصحافي المعـادي لليهود، يـوليوس سـتريخـر، فكـان أغبى من تم القبض عليـه. ذلك أنه كان يتحدث عرضاً مع ضابط أميركي، عندما قال لـه الأخير: بـأنه يشبه يوليوس ستريخر. فما كان من المغفل إلا أن سارع إلى القول: «وكيف عرفتني؟»

بـدأت محاكمـة نورمبيرغ يوم ٢٠ تشرين الثـاني (نوفمبر) ١٩٤٥، واستمـرت ٢١٨ يوماً، قدمت خلالهـا حمولـة شاحنـة من المستندات والـوثائق، وتكلفت أكـثر من ٤ ملايين دولار. كـانت التهم الموجهـة إلى المعتقلين تدور حـول مشاركتهم في جـرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانيـة والسلام. وقـد رفض الجميع الإقـرار بأنهم مـذنبون، وقالوا بأنهم كانوا ينفذون الأوامر والتعليمات المعطاة لهم.

ومع ذلك فإن الكثير من كتب التاريخ التي تتحـدث عن الحرب العـالمية الثـانية استمدت جزءاً كبيراً من مادتها من محاكمات نورمبيرغ. ومما قاله النـازيون واعـترفوا بـه خلال تلك المحاكمات.

حاول غورنغ أن يتبرأ من معرفة ما كان يحدث في معسكرات الاعتقـال، فقال: «كلما علت مرتبتك كلما ابتعدت عن معرفة ما يجري دونك». ثم قـال: بأن المسؤولـين الكبـار لم يكونـوا يعلمون مـاذا يحدث في معسكـرات الاعتقال، وبـالطبـع لم يكـونـوا يشاهدون ذلك، ودافع عن هتلر، وقال: بأنـه «لا أحد مسؤول». أمـا إذا كان لا بـد من كبش فداء فهيملر وحده هو المرشح لذلك، لأنه كان لا يخبر أحداً بما يفعله أو يأمر بـه. وعلى العمـوم فهيملر ليس ألمانيـاً حقيقياً: «انـظروا إلى وجهه أو إلى شكـل رأسه وشعره. . . إن دماء العبيد السود تجري في عروقه».

لقد دافع غورنغ ببسالة عن نفسه وعن رفاقـه المعتقلين وأحرج قضـاته في أكـثر من مرة، وخاصة عندما ذكّرهم بـإلقاء القنبلة الـذرية عـلى هيروشيما. قال: «المنتصر



النازيون أثناء محاكمات نورمبيرغ

دائماً يحاكم المهـزوم، ولو انتصرنـا لكنتم أنتم الآن في قفص الاتهام. لماذا لم تحاكمـوا الروس عندما هاجموا فنلندا عام ١٩٣٩؟»

ومع ذلك، من غير غورنغ جدير بالإدانـة؟ إذ أنه هـو الذي أسس قبـل الحرب جهاز الغستابو، ومعسكرات الاعتقال والتعذيب. وهو الذي شن الحملة ضد اليهود. كما أنه سرق شخصياً من كنوز أوروبا وتحفها ما قيمته نحو ٢٠ مليون جنيه أسترليني.

ومن أغرب ما شهدته محاكمات نورمبيرغ، محاكمة كالتنبرونـر الذي تباهـى بأنـه كان مسؤولاً عن معسكر المـوت في أوشويـتز (١٩٤٠ ـ ١٩٤٣)، ذلك المعسكـر الذي شهد تصفية مليونين ونصف مليون شخص. وقد أبدى أسفه لأنه لم يتمكن من تصفية نصف مليون آخر من المعتقلين الذين ماتوا بسبب الجوع والمرض. هذا من جهة، غير أننا نجد من جهة ثانية شخصاً مثل الاقتصادي الـلامع اجلمار شـاخت الذي تـبرأ من النظام النازي وذكّر المحلفين بأنه كان معتقلاً بسبب معارضته العلنية للسياسـة النازيـة ولهتلر. ثم ختم كلامه بالقول: «وأنا لا أفهم لماذا تضعونني في قفص الاتهام مع هؤلاء المجرمين».

في ٣٠ أيلول (سبتمـبر) ١٩٤٦ انتهت محاكـمات نـورمبـيرغ، وفي اليـوم التـالي مباشرة صدرت الأحكام: براءة ثلاثة أشخـاص من بينهم شاخت، والسجن بـين ١٠ و ٢٠ سنة لأربعة أشخاص، والمؤبد لثلاثة أشخـاص من بينهم هِس. أما البـاقي فقد حكم عليهم بالإعدام شنقاً حتى الموت. كـما تم الحكم على مـارتن بورمـان بالإعـدام غيابياً.

هذا، وقد تمكن هـيرمان غـورنغ ـ بـرغم الحراسـة المشددة ـ من الحصـول على السم وتناوله قبل موعـد تنفيذ الحكم بيـوم واحد. أمـا بقية المحكـومين فقـد تم تنفيذ حكم الإعدام بهم في اليوم التالي وفق الخطة المـرسومـة. وقد أُخـذت جثثهم مع جثـة غورنغ، وأُحرقت في مكان مجهول لم يتم الإعلان عنه.

محاكمـة أدولـف ايخمـان

كان هتلر هو المسؤول الأول عن فكرة «الحل النهائي للمشكلة اليهودية». وفي أغلب الأحيان يذكر إلى جانب اسم هتلر اسما هيملر وهايدريخ. ولكن هناك اسم آخر لا يقل أهمية هو اسم الكولونيل أدولف ايخمان.

استطاع ايخمان الاختفاء عن الأنظار، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، مدة ١٥ عاماً. وكانت لجنة الأمم المتحدة لتعقب مجرمي الحرب قد أعلنت أن ايخمان رجل مطلوب للعدالة. وفجأة أعلن بن غوريون عشية ٢٣ أيار (مايو) ١٩٦٠ أنه تم إلقاء القبض على ايخمان، وأنه سيحاكم لدوره في المحرقة.

إن ظروف هرب ايخمان واختفائه، ثم إلقاء القبض عليه تصلح موضوعاً لقصه بوليسية. فبعد سقوط الرايخ الثالث في ألمانيا تسلل ايخمان عبر النمسا إلى د-ر في إيطاليا، حيث تزود بأوراق مزورة باسم ريكاردو كليمنت. بعد ذلك حصل على فيزا لدخول الأرجنتين وذهب ليعيش في بيونس ايرس. وفي عام ١٩٥٢ انضم إليه هناك أبناؤه وزوجته. وقد تمكن، بمساعدة زملائه من النازيين هناك، من الحصول على عمل في شركة مرسيدس - بنز براتب محترم.

ظل ايخمان خاضعاً لمراقبة عملاء المخابرات السرية الإسرائيلية فترة من الزمن. ولما تأكدوا من هويته، كمنوا له مساء يوم من أيام شهر أيار (مايو) ١٩٦٠ عند إحدى محطات الباص بينما كان عائداً من عمله إلى منزله، وخطفوه. لقد أجبره فريق مكون من أربعة رجال على ركوب سيارة انطلقت بهم إلى منزل آمن. وهناك اعترف ايخمان - دون مقاومة - بحقيقة هويته، بل ووافق على الذهاب إلى إسرائيل لمحاكمته هناك (ربما لأنه خشي أن يكون القتل الفوري هو البديل).

أثارت حادثة اختطاف ايخمان ضجة عالمية، وشغلت أخبار محاكمته عناوين الصحف الرئيسة. كما أثار الاختطاف نقاشاً حاداً وتساؤلات فيها الكثير من الاتهام. هل يحق لدولة أن تخرق القانون الدولي وتخطف شخصاً من بلده لتحاكمه في بلد



أدولف إيخمان

آخر؟ ومن يضمن عدالة المحاكمة؟ وهل يجوز محاكمته أصلاً بعد مرور كل تلك السنوات على انتهاء الحرب وويلاتها؟

لقد أصبحت المحاكمة نفسها موضوعاً للمحاكمة والاتهام، تماماً كما كان موضوع شرعية قيام دولة إسرائيل في ذلك الوقت عرضة للاتهام والمحاكمة! ولذلك حاولت إسرائيل جهدها كي تبدو المحاكمة شرعية وغير متحيزة، فسمحت لمحامين من ألمانيا الغربية بالدفاع عن ايخمان. ونقلت وقائع المحاكمة على شاشات التلفزيون. كما وسمحت لنحو ٧٠٠ مراسلاً أجنبياً، ومعهم بعض المحامين والمؤرخين بتغطية ما كان يدور في قاعة المحكمة. أما اهتمام اليهود بمتابعة أنباء المحاكمة فكان فوق الوصف.

وصل أدولف ايخمان إلى قاعة المحكمة في القدس الغربية، صباح يوم ١١ نيسان (إبريل) ١٩٦١، ووضع داخل قفص الاتهام وراء جدران زجاجية مضادة للرصاص. ولقد بدأت المحاكمة بجدال حول شرعية المحاكمة، وتحيز القضاة الإسرائيليين، وحول شرعية الخطف، والجدوى من عقاب النازيين بعد انقضاء كل هذه السنوات على انتهاء الحرب. وقد استغرق الجدل حول هذه النقاط وقتاً طويلاً قبل أن يقف المدعي العام جدعون هوسنر ويوجه إلى ايخمان ١٥ اتهاماً.

حاول هوسنر أن يستغل المحاكمة لتذكير العالم بجرائم النازية واضطهادها لليهود، علاوة على محاولته إدانة ايخمان شخصياً لدوره في قتل اليهود. ولقد وجد كثيراً من الضحايا اليهود الأوروبيين الذين تقدموا للإدلاء بشهاداتهم حول جرائم النازية، وتم اختيار القليل منهم. من أولئك الشهود السيدة ريفكا يوسليفسكا البولندية المولد التي وصفت كيف كان النازيون عام ١٩٤١ يجمعون اليهود في الساحات كقطعان الماشية ويتركونهم في العراء دون طعام أو شراب، وفي اليوم التالي يصفونهم بالقرب من حفرة كبيرة، ويطلقون النار على رؤوسهم واحداً تلو الآخر ثم يرمونهم في الحفرة.

لقد شاهدت السيدة ريفكا أفراد عائلتها يعدمون واحداً بعد الآخر. ولما حان دورها أطلقوا على مؤخرة رأسها رصاصة ودفعوها إلى القبر الجماعي. غير أن الرصاصة جرحتها ولم تقتلها. وهكذا بعد ذهاب الجنود شقّت طريقها بين الجثث وخرجت لتهيم على وجهها مدة ثلاثة أيام قبل أن تلتقي في الغابة بأحد المزارعين الذي مد إليها يد المساعدة وآواها. لقد تكلمت ريفكا لمدة ساعة ونصف الساعة، ولم يحاول محامو ايخمان استجوابها أو استجواب غيرها من الشهود. ولكن ما دور ايخمان في كل ما حدث؟.

انضم أدولف، ايخمان إلى الحزب النازي عام ١٩٣٢، وكان في السادسة والعشرين من عمره. وسرعان ما برز اسمه في صفوف الحزب، وتخصص في الشؤون اليهودية. تعلم العبرية وكان يتباهى بمعرفة الثقافة اليهودية وتاريخ اليهود. خطط مع الغستابو في فيينا لهجرة اليهود الجماعية من النمسا.

ترأس ايخمان، طوال فترة الحرب، دائرة شؤون اليهود في جهاز الغستابو. وبهذا أصبح مسؤولاً عن تجميع اليهود وعزلهم في أحياء مقفلة خاصة بهم (غيتو)، وبعد ذلك إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال والتصفية. لم يكن باستطاعة ايخمان أن يتنصل من مسؤوليته بالقول إنه «لم يكن يعرف»، ولكنه تمسك بالقول أنه كان «ينفذ الأوامر فقط».

بلغ حجم سجل وقائع جلسات محاكمة ايخمان ٣٥٦٤ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة. وقد أكد المتهم على أنه كان مجرد «ضابط اتصال» ينقل التعليمات والأوامر، ويطيع رؤساءه حسبما تعوّد منذ صغره. ولكنه اعترف أيضاً بأن دفاعه «ليس له معنى» و«عديم الجدوى». كما أنه رفض من جهة أخرى أن يعبر صراحة عن ندمه أمام

الجميع في قاعة المحكمة: «الندم، في اعتقادي، لا يساعد ولا يغير الأمر في شيء. كما أنه لا يعيد الأموات إلى الحياة. الندم مسألة تهم الأطفال الصغار».

لقد شهد هيرمان غورنغ أثناء محاكمات نورمبيرغ أن ايخمان «كان يتمتع بكامل السلطة للتعامل مع اليهود». كما أن رودولف هويس كتب بأن ايخمان «كانت تتملكه فكرة التخلص من كل يهودي يقع بين يديه». فذات مرة قبض على يهودية كانت زوجة لضابط إيطالي، وقد رفض الإفراج عنها برغم كل محاولات التوسط والشفاعة. وعندما وافق هتلر ـ تحت إلحاح الهنغاريين ـ على السماح لنحو ٩٧٠٠ عائلة يهودية بالهجرة إلى فلسطين، أبى إيخمان أن يسمح لهم بالهجرة، وأخذ ينتظر تراجع الفوهرر عن قراره، لأن اليهود «جميعهم صهاينة متعصبون غير مرغوب بهجرتهم إلى فلسطين». وقد طلب فعلاً من هتلر أن يغير قراره.

وعندما أجرت ألمانيا مفاوضات سرية مع الغرب عبر وسيط يهودي يدعى براند لتزويد الألمان بـ ١٠ آلاف شاحنة مقابل السماح لمليون يهودي بالهجرة من مناطق النفوذ الألماني، يومها اجتمع ايخمان ببراند وقال له: «مليون يهودي مقابل ١٠ آلاف شاحنة، هذا أمر زهيد. إذن يجب أن تكون الشاحنات جديدة تماماً ومزودة بكل الإضافات والتجهيزات». وعندما ذهب براند ليفاوض الغرب حول الصفقة وتأخرت عودته، اتصل ايخمان بالسيدة براند وقال لها: «اتصلي بزوجك وأخبريه أنه إن لم يرجع حالاً فسوف أجعل مطاحن أوشفيتز تعمل من جديد».

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ أمر هيملر بإيقاف برنامج التصفية، واستدعى ايخمان إلى برلين ليبلغه القرار وجهاً لوجه ويسمع موافقته على إطاعة الأمر. ويومها كان رد ايخمان: «نعم، حاضر يا سيدي». غير أنه صرح بعد ذلك أمام الضباط العاملين معه قائلاً: «سوف أقفز في قبري بسعادة إن علمت أنني أجر معي إلى القبر ملايين اليهود».

لقد استغل المدعي العام هذا القول بدرجة كبيرة، وركز عليه كثيراً قبل صدور الحكم بإعدام ايخمان في ١٥ كانون أول (ديسمبر) ١٩٦١. وفي ليلة ٣١ أيار (مايو) ١٩٦٢ تم إعدام ايخمان شنقاً، وحرق جثته، ونثر الرماد فوق البحر بعيداً عن المياه الإقليمية لإسرائيل. وكانت آخر كلمات ايخمان: «كان عليّ أن أطيع قوانين الحرب، وعلم بلادي».

الحكم الظالم

تخيل أن هذا الأمر حدث لك. تخيل أنك كنت سائراً في طريقك فإذا بالشرطة تلقي القبض عليك وتتم محاكمتك وإدانتك بتهمة ليس لك علاقة بها لا من قريب ولا من بعيد. ربما تخطر مثل هذه الأفكار السوداء ببال كل واحد منا في وقت من الأوقات. وبرغم أن مثل ذلك الأمر من المستبعد أن يقع في أيامنا هذه إلا أنه كان يحدث فعلاً في الماضي.

لقد تم استحداث محكمة التمييز في بريطانيا عام ١٩٠٧، وقبل ذلك التاريخ كان من المتعذر على المحكوم بجرم ما أن يستأنف الحكم أو يتظلم. وبرغم أن العديد من المصلحين كانوا ينادون بضرورة إيجاد محاكم للاستئناف، إلا أن الفضل يرجع في إيجاد تلك المحاكم إلى شخص قليل الحظ يدعى أدولف بيك.

ولد بيك في النروج عام ١٨٤١، وعاش متنقلاً بين أميركا الجنوبية وإنكلترا. وذات يوم، في عام ١٨٩٥، وبينما كان سائراً في شارع فيكتوريا بلندن، إذ بسيدة ألمانية تدعى إتيلي ميسونيير تستوقفه وتطلب منه أن يعيد إليها مجوهراتها. تعجب بيك من كلامها، وحاول أن يفهمها أنها تخاطب الرجل الخطأ. غير أنها لم تقتنع بما يقوله وأصرت على مطلبها، مما اضطر بيك إلى الاستعانة بأقرب رجل شرطة، حيث أخبره بأن السيدة الغريبة تضايقه. لكن إتيلي اتهمته أمام رجل الشرطة بأنه احتال عليها وسرق مجوهراتها. ذهب الجميع إلى قسم الشرطة حيث بدأت هناك قصة بيك المأساوية.

قالت معلمة اللغة، إتيلي ميسونيير، أنها التقت قبل مدة، وفي الشارع نفسه، رجلاً جذاباً حياها وحادثها، فدعته إلى منزلها حيث أخبرها أنه قريب اللورد البارز سالزبوري، الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء. ثم دعاها إلى مرافقته في رحلة بحرية على متن يخته، وكتب لها شيكاً بمبلغ من المال لشراء ما تحتاجه استعداداً لتلك الرحلة. وبخدعة بارعة، جعلها تسلمه، قبل أن ينصرف، بعض مجوهراتها.



أدولف بيك . . ومحاكم الاستئناف

وبالطبع، اكتشفت فيما بعد أنه كان محتالاً، وأن الشيك الذي أعطاها إياه كان بلا رصيد. وأخيراً، قالت المعلمة: أنها عثرت على ذلك المحتال، وأنه هو - بكل تأكيد - الرجل الماثل أمامكم (أدولف بيك).

وصدف أن عدة نساء كن قد تقدمن بشكاوى مماثلة، فتم إحضارهن للتعرف على المحتال الذي خدعهن. أوقفوا بيك بين مجموعة من المشبوهين وعرضوه على تلك النسوة فتعرفن جميعهن على بيك وأشرن إليه بأصابع الاتهام. كما أن اثنين من رجال الشرطة شهدا بأنهما ألقيا القبض على هذا الشخص نفسه في تهمة مماثلة عام ١٨٧٧.

ويومها حوكم - باسم جون سميث - وسجن لمدة خمس سنوات. وبرغم أن بيك أثبت أنه كان في الفترة من ١٨٧٣ وحتى ١٨٨٤ يعيش في أميركا الجنوبية، إلا أن القاضي حكم عليه يوم ٥ آذار (مارس) ١٨٩٦ بالسجن لمدة سبع سنوات.

أمضى بيك خمس سنوات في السجن، قبل أن يطلق سراحه بكفالة عام ١٩٠١. وبعد ثلاث سنوات تلقت الشرطة سلسلة جديدة من شكاوى الاحتيال على سيدات وسرقة مجوهراتهن، فتم القبض من جديد على بيك، وأحيل إلى المحاكمة بعد أن تعرفت عليه النسوة ووجهن اتهاماتهن إليه.

جرت المحاكمة في حزيران (يونيو) ١٩٠٤، ووجد المحلفون بيك مذنباً. غير أن القاضي هذه المرة كان حكيماً فأجل إصدار حكمه بإدانة بيك. وما هي إلا أيام حتى وقع المحتال الحقيقي في قبضة الشرطة واعترف بكل شيء، علاوة على اعترافه بأنه هو أيضاً الذي سجن عام ١٨٧٧ باسم جون سميث، وكان اسمه الحقيقي وليام توماس.

كان توماس يشبه بيك في طوله، وشاربه، وشكل رأسه وتسريحة شعره. ومع ذلك كان هناك اختلافات بينهما. فكيف شهد الجميع أنهما الشخص نفسه؟ منذ ذلك اليوم أصبح ينظر إلى شهادة الشهود باعتبارها دليلاً غير حاسم، وأنها ربما تكون عرضة للخطأ والتضليل. كما أن المنادين بإصلاح القضاء، واستحداث محاكم التمييز قويت حجتهم.

لقد شعر الجميع أن بيك سجن في السابق ظلماً، وشعر المحلفون والقاضي الذي أصدر الحكم على بيك بالسجن لمدة سبع سنوات، بالخجل وبفداحة الغلطة الفظيعة التي ارتكبت بحق رجل بريء. ولذلك تم منح بيك ٥ آلاف جنيه أسترليني تعويضاً عن السنوات الخمس التي قضاها في السجن. وبعد خمس سنوات مات بيك، غير أن قضيته لم تمت معه، وأصبحت من العلامات الفارقة في تاريخ القضاء.

جنون أم فساد؟

في عام ١٨٤٣، أطلق دانيال مناتن النار على إدوارد درموند سكرتير رئيس الوزراء روبرت بيل، وأرداه قتيلاً. وعندما ألقت الشرطة القبض على الجاني وجدوه مضطرب العقل يتوهم أموراً لا وجود لها. لقد كان يظن أن المحافظين يضطهدونه ويلاحقونه أينما ذهب ـ إلى فرنسا أو اسكتلندة أو أي جزء في إنكلترا ـ وهم لا يدعونه يرتاح لا في الليل ولا في النهار. وقد «اتهموني بجرائم لم أرتكبها، ودمروا صحتي وحياتي. وهم في الحقيقة يسعون إلى قتلي والتخلص مني، والأدلة موجودة. . .»

كانت تلك الصور، بالطبع، مجرد أوهام في مخيلة المعتقل الذي كان يعاني ـ كما يبدو ـ من عقدة الملاحقة والاضطهاد. ولذلك، عندما تمت محاكمته في آذار (مارس) ١٨٤٣، أصدر القاضي حكماً بأن مناتن ليس مذنباً لأنه مجنون. ونظراً لأن بريطانيا كانت تعاني في ذلك الوقت من اضطرابات سياسية، وكان الناس يتخوفون من وجود مؤامرة إرهابية لقتل رئيس الوزراء، فقد استنكر البريطانيون إخلاء سبيل القاتل. ويومها، دعا مجلس اللوردات ـ في إجراء استثنائي ـ إلى استجواب هيئة القضاة في إنكلترا حول موضوع قانون عدم إدانة المنعوت بالجنون. وقد تم نتيجة لذلك إعادة النظر بالقانون وإرفاقه بخمسة شروط عُرفت فيما بعد في جميع البلاد الناطقة بالإنكليزية، بما في ذلك الولايات المتحدة، باسم «مبادىء مناتن». ولطالما شهدت قاعات المحاكم، منذ ذلك الوقت، نقاشاً حاداً حول تلك المبادىء في الحالات التي يشك فيها بقوى المجرم العقلية.

كانت تلك المبادىء في مجملها تتطلب أن يتم التأكد من أن المتهم كان عند ارتكاب جريمته «يعاني من خلل عقلي يجعله لا يدرك طبيعة ما يفعله، أو لا يعرف أن فعلته خطأ». غير أن ذلك لم يكن أمراً سهلاً، وقد أثار مشكلتين صعبتين: فمن جهة



سفّاح يوركشاير . . ستكليف أنقذته مبادىء مناتن من المشنقة

يصعب تشخيص الخلل العقلي، ومن جهة ثانية ربما كان من يعاني من مرض عقلي «يعرف» ما يفعله وأنه خطأ، لكنه لا يستطيع السيطرة على سلوكه وأفعاله. وبالفعل تعرضت «مبادىء مناتن» للاختبار عبر السنين، وبسببها تم تخفيض أو تغيير كثير من الأحكام على مجرمين عتاة مثل سفاح يوركشاير، ورونالد ترو وسواهما.

لقد كان دانيال مناتن يعرف ـ على الأرجح ـ أنه يرتكب جريمة، وأن ما يفعله خطأ. ومع ذلك خرج من المحكمة حراً طليقاً. وليس الغريب أن يتم إطلاق سراح قاتل بحجة أنه مجنون، ولكن الأغرب من ذلك أن تعمر «مبادىء مناتن» طويلاً في تاريخ القضاء، ويظل معمولاً بها حتى وقتنا الحاضر.

نذالة طبيب من العهد الفكتوري

لوحظ موت العديد من المقربين إلى الطبيب البريطاني الشاب وليام بالمر خلال فترة قصيرة نسبياً. فخلال تسع سنوات توفي ١٤ شخصاً من أقارب الطبيب ومعارفه، من بينهم حماته، وزوجته، وشقيقه، وأولاده غير الشرعيين، وبعض دائنيه.

كان الطبيب، الذي بدأ يمارس مهنته في مستشفى سانت بارثولوميو عام ١٨٤٦، رجلاً يحب الحياة المنعمة. غير أن دخله كان لا يفي بتغطية نفقاته المتزايدة، مما جعله يلجأ إلى الجريمة لتوفير الأموال التي يحتاجها. قتل حماته ليرثها. وسمم زوجته وشقيقه بعد أن أمن على حياة كل منهما بمبلغ كبير من المال. وقتل أحد دائنيه ليتخلص من سداد مبلغ ٨٠٠ جنيه. ومن الغريب أن أحداً لم يشك بالطبيب إلا في عام ١٨٥٥، عندما وقع صديقه جون بارسون كوك مريضاً عقب فوزه في سباق للخيل بمبلغ كبير من المال، ومن ثم توفي.

شك أقارب كوك بوفاته المفاجئة، وطلبوا تشريح الجثة، فتبين لهم أنه مات مسموماً. أشارت أصابع الاتهام إلى صديقه بالمر، وتم إلقاء القبض عليه، ومن ثم محاكمته في ١٤ أيار (مايو) ١٨٥٦ بتهمة قتل صديقه كوك.

كان بالمر في الثانية والثلاثين عندما تمت محاكمته، وكان معظم الشهود من الأطباء وخبراء العقاقير والسموم. لم تكن القضية سهلة، كما لم تكن الأدلة واضحة. فقد ظل بالمر يردد: «أنا بريء من تسميم كوك بالسترايكنين». وبالفعل لم يجد الطبيب الشرعي في جثة كوك مادة السترايكنين. غير أن بالمر لم يقل إنه بريء من تسميم صديقه بمادة أخرى، ولا شك أنه استخدم خبرته الطبية في تسميم ضحاياه وقتلهم بدون أن يلجأ إلى استخدام السترايكنين الذي كان شائعاً استخدامه في تلك الفترة في جرائم القتل بالسم.



وفي صباح ١٤ حزيران (يونيو) ١٨٥٦ صدر الحكم بإدانة بالمر، وإعدامه شنقاً. وقد تجمهر نحو ٥٠ ألف شخص يوم إعدامه، وشاهدوه يتقدم نحو منصـة الإعدام في يوم ماطر، وهو يتخطر برقة مثل تلميذة مدرسة، ويتحاشى برك الماء الصغيرة الموحلة، وكانوا يهتفون ضده بأصوات مدوية تصم الآذان.

الرقيق الأبيض في لندن

في ١٥ نيسان (إبريل) ١٩١٢ اصطدمت السفينة الفخمة «تايتانك» بكتلة جليدية فغرقت، وغرق معها ١٥١٣ شخصاً، كان من بينهم الصحافي المشهور وليام توماس ستيد الذي اشتهر بكتاباته حول المسائل الروحية، وحركة السلام، وغير ذلك من القضايا الاجتماعية. وكان الناس قد عرفوا ستيد قبل نحو ٣٠ سنة عندما شن حملة ضد الرقيق الأبيض في العاصمة لندن وطالب بتغيير القانون بغرض حماية الأحداث.

ففي مطلع عام ١٨٨٥ قصد أنصار حماية الأحداث الصحافي ستيد وطلبوا منه أن يساعدهم في حملتهم لتغيير القانون بغرض حماية الأحداث من الاعتداءات الجنسية. كان القانون في ذلك الوقت يسمح للفتاة بالزواج وممارسة الجنس إن هي بلغت ١٣ سنة من العمر. وكان بإمكان أي شخص ـ وفقاً لذلك القانون ـ أن يتاجر بأعراض فتيات صغيرات بدون خشية من العقاب القانوني، إن هو أثبت أن الفتيات جئن إليه بإرادتهن، بدون غصب أو إكراه.

طالب أنصار قانون حماية الأحداث برفع سن الزواج إلى ١٦ سنة، غير أن البرلمان رد هذا القانون عند عرضه عليه أكثر من مرة، ورفض الموافقة عليه. وعندما شرح أنصار القانون قضيتهم أمام ستيد وطلبوا مساعدته، صمم على إثارة حملة لا تبقى ولا تذر تأييداً لذلك القانون.

ولد ستيد عام ١٨٤٩ وكان متديناً. وعندما بلغ ٣١ من عمره عمل في صحيفة «بول مول غازيت»، ثم أصبح في عام ١٨٨٣ رئيساً للتحرير، وقد أثبت خلال بضع سنوات أنه صحافي قدير وجريء ومبتكر، ابتدع أسلوب المقابلات والتحقيقات الصحافية. ولكي يثبت كم هو سهل «شراء» طفلة بعمر ١٣ سنة قرر أن يقوم هو نفسه بإجراء تحقيق صحفي حول ذلك الموضوع بين عائلات الطبقة المعدمة.

استعان ستيد بصاحبة ماخور تدعى ريبكا جاريت، فذهبت إلى عائلة أرمسترونغ الفقيرة، وعادت بابنتهم إليزا مقابل ٣ جنيهات فقط لا غير. أخذ ستيد



في قاعة المحكمة . . استجواب ليزا.

الفتاة وخدرها ثم نقلها إلى بيت سيء السمعة تديره امرأة فرنسية تدعى مدام لويز موراي. بعد ذلك نقل ستيد الفتاة إلى باريس دون أن تصاب بأذى، وتركها هناك بعيدة عن الأنظار في عهدة مؤسسة خيرية.

تم كل شيء بسهولة ويسر، وأثبت ستيد أنه بالإمكان شراء أية فتاة ونقلها خارج البلاد بغرض الإتجار بها. وظل ستيد يروي مسلسل قصة إليزا طوال أسبوعين في صحيفته تحت عنوان: «تقدمة العذارى في بابل الحديثة». وكانت التفصيلات حقيقية وموثقة بالصور، وقد نجح في عرض المأساة الواقعية التي يشهدها «عصرنا الحديث».

أثارت الحملة ضجة كبيرة في بريطانيا بين عامة الناس. وسؤل وزير الداخلية في البرلمان حول إمكانية ملاحقة ستيد وتقديمه للمحاكمة بسبب نشره مثل تلك البذاءات والفحش. كما أن مبنى الجريدة هوجم من قبل الغوغاء، دون أن يعرف السبب في ذلك. لقد تظاهر الجميع بالفضيلة، وبالحرص على حماية الأخلاق في وقت

كان عدد عـاهرات لنـدن اللواتي يسرحن ويمرحن في الشـوارع يقدر بنحو ١٠٠ ألف. لقد كشف ستيد خفايا العالم الفكتوري وانحطاطه، وحـوّل هدوء ذلـك العهد الزائف إلى جحيم.

بيـد أن الأمور لم تجر كما خطط لها ستيـد. فقد أطلع الجيران جارتهم السيـدة أرمسـترونغ عـلى المقالات، فـاحتجت ونفت أن تكـون قـد بـاعت ابنتهـا، ثم رفعت دعوى على ستيد تطالبه فيها بإعادة ابنتها إليها.

مثل ستيد ومعاونوه أمام المحكمة في ٢٣ تشرين أول (أكتوبر) ١٨٨٥، بعـد أن أرجـع إليزا إلى عـائلتها سليمـة دون أذى. وقد أصر عـلى أن يتولى هـو الـدفـاع عن نفسه، غير أن قضيته بدت خاسرة منذ شهـدت ربيكا جـاريت بأنها أخـذت إليزا من والدتها بحجة تشغيلها خادمة في المنازل. كما أن الـوالد لم يكن مـوافقاً عـلى الموضـوع بعكس ما كان يظن ستيد ويكتب. وهكذا صدر الحكم في ١٠ تشرين الثاني (نوفمـبر) بإدانة ستيـد نظراً لأنـه أخذ فتـاة من أهلها بـطريق الاحتيال، وشهّـر بها وبعـائلتها في صحيفته. كما أن القـاضي عنّف ستيد بعبـارات قاسيـة عندمـا قال لـه: «إنك شغلت النـاس شهوراً بقصصـك البذيئـة ولوثت عقـول الفتيان والفتيـات الذين كنت تـدعي حمايتهم». كما وصف الحملة بأنها «وصمة عار في جبين الصحـافة». ثم أصـدر حكمه بسجن ستيـد لمدة ٣ شهـور، وبسجن ربيكا جـاريت لمـدة ٦ شهـور، وبسجن لويـز موراي لمدة ٦ شهور مع الأشغال الشاقة.

لقـد خسر بستيد يـومها قضيتـه في المحكمة، غـير أن حملته نجحت، وتم إقـرار قانون حماية الأحداث في البرلمان ـ بفعل مقالاته وتأثيرها ـ وذلك في مطلع عام ١٨٨٦، حتى قبل خروجه من السجن.

قضيتـا نفقـة مشهورتـان

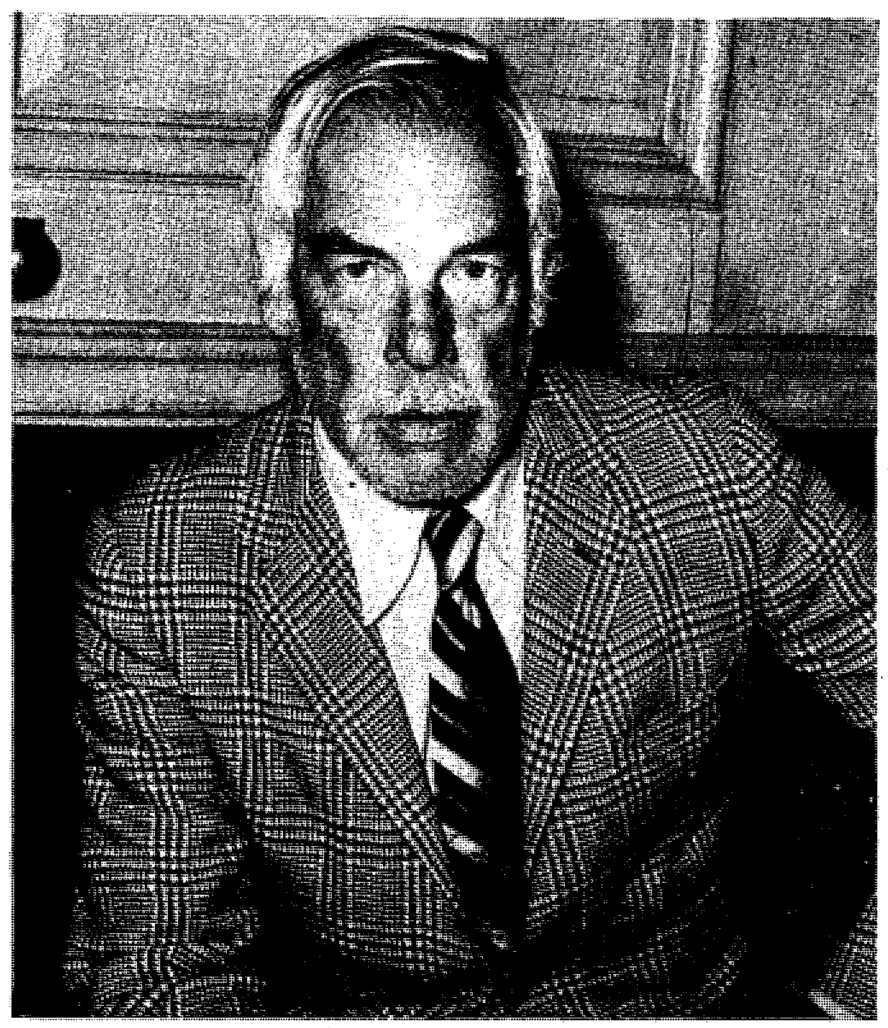
في عام ١٩٧٩ رفعت ميشيل تريولو مارفن دعوى نفقة عـلى النجم السينمائي لي مارفن. وكانت قد عاشت معه كزوجة طوال ست سنوات بدون توثيق عقد زواج فيما بينهما. وعندما هجرها لي قاضتـه ميشيل مـطالبة بنصيبهـا من ممتلكاتـه مثل أي زوجـة يهجرها زوجها.

وفي نيسـان (إبريـل) من العام نفسـه ربحت ميشيل القضيـة، وفتحت بـذلـك البـاب أمام العـديد من النسـاء أمثالهـا في ولاية كـاليفورنيـا، ومن ثم في جميع أرجـاء الولايات المتحدة، ليحذون حذوها. وهكـذا كسبت ميشيل أول قضيـة من نوعهـا في أميركا، بعد محاكمة جالت خـلالها الصحـافة في الحيـاة الشخصية للممثـل الأميركي، وربحت مبلغ ١٠٤٠٠٠ دولار كتعـويض عن «الأضرار» التي لحقت بهـا خـلال تلك السنوات التي عاشاها معاً، ولكي تستطيع أن تبدأ حياة جديدة.

بيد أن لي مارفن استأنف الحكم أمام المحكمة العليا في كـاليفورنيـا والتي ألغت في شهـر آب (أغسطس) ١٩٨١ الحكم السـابق بحجة أن ميشيـل لم تستطع أن تثبت أنها تضررت أثناء عيشها معه. ومع بداية عام ١٩٨٢ كانت ميشيـل قد قـطعت الأمل بالحصول على أية أموال، واستسلمت لهزيمتها في تلك القضية.

ومـع ذلك، فتحت دعـوى ميشيل الأبـواب على اتسـاعها أمـام نساء أخـريات رفعن دعاوى للمطالبة بالنفقـة في حالات ممـاثلة. ومن بين هؤلاء قضيـة نجمة التنس المشهورة بيلي جـين كنغ. وكـان قد مضى عـلى زواج بيلي من زوجهـا لاري كنغ نحـو ١٦ عـاماً. غـير أن الناس فـوجئوا في نيسـان (إبريـل) ١٩٨١ برفـع دعوى نفقـة على السيدة كنغ من قبل سكرتـيرتها السـابقة مـارلين بـارنيت التي ادعت أنها عاشت لعـدة سنوات مع بيلي حياة تميزت بعلاقات سحاقيـة منعتها من الـزواج، وحطمت مـا تبقى من مستقبلها.

كـانت مارلـين بارنيت في ٣٣ من العمـر، وقد سبق لهـا أن عملت في صالـون



النجم السينمائي لي مارفن

لتزيين السيدات. طالبت مارلين بملكية بيت على الشاطىء في ماليبو كانت السيدة كنغ قد وعدتها به. كما طالبت بمعونة مالية تساعدها على العيش بعد أن سقطت في عام ١٩٧٩ من شرفة منزل، وأصيبت بالشلل. وكانت مارلين قد تعرفت على بيلي في أيار (مايو) ١٩٧٢ وتركت عملها السابق لتصبح السكرتيرة الشخصية للسيدة كنغ التي سمحت لها بالإقامة في منزلها الريفي على شاطىء البحر.

في البداية، استنكرت السيدة كنغ ادعاءات مارلين، ونفت الاتهامات الموجهة إليها قائلة: «لقد صدمت كلية وحزنت للعمل الذي قامت به الآنسة بارنيت». ولكنها، عادت في اليوم التالي، وعقدت مؤتمراً صحافياً في لوس أنجلوس اعترفت خلاله ـ مخالفة نصيحة محاميها ـ بأنها كانت «على علاقة غير شرعية مع مارلين بارنيت».

حضر زوجها ووالداها المؤتمر الصحافي ووقفا إلى جانبها عندما كانت تخاطب الصحافيين قائلة: «لقد كنت دائماً صادقة معكم وأمينة، ولذا قررت أن أتحدث إليكم من قلبي، كما عودتكم دائماً. إني حزينة جداً لما فعلته مارلين بنفسها وبمن يحبها ويغار على مصلحتها. لقد كانت غلطة، وأنا أتحمل مسؤوليتها. وقد بحثت الأمر مع لاري وقطعت علاقتي بمارلين، واليوم نحن أقرب إلى بعضنا من أي وقت، وعلاقتنا الزوجية أقوى».

وفي المحكمة أنكرت السيدة كنغ أنها وعدت بارنيت بأي شيء، واتهمتها بأنها قفزت من الشرفة عمداً في محاولة منها للانتحار. أما مارلين بارنيت فقد قالت: «لقد تخليت عن عملي، وهويتي، وكبريائي، ومنزلي». وكانت تأمل باستمرار علاقتها بالسيدة كنغ. كما كانت تأمل بالبقاء في المنزل المتنازع عليه طوال حياتها. غير أن القاضي حكم بضرورة إخلائها للمنزل، واتهمها بمحاولة الابتزاز وقال: بأن الزوجين عرضا عليها ١٢٥ ألف دولار مقابل خروجها من المنزل ولكنها رفضت العرض لأنها كانت تطمع في مزيد من الأموال.

وهكذا خسرت مارلين بارنيت القضية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢، ولم تحصل على شيء. أما السيدة كنغ فقد قدمت استقالتها من رئاسة جمعية التنس النسائية، غير أن الاستقالة رفضت. وكانت السيدة كنغ تتلقى رسائل التشجيع والتعاطف من معجبيها الكثيرين. بل وأعلن بعضهم عن استعداده لدفع ٢٥ ألف دولار مقابل عدم نشر ١٠٠ رسالة كانت السيدة كنغ قد كتبتها لسكرتيرتها السابقة. وقد تم تسوية الأمر بخصوص تلك الرسائل بين محاميي الطرفين فيما بعد، ولم يتم نشر أي من تلك الرسائل.

الفهـــرس